قطوف دانية

من

سور قرآنية

تأليف

الشيخ الأخضر الدهمة

الجزء الثاني

(تفسير قصار المفصل، من سورة الضحى إلى سورة الناس)

(مع التعريف بالمؤلف)

الإعداد للطباعة والتنسيق الفني

د. عبد القادر جعفر

Abdelkader.dja@gmail.com

تصميم الغلاف

عبد الهادي عبد القادر جعفر

1431 هـ / 2010 م

طباعة

مطبعة مداد iMID

شارع الشهيد طالبي أحمد / غرداية / الجزائر
حي البطحاء (مقابل المستشفى) ، متليلي / ولاية غرداية / الجزائر
محمول: 0772868874 فاكس: 029822868
Email: Sobhihocine@yahoo.fr

الإيداع القانوني رقم: 2010-2393 ردمك: 978-9947-0-2940-4

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

سورة الضحى

سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾
أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا
فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا
بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

هي مكية اتفاقا، وآياتها إحدى عشرة.

وهي أول سورة من قصار المفصل من حيث ترتيب السور. كما أنها إحدى السور الثلاث الخاصة بالنبي ﷺ ، والثانية و الثالثة سورتا الشرح والكوثر.

و سبب نزولها: أن الوحي من الله ﷻ لنبيه ﷺ قد انقطع فترة من الزمن (اثني عشر يومًا، أو خمسة عشر)، فقال بعض المشركين: إنّ ربَّ محمد قد تخلى عنه وأبغضه، فكف عنه ما كان يزوده من أكاذيب وكانوا يجابهونه بذلك على سبيل التهكم، وربما توهّم رسول الله ﷺ في نفسه أن الله -تعالى- أمسك عنه وحيه لسبب ما، فكان ﷺ يتألم لهذا الانقطاع حتى نزلت عليه هذه السورة تبشره بأن ربه لم

يتخل عنه، و لم يتركه لشأنه، ويعده بالخير الجم، و يخبره بأن من أولاه عنايته سابقا لم يكن ليتركه لاحقا، ويوصيه بما فيه الخير له و لأمته.

أخرج الحاكم عن زيد بن أرقم، قال: مكث رسول الله ﷺ أياما لا ينزل عليه جبريل، فقالت أم جميل(امرأة أبي لهب) : ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿**والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك و ما قلى...**﴾

وأخرج الشيخان عن جندب أن رسول الله ﷺ اشتكى[1]، فلم يقم ليلتين أو ثلاثا، فأتته امرأة فقالت، يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله تعالى: ﴿**والضحى و اليل إذا سجى...**﴾ الآيات.

وفي رواية الترمذي أن جبريل أبطأ على النبي ﷺ فقال المشركون :قد وُدِّع محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿ **ما ودعك ربك و ما قلى**﴾.

قال الإمام الفخر الرازي-رحمه الله- في تفسيره: "إن انقطاع الوحي فترة من الزمن، ثم تتابعه يدل على أن هذا القرآن ليس من عند محمد، إذ لو كان من عنده لما توقف عن الدعوة إلى ما كان يدعو إليه".اهـ.

و إنما حزن النبي ﷺ لانقطاع الوحي لأنه ذاق حلاوة الاتصال بربه، ولاحت له معالم الحق الذي كان ينشده، فخشي أن يحرم من ذلك المدد الإلهي،

1 - أصيب بجرح في أحد أصابعه، فتألم لذلك.

الذي يكمل به نفسه، ونفوس قومه الضالين عن سواء السبيل، العاكفين على عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل.

﴿والضحى، و اليل إذا سجى، ما ودعك ربك، وما قلى﴾

الواو: واو القسم في كل من"والضحى" و "الـيل".

الضحى: وقت ارتفاع الشمس بعد طلوعها؛ يقال في اللغة: ضحا فلان، يضحو، وضَحِيَ، يضحى: إذا أصابه حر شمس الضحى. ومنه قوله-تعالى-في سورة طه خطابا من الله -تعالى- لآدم عليه السلام: ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها، ولا تعرى، وإنك لا تظمؤا فيها، ولا تضحى** ﴾ الآيتان 115-116. والضمير «ها» فيها يعود إلى الجنة.

سجى اليـل: إذا غطى كل شيء بظلامه، و سكنت فيه الرياح والأصوات فهو ساج، والليلة ساجية، ومصدره :السَّجْو (بسكون الجيم) و السُّجُو (بضم السين والجيم)، و يقال : بحر ساج إذا هدأت أمواجه، وعين ساجيه إذا سكن طرفها، وسجا الميت إذا غطاه.

و بما أن الألف في آخر "سجى" أصلها واو فحقها أن ترسم ألفا طويلة، ولكنها كتبت في المصحف بشكل ياء(سجى) مراعاة للألفات الأخر في أواخر الآيات.

و "إذا " ظرف زمان مجرد من الشرط. وجواب القسم هو قوله -تعالى- في الآية التالية:

﴿ ما ودَّعك ربك و ما قلى﴾

"ما": نافية.

"ودّعك" قطع عنك الوحي الذي كان يمدك به.

وأصل « التوديع » تشييع المسافر و مفارقته؛ شبهت مفارقة الوحي إياه وانقطاعه عنه بمفارقة الحبيب حبيبه المسافر.

و" قلى" فعل ماض، مضارعه: يقلي، و مصدره : القلي (بكسر القاف) والقلاء (بالمد مع فتح القاف)، ومعناه البغض الشديد. و اسم الفاعل منه: قَالٍ، ومنه قوله تعالى في سورة الشعراء حكاية لقول لوط عليه السلام لقومه: **﴿إني لعملكم من القالين﴾** الآية 168، هكذا في صيغة الجمع ومفرده: القَالِي، أي إني من المبغضين لعملكم القبيح.

ومفعول «قلى» محذوف، تقدير الكلام: « قلاك ».

والخطاب في كل الآيات للنبي ﷺ وإنما حذف المفعول به اكتفاء بمفعول « ودع » المذكور وهو كاف الخطاب و موافقة لأواخر الآيات قبله و بعده المختومة بالألف (الضحى-سجى- الأولى-ترضى-آوى-هدى-أغنى).

و جواب القسم يتضمن الرد الصريح القاطع لأقوال المشركين في النبي ﷺ.

و المعني أن الله ﷻ أقسم لنبيه ﷺ بمخلوقين عظيمين من مخلوقاته، هما: الضحى وما فيه من ضياء، و الليل في وقت سكونه وتغطيته لكل شيء. على أن قطع الوحي عنه ما كان بسبب تركه إياه بعد أن اختاره للنبوة والرسالة، و لا بسبب بغضه بعد أن أحبه، و إنما هو لحكمة قال عنها بعض العلماء: إنها الرفق به، حتى تستجم نفسه، أي تتهيأ لتلقي الوحي من جديد.

و في الإقسام بالضحى و الليل إشارة إلى ما فيهما من دلالة واضحة على قدرة الله-تعالى- وحكمته و رحمته ولطفه بالكائنات الحية.

و اعلم -أيها القارئ الكريم- أن الوحي قد احتبس عن النبي ﷺ مرتين - كما جاء في الروايات - المرة الأولى في أول عهده بالنبوة، و الثانية بعد نزول بعض السور، ثم استؤنف بهذه السورة الكريمة ليستمر مدى عشرين سنة ونَيِّفٍ.

﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾

هذه الجملة معطوفة بالواو على جملة القسم.

و اللام في " للآخرة " لام الابتداء، تفيد تأكيد مضمون الآية.

وفي " لك " هي لام الاختصاص.

و " خير" اسم تفضيل، أصله « أخير »على وزن « أفعل » حذفت همزته، وغيرت صيغته.

و " الآخرة" مؤنث « الآخر»، و"الأولى" مؤنث «الأول».

ولنا فيهما تصوران :

التصور الأول: أن المراد بالآخرة حاله ﷺ بعد فترة الوحي، و بالأولى حاله قبلها.

وشتان ما بين الحالين؛ فما أفاضه الله عليه بعد فترة الوحي من قرآن كريم وما أناله إياه من عزة ونصر على الأعداء، و حب في قلوب الأتباع وانتشار للإسلام ، وما أغدقه عليه من كرامات (و منها الإسراء و المعراج) و ما فتح الله له من بلاد و ما جاء على يديه من تشريعات حكيمة للعباد خير مما ناله في أول عهده بالرسالة الإلهية.

التصور الثاني: أن المراد بالآخرة الحياة الثانية في يوم القيامة، و بالأولى الحياة الأولى في الدنيا؛ فما و عد الله به نبيه في الدار الآخرة من إكرام ومميزات كالحوض المورود، و المقام المحمود، والشفاعة العظمى و تقديمه على جميع الأنبياء خير مما منحه إياه في الدار الدنيا من فضائل وكرامات.

و لقوة إيمانه ﷺ بهذا الوعد الإلهي الكريم كان أزهد الناس في الدنيا، روى الإمام أحمد -رحمه الله- عن ابن مسعود ﷺ قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله، ألا

آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئا فقال رسول الله ﷺ : (مالي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة، ثم راح وتركها).

ولما خيَّره ربه-في آخر عمره- بين الخلود في الدنيا، ما دامت قائمة ثم الجنة، و بين توفيه والرجوع إليه، اختار ما عند الله على ما في هذه الدنيا الآيلة إلى زوال.

﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾

اللام في"لسوف" لام الابتداء، بعدها مبتدأ مقدر، فأصل التركيب-والله أعلم- هكذا: لأنت سوف يعطيك ربك، وجملة: (سوف يعطيك...) خبره.

و" سوف " حرف تسويف، يدخل على الفعل المضارع فيسوف معناه أي يؤخر وقوعه إلى المستقبل.

ولام الابتداء المؤكدة لمعنى الجملة مع «سوف» التسويفية يدلان على أن عطاء الله-تعالى- لنبيه ﷺ مؤكد وقوعه، وإن تأخر بعض الشيء لحكمة إلهية.

و فعل " يعطي" ينصب مفعولين أولهما كاف المخاطب المعني به سيدنا رسول الله ﷺ ، وثانيهما محذوف، وحكمة حذفه عموم العطاء ليشمل كل ما يعطيه الله لنبيه، مما تقرّ به عينه، وينشرح له صدره؛ من تثبيت فؤاده بالقرآن الكريم، والهدي المستقيم، وفتح قلوب الناس لدين الإسلام الذي كان حريصا على نشره، و نصره على الجبابرة، وترقيته من عز إلى عز في الدنيا و الآخرة.

وقد تحقق للنبي ﷺ ما وعده به ربه في الدنيا فرضي بذلك تمام الرضا، ولا شك أن ما وُعدَ به في الدار الآخرة واقع لا محالة، ﴿**إن الله لا يخلف الميعاد**﴾. سورة آل عمران الآية 9.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لا أرضى وأحد من أمتي في النار). رواه الخطيب.

﴿ **ألم يجدك يتيما فآوى** ﴾

الهمزة للاستفهام، دخلت على أداة نفي هي « لم » فصار هذا الاستفهام استفهام تقرير، ومعناه حمل المخاطب على الإقرار بمضمون ما بعد النفي و هو- هنا-ثبوت يتمه فإيوائه، وضلاله فهدايته و عَيلته فإغنائه ؛ فالجمل الثلاث من « ألم يجدك »...إلى « فأغنى » كلها داخلة في حيز الاستفهام.

وتذكير الله-تعالى- نبيه ﷺ بإيوائه في يتمه، وهدايته إلى الحق بعد جهله، وإغنائه من فقره دليل على أن من أولاه عنايته سابقا-وهو الله ﷻ - لا يحرمه من عنايته لاحقا فيتركه وشأنه.

" يتيما": فاقداً لأبويك و أنت صغير؛ فإن أباه توفي بالمدينة و أمه حامل به، أو بعد ولادته بقليل، وأمه توفيت بعد بلوغه أربع سنوات أو ستا على خلاف في ذلك بين الرواة.

" آوى": فعل رباعي أصله :أأوى، على وزن أفعل، قلبت الهمزة الثانية ألفا ومضارعه "يؤوي" بضم ياء المضارعة، ومصدره إيواء يقال: آواه :إذا جعل له مأوى يأوي إليه: أي يلتجئ إليه ليجد فيه العناية و الحب والإنفاق؛ ومن ذلك قوله -تعالى-في سورة المؤمنون: ﴿ **وجعلنا ابن مريم وأمه ءاية، وءاويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين**﴾ الآية 50. وقوله -تعالى-في سورة الأنفال: ﴿**واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس، فآواكم، وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** ﴾. الآية 26. وفي سورة المعارج: ﴿**يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه و صاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه..**﴾ الآيات 11-13.

ومفعول " آوى " محذوف، وتقدير الجملة: آواك.

فقد آواه الله-وله من العمر أربع سنوات- عند جده عبد المطلب الذي كان يحبه حبا جما، ويحنو عليه حنوا منقطع النظير.

قال ابن هشام: في السيرة النبوية (نقلا عن ابن إسحاق)...فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم، و كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له، قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر[1] حتى يجلس

1- جفر: بدأ يقوى و يعظم.

عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب-إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على الفراش، و يمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع .اهـ.

وبعد أن مات جده وله من العمر ثمان سنوات آواه الله عند عمه أبي طالب فأولاه من حبه وحدبه عليه ما لم يوله أبناءه حتى كان لا يطيق فراقه، روي أن أباطالب عزم على السفر إلى الشام في رحلة الصيف فتعلق به ابنه المدلل(محمد ﷺ) وهو صغير يريد أن يصحبه في هذا السفر البعيد، فلم يطق أن يجرح خاطره فصحبه معه رغم بعد الشقة.

وذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي عند تفسير سورة الضحى في كتابه: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (نقلا عن ابن هشام) قال : "وذكر ابن هشام في رعاية عمه له أنه كان إذا جنَّ الليل، وأرادوا أن يناموا تركه مع أولاده ينامون حتى إذا أخذ كل مضجعه عمد عمه إلى واحد من أبنائه، فأقامه، وأتى بمحمد ﷺ ينام موضعه، وذهب بولده ينام مكان محمد ﷺ حتى إذا كان هناك من يريد به سوءا، فرأى مكانه في أول الليل، ثم جاء من يريده بسوء وقع السوء بابنه، وسلم محمد ﷺ كما فعل الصديق ﷺ عند الخروج إلى الهجرة في طريقهما إلى الغار، فكان ﷺ تارة يمشي أمامه ﷺ وتارة يمشي وراءه، فسأله ﷺ عن ذلك، فقال : أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون وراءك. فقال: أتريد لو كان سوء

يكون بك يا أبا بكر؟ قال : بلى، فداك أبي و أمي يا رسول الله. ثم قال :إنْ أهلك أهلك وحدي، وإنْ تهلك تهلك معك الدعوة. فذاك عمه في جاهلية، وليس على دينه ﷺ وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه.اهـ.

على أن تربية محمد ﷺ الروحية و الخلقية قد تولاها الله ﷻ، ولذلك طهره من أخلاق أهل الجاهلية و عقائدهم الفاسدة، ونشَّأه منذ صباه إلى فتوته إلى كهولته على صفات الكمال و الجمال؛ فأدبه و أحسن تأديبه.

ومن الأمثلة التي تصور بعض هذا التأديب الإلهي ما جاء في بعض الأخبار من أن أبا طالب أخبر أخاه العباس بشأن محمد ﷺ في صغره: "...ولقد كنت كثيرا ما أسمع منه كلاماً يعجبني، وذلك عند مضي الليل، وكنا لا نسمي على الطعام والشراب، ولا نحمده بعده، وكان يقول في أول الطعام : « بسم الله الأحد» . فإذا فرغ من طعامه قال: « الحمد لله». فتعجبت منه، ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكا، ولا جاهلية، ولا وقف مع صبيان يلعبون".

ومما روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته؛ فإني قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة، لو حفظت لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر بها كما يسمر الشبان، فخرجت أريد ذلك، حتى أتيت أول دار من دور مكة، فسمعت عزفا بالدفوف و المزامير، فقالوا: فلان بن فلان يزوج بفلانة،

فجلست أنظر إليهم، وضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مس الشمس، قال : فجئت صاحبي، فقال :ما فعلت؟ فقلت: ما صنعت شيئا، ثم أخبرته الخبر. قال: ثم قلت له-ليلة أخرى- مثل ذلك، فضرب الله على أذني، فما أيقظني إلا مسّ الشمس. ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمني الله برسالته). انتهى عن ابن هشام.

﴿ و وجدك ضالا فهدى ﴾

"ضالا " : اسم فاعل من ضل، يضل، و المراد بالضلال هنا- والله أعلم بمراده- الغفلة عن شريعة الإسلام على حد قوله تعالى في سورة يوسف: **﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾** الآية 3، وفي سورة الشورى: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات و ما في الأرض...﴾** الآيتان 52-53.

على أنه ﷺ كان يدرك أن ما عليه قومه من الباطل الذي لا شك فيه، ولكنه لا يعلم الشريعة الحقَّة التي ينقذهم بها، فهو حائر حتى أوحى الله إليه بما فيه تطهير قومه من العفن العقدي والخلقي و التعبدي و الاجتماعي، وبذلك هداه الله-تعالى- إلى الحق الذي يكون به الخلاص.

وحذف مفعول الفعل "هدى" الذي هو ضمير المخاطب لموافقة الفواصل، تقديره: هداك.

﴿ و وجدك عائلا، فأغنى ﴾

عائلا : اسم فاعل من « عال- يعيل » بمعنى افتقر. والاسم : العَيْلة قال الله-تعالى- في سورة التوبة: **﴿ و إن خفتم عَيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾** الآية 28.

وقد نشأ ﷺ فقيرا، لم يترك له أبوه ميراثا يستحق الذكر.

ومفعول " أغنى" محذوف، تقديره أغناك، و يقال فيه ما قيل في مفعول "هدى" المتقدم.

وكان إغناؤه ﷺ أولا: بالقناعة التي طبعه الله عليها، وهي التي يقول فيها ﷺ: (ليس الغنى عن كثرة العرض، و لكن الغنى غنى النفس). رواه الشيخان والترمذي. ويقول أيضا : (قد أفلح من أسلم و رزق كفافا، وقنَّعه الله بما آتاه). رواه مسلم وأحمد والترمذي.

و ثانيا: بالربح التجاري الذي حصل عليه من استخدام مال زوجته خديجة رضي الله عنها، فقد كانت تقارض -في مالها- من تتوسم فيه الصدق و الأمانة والكفاءة، وقد انتهت هذه الصفات العظيمة إلى سيدنا محمد ﷺ ثم أغناه الله -فيما بعد- بمال الأغنياء من أصحابه، كأبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ﷺ.

﴿ فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، و أما بنعمة ربك فحدث﴾

الفاء الأولى في " فأما" فصيحة، لأنها تفصح عن المقصود من الكلام السابق. والفاء الثانية في " فلا تقهر" واقعة في جواب " أما " التي هي حرف شرط وتفصيل في الآيات الثلاث، وهذه الشرطية نلاحظها في تقدير الكلام، إذ يقدر بقولنا : مهما يكن من أمر فلا تقهر اليتيم، و لا تنهر السائل، و حدث بنعمة ربك.

اليتيم: مفعول به مقدم لفعل " تقهر" قدم عليه للاهتمام بشأن اليتيم.

تقهر: فعل مضارع مجزوم بـ "لا" الناهية؛ فالله ﷻ نهى نبيه ﷺ عن قهر اليتيم، وقهره هو إذلاله واحتقاره ودفعه عن حقه كما كان يعامل أيام الجاهلية.

تنبيه:

لا يسبقن إلى ذهنك -أيها القارئ الكريم- أن تأديب اليتيم وتعليمه وما يقتضيانه من ضبط وحزم يدخل في النهي عن قهر اليتيم؛ فالواجب على كافل اليتيم أن يحرص على تربيته وتعليمه كما يحرص على تربية أولاده وتعليمهم، و لو أدى ذلك إلى استعمال الشدة معه؛ فالعبرة بما يئول إليه من صلاح في كبره، لا بما يحقق رغباته الطائشة في صغره، فيكون في مستقبل أيامه من الفاشلين أو المنحرفين.

﴿**السائل**﴾: اسم فاعل منصوب بالفعل الذي بعده، و هو " تنهر" قدم عليه للاهتمام بشأن السائل.

وصيغة اسم الفاعل هذه يحتمل أن تكون مشتقة من سأل عن الشيء بمعنى طلب العلم به، و يحتمل أن تكون مصوغة من سأل الشيء بمعنى طلبه من غيره كالمحتاج الذي يطلب المساعدة، و الإحسان إليه بالمال أو المتاع.

والظاهر من ترتيب الآيات أن المراد بـ" السائل " هنا المعنى الأول.

تنهر: فعل مضارع مجزوم بـ "لا" الناهية؛ فالله- تعالى- نهى نبيه ﷺ عن نهر السائل، أي زجره، و إبعاده بالخشونة و الغلظة أي حرمانه مما طلبه من علم.

بنعمة ربك: جار و مجرور ومضاف إليه يتعلق بالفعل الذي بعده وهو "حدث" قدم عليه لتعظيم نعمة الله على عبده .

حدِّث: فعل أمر صادر من الله- تعالى- لنبيه ﷺ.

و التحديث بالنعمة يعني ذكرها و إشاعتها و إظهار آثارها والإحسان بها إلى مستحقيها، من أجل شكر المنعم بها، وشكر النعمة يستوجب المزيد منها، وجحودها يؤدي إلى العقوبة عليها، كما قال-تعالى-في سورة إبراهيم: ﴿ **وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، و لئن كفرتم إن عذابي لشديد**﴾ الآية 7.

روى النسائي عن مالك بن نضلة الجشمي قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا، فرآني رثّ الثياب، فقال :(ألك مال) ؟ قلت : نعم يا رسول الله، من كل المال. قال: (إذا آتاك الله مالا فلير أثره عليك).

ذكَّر الله-تعالى- نبيه ﷺ بتلك النعم الثلاث، وهي إيواؤه و هدايته وإغناؤه، ثم دعاه إلى شكره عليها شكراً يقابل كل واحدة منها (على سبيل اللف والنشر المرتب)؛ فنهيه عن قهر اليتيم يقابل إيواءه في يتمه، و نهيه عن نهر السائل يقابل هدايته إلى الدين الحق، والتحديث بالنعمة يقابل إغناءه عن ذل الحاجة والاستجداء.

فكأن الله - تعالى- يقول له : كما أحسنت إليك في حال يتمك يجب أن تحسن إلى كل يتيم، و أن تتجنب الإساءة إليه قولاً وعملاً، و كما أنقذتك من ظلام الجهل، و أنَرْتُ بصيرتك بنور العلم يجب عليك أن تبش في وجوه السائلين المسترشدين، و ألا تبخل عليهم بما فتحته عليك، وألا تتضايق من أسئلتهم فتنهرهم و تبعدهم، و كما أغنيتك، و يسرت لك وجوه الرزق يلزمك أن تشكرني بإظهار نعمتي عليك بلسانك و هيئتك وببذل ما في وسعك من مال للسائل والمحروم.

روي أن هذه السورة- لما نزلت عليه ﷺ - كَبَّر في آخرها. و روي أمره ﷺ بالتكبير في خاتمتها، وخاتمة كل سورة بعدها. و الله أعلم.

و ينبغي -عند بعض القراء- أن يكون التكبير مفصولاً عن خاتمة السورة بسكتة خفيفة حتى لا يتوهم أنها جزء منها، كما روي قرن التكبير بالتهليل، أوبالتهليل و التحميد. وصفته أن يقول القارئ في آخرها: " لا إله إلا الله، و الله أكبر، و لله الحمد".

و الحكمة في تكبيره ﷺ بعد نزول السورة إحساسه بعظم النعمة التي أنعم الله بها عليه باستئناف إنزال الوحي إليه، فانطلق لسانه بالتكبير، فرحاً و شكراً لله على فضله.

تذيـــــل:

نهى الله-تعالى- نبيه ﷺ عن قهر اليتيم، وعن نهر السائل، وأمره بالتحديث بالنعمة، وهل هناك من الآثار ما دل على أنه ﷺ قهر يتيما، أو نهر سائلا عن علم، أو سائل مال، أو جحد نعمة الله عليه؟ كلا. وهل هذه الوصايا الإلهية من خصوصياته ﷺ ؟ اللهم لا؛ و إنما هي التربية الربانية للرسول الكريم الذي اختاره الله ليجعل منه أكمل إنسان على وجه الأرض، تتجسد فيه الفضائل الإنسانية الممتازة، و يكون منه أمثل نموذج يقتدي به الناس في أخلاقهم ومعاملاتهم، وأنماط سلوكهم...

و إلا فإن الوحي السماوي الجاري على لسانه ﷺ يدعو الناس كلهم إلى مثل ما دعي إليه، إلا ما ثبت بالدليل أنه من خصائصه ﷺ .

أدلــة عـدم الخصوصـيـة:

و إليك-أيها القارئ الكريم- بعض النصوص القرآنية و النبوية الدالة على عدم الخصوصية، وهي غيض من فيض:

- فـي موضوع اليتـيم :

قال الله-تعالى- في سورة البقرة: ﴿ **ويسألونك عن اليتامى، قل :إصلاح لهم خير، و إن تخالطوهم فإخوانكم، والله يعلم المفسد من المصلح** ﴾ الآية 220.

وفي سورة النساء: ﴿ **وءاتوا اليتامى أموالهم، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، إنه كان حوبا كبيرا**﴾ الآية 2.

و روي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال :قال رسول الله ﷺ : (من كفل يتيما له -ذا قرابة أو لا قرابة له- فأنا وهو في الجنة كهاتين (وضم إصبعيه)، ومن سعى على ثلاث بنات فهو في الجنة، وكان له كأجر المجاهد في سبيل الله). رواه مسلم .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، و شر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه). رواه بن ماجه.

- و في موضوع السائل عن العلم، ونشر المعرفة:

قال الله-تعالى- في سورة البقرة: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى- من بعد ما بيناه للناس في الكتاب- أولئك يلعنهم الله، ويلعنهم**

اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحوا و بينوا فأولئك أتوب عليهم، وأنا التواب الرحيم ﴾. الآيتان 159-160.

و في سورة يوسف: ﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله، و ما أنا من المشركين**﴾ . الآية 108.

وعن سمرة بن جندب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (ما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر). رواه الطبراني وغيره.

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار). رواه أبو داود والترمذي.

- **وفي التصدق على السائل** :

يقول الله -تعالى- في سورة الذاريات عن أهل الجنة: ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلا من اليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم**﴾. الآيات 16-19.

ويقول تعالى في سورة البقرة تبيانا للبر الحقيقي: ﴿**...وءاتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى و المساكين و ابن السبيل والسائلين وفي الرقاب**﴾الآية177.

وعن أم بجيد -رضي الله عنها- أنها قالت : يا رسول الله، إن المسكين ليقوم على بابي، فما أجد شيئا أعطيه إياه، فقال لها رسول الله ﷺ : (إن لم تجدي إلا ظلفا محرقا فادفعيه إليه في يده) . رواه الترمذي و ابن خزيمة.

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (يقول العبد : مالي، مالي. وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فاقتنى (وفي رواية: فأبقى) ما سوى ذلك فهو ذاهب و تاركه للناس). رواه مسلم.

- وفي شكر النعمة و التحديث بها:

قال الله-تعالى- في سورة إبراهيم: **﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾** . الآية 7.

وفي سورة البقرة: **﴿ فاذكروني أذكركم، واشكروا لي، ولا تكفرون﴾**. الآية152.

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر). عن المنذري في الترغيب والترهيب نقلا عن عبد الله بن أحمد في زوائده.

وعن أنس ﷺ قال : « قال المهاجرون: يا رسول الله، ذهب الأنصار بالأجر كله : ما رأينا قوما أحسن بذلا لكثير، و لا أحسن مواساة في قليل منهم ولقد كفونا المئونة، قال ﷺ : (أليس تثنون عليهم به ؟ وتدعون لهم؟) قالوا: بلى. قال: (فذاك بذاك). رواه أبو داود والنسائي.

سورة الشرح

سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

سميت بهذا الاسم لأنه مصدر الفعل الذي افتتحت به، و هو قوله تعالى "**نشرح**" يقال -في اللغة - شرح الشيء، يشرحه، شرحا، و هي مكية، و عدد آياتها ثمان.

وارتباطها بالسورة التي قبلها واضح، سواء أكان ذلك من حيث الأسلوب؛ فهو متشابه، أم من حيث الموضوع، فكلتاهما عددت النعم التي أنعم الله بها على نبيه ﷺ.

﴿ ألم نشرح لك صدرك ؟﴾

الهمزة استفهامية دخلت على "لم" النافية؛ فالاستفهام تقريري (كما سبق تفصيله في سورة الضحى)، والمعنى: شرحنا لك صدرك.

وذلك لتذكير الله – تعالى– نبيه ﷺ بما تفضل به عليه؛ من شرح صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره، ليقوي عزمه على تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس، غير عابئ بتكذيبهم و عنادهم...

و"**الشرح**" في معناه الحقيقي: تقطيع اللحم، وبسط أجزائه –كما قال علماء اللغة–و في معناه المجازي: رضا النفس بالحالة التي تطرأ عليها، و ابتهاجها بها،وتفتحها لما فيه خيرها...و هو المعنى المناسب هنا لشرح الصدر، كما قصه الله– تعالى– عن موسى عليه السلام في دعائه ﴿ **رب اشرح لي صدري، و يسر لي أمري...**﴾ الآيتان 25–26 من سورة طه، وكما جاء في سورة الزمر من قوله – تعالى–: ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه...**﴾ . الآية22.

و إذا كان شرح الصدر كناية عن تفتحه لقبول الإسلام و الدعوة إلى اعتناقه، فإن ضيقه وانقباضه كناية عن رفضه ومحاربته؛ قال الله –تعالى– في سورة الأنعام: ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام و من يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا، كأنما يصَّعَّد في السماء** ﴾. الآية 125.

و شرح الله–تعالى– لصدر نبيه ﷺ يتجلى في تقبّله لرسالة ربه إلى الناس بصدر رحب، و تبليغها إليهم بأمانة و صدق، غير مبال بما يلقاه – في سبيلها – من إيذاء معارضيها.

و من يدرس السيرة النبوية -على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية- تبهره المواقف الرائعة التي كان يقفها ﷺ إزاء المعارضين الطاغين.

فقد ذكر ابن هشام أن صناديد قريش شكوه ﷺ إلى عمه أبي طالب ذات يوم فرجاه أن يهادن القوم، ويكف عن تحقير آ لـهتهم، و تسفيه أحلامهم، وأن يبقي عليه وعلى نفسه، فماذا كان جوابه؟ إنه قوله: (يا عم، و الله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته).

وكان كثيرا ما يقابل أذى قومه بقوله:(اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون). وكان يقول: (إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله). و قد تحقق ما كان يرجوه.

و من الأسباب التي جعلت صدر رسول الله ﷺ ينفتح للدعوة وآثارها أن الله-تعالى- حصر مهمته في التبليغ فقط، أما توفيق المدعوين إلى الإسلام فهو من شأن الله-تعالى-: ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ سورة القصص الآية56، و جاء في سورة الشورى قوله -تعالى- :﴿ **فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا، إن عليك إلا البلاغ** ﴾.الآية48. وفي سورة فاطر: ﴿...**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إن الله عليم بما يصنعون** ﴾.الآية: 8 .

إلى آخر ما هنالك من آيات مماثلة.

هذا وقد شرح الله -تعالى- صدر نبيه ﷺ شرحا من نوع آخر كما ثبت في حادثة شق الصدر المعروفة.

﴿ ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ﴾.

الوضع المفهوم من فعل **"وضع "** معناه: الحط، يقال: وضع فلان الشيء في الخزانة، إذا حطه فيها، ثم إذا عدي الفعل إلى معموله بحرف الجر "على". فقيل: وضع فلان الحمل على ظهره كان معناه أنه جعله فوق ظهره، و إذا عدي بحرف الجر "عن" فقيل: وضع الحمل عن ظهره كان معناه أنه أزاحه عن ظهره، وارتاح منه؛ و بما أن هذا الفعل -هنا- عدي بـــ"عن" فمعناه أن الله-تعالى- قد أراح نفس نبيه من الوزر الذي كان يشعر شعورا قويا بثقله. و "الوزر" في الحقيقة اللغوية:الحمل، و جمعه : أوزار، ويطلق -مجازا- على الإثم، و على الهم و الغم (تشبيها للوزر المعنوي بالوزر المادي).

قال -تعالى- في سورة الإسراء (وفي غيرها أيضا): ﴿**ولا تزر وزارة وزر أخرى** ﴾. الآية 15؛ أي لا تحمل نفس آثمة (و لا غير آثمة) إثم نفس أخرى فكل نفس تحاسب بما كسبت.

ومن شواهد استعمال "الوزر" في معناه المجازي أي الإثم قوله -تعالى- في سورة النحل: ﴿ **...ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرون**﴾ الآية25.

و بما أن الله-تبارك وتعالى- قد عصم رسوله ﷺ من الوقوع في الإثم في فترتي الجاهلية والإسلام فالظاهر أن المراد بالوزر الذي وضعه عنه هو الغم الذي كان يؤرقه، و يقض مضجعه.

أما قبل النبوة فمن جراء ما كان عليه قومه من شرك و عادات سيئة مع جهله بكيفية هدايتهم، و أما بعد النبوة فباستعصائهم عليه، و رفض استنارتهم بالنور الذي جاءهم به من عند ربه، واتهامهم إياه بما هو بريء منه من كذب وكهانة وسحر وشعر وجنون وحب رئاسة...الخ.

و قد وصف الله -تعالى- هذا الوزر المعنوي الذي كان يشق على النبي ﷺ وصفا ماديا بقوله: ﴿ **الذي أنقض ظهرك** ﴾ يقال في اللغة: أنقض الحمل ظهره: إذا أثقله إثقالا شديدا حتى سمع له نقيض أي صوت، كالصوت المنبعث من القتب أو المحمل. وهو تمثيل بليغ للمشقة العظيمة التي كان الرسول ﷺ يكابدها من حرصه الشديد على هدايتهم فخفف الله عنه هذا العبء النفساني، و يسر له المضي في سبيل الدعوة إلى الله غير آبه بما يعترضه من منغصات ومؤثرات...حتى أقر الله عينه بالنصر المبين، و جعل كلمة الذين كفروا السفلي، و كلمة الله هي العليا. ومن الآيات المناسبة لهاتين الآيتين قوله-تعالى- في سورة الشعراء: ﴿**لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين** ﴾ الآية3. و قوله في سورة الكهف: ﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾ الآية6.

وبخع النفس قتلها بسبب الهم و الغم، وفي ذلك تصوير لحال النبي ﷺ مع قومه، وعتب لطيف له على إهلاك نفسه في سبيل إنقاذهم من الضلال وما ينجم عنه من عقاب شديد، وفيه أيضا تخفيف عليه من الحرج و الضيق النفسي الذي يشبه الوزر المضني و الحمل الثقيل.

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾

والمعنى: أعلينا لك مقامك، أي جعلنا لك منزلة سامية مرموقة: عندنا:بتمجيدك في الملأ الأعلى، وعند الملائكة:بالدعاء لك، و عند المؤمنين بك: بالتصلية والتسليم عليك كلما ذكر اسمك؛ قال الله-تعالى-في سورة الأحزاب: ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبيء، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه، و سلموا تسليما**﴾. الآية56.

ومن الأمثلة البارزة لذلك أن الله-تعالى- قرن اسمه ﷺ باسمه في شهادة الدخول إلى الإسلام؛ فلا يصح إسلام أي إنسان إلا إذا أردف شهادته لله بالوحدانية بشهادته لمحمد ﷺ بالرسالة، كما قرن اسمه باسمه في الأذان و الإقامة والتشهد والخطب المنبرية و غيرها، و في مواضع من القرآن الكريم: قال الله-تعالى- في سورة التوبة: ﴿ **والله ورسوله أحق أن يرضوه، إن كانوا مؤمنين** الآية62، وفي سورة النساء: ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين و الصديقين و الشهداء والصالحين...**﴾ الآية69.

ومن ذلك ذكره في الكتب السماوية السابقة، و تبشير الأنبياء ببعثته، وبطبيعة الرسالة التي سيأتي بها للعالمين، لتكون آخر الرسالات السماوية. قال الله -تعالى- في سورة الأعراف: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون، و يؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، و ينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، و يحرم عليهم الخبائث،ويضع عنهم إصرهم[1] والأغلال[2] التي كانت عليهم**﴾ الآيات 156-157.

وقد هيأه الله ﷻ - من قبل إرساله - بتربيته على الخصال الحميدة و حمايته من الصفات المشينة، ليذكره الناس بما يذكرون به أعظم الرجال وأطهرهم، وقد بلغ من إكبار قريش له، وإعجابهم بأخلاقه وسلوكه أن لقبوه بـ"الصادق الأمين" بحيث إذا لفظ هذان الوصفان بين الناس لم تنصرف أذهان السامعين والسامعات إلا له ﷺ و يكفي في التنويه به، و رفع قدره ما مدحه الله به في سورة القلم، حيث يقول : ﴿**... وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ الآية 4.

﴿ **فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا** ﴾

"**العسر**": الشدة و الضيق. و"**اليسر**": ضده، وهو السعة والفرج والإتيان به نكرة يدل على تفخيمه وتعظيمه كأنه قال: يسرا و أي يسر، والمعية

---

1 - يضع عنهم إصرهم:يحط عنهم ثقلهم المعنوي و هو التكليف الشاق.

2 - الأغلال التي كانت عليهم : القيود المعنوية التي كانت مفروضة عليهم، و هي تحريم بعض الطيبات.

المفهومة من "مع" معناها: المصاحبة أي إن سنة الله في خلقه أن يتبع العسر باليسر.

و الفاء التي صدرت بها الآية الأولى تفصح عن كلام مقدر قبلها يفهم من السياق، تقديره: إذا تقرر أننا شرحنا لك صدرك بعد ضيقه، ووضعنا عنك وزرك بعد معاناته، ورفعنا لك ذكرك في العالمين، فإنما ذلك لأن مشيئتنا اقتضت أن يأتي اليسر بعد العسر و أن يكون الفرج في عقب الكرب.

وحرف "إن" المؤكد للجملة يدل على الاهتمام بمضمونها، لتقريره في القلوب. وفي ذلك وعد من الله ﷻ لنبيه ﷺ بأنه كلما نالته -وأتباعه-الشدة والحرج منّ الله عليهم بالسعة و الفرج، وقد تحقق مصداق هذا الوعد في حياته ﷺ و حياة أصحابه ومن بعدهم.

وتكرير الآية يفيد تأكيد مجيء اليسر بعد العسر، وهذا التأكيد يوحي بترجيح اليسر وتكثيره، ولعل هذا التكثير هو الذي عبر عنه النبي ﷺ بصيغة التثنية فيما روي عنه من قوله -لما نزلت الآيتان-: (ابشروا أتاكم اليسر، لن يغلب عسر يسرين). رواه البيهقي.

و العرب يكنون-أحيانا- عن التكثير بصيغة التثنية، كقول الحاج أو المعتمر: **"لبيك اللهم لبيك"**، أي إجابة بعد إجابة، وكقول المدرس: وهكذا دواليك . أي مداولة بعد مداولة، و كقول العربي لمخاطبه: فكر في الأمر مرتين؛

ومن ذلك قوله-تعالى-في سورة الملك: ﴿...**ثم ارجع البصر كرتين...**﴾ الآية4؛ وما زلنا نسمع في بلادنا من يعبر عن كثرة ترحيبه بصديقه الزائر بقوله: مرحبتين. (وذلك باللسان الدارج).

و يمكن أن يراد باليسرين يسر الدنيا و يسر الآخرة، على حد قوله-تعالى- في سورة التوبة: ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ؟** ﴾ الآية52، أي حسنى النصر و حسنى الشهادة.

ولعل كلام النبي ﷺ جار على القاعدة المشهورة و هي أن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى، وأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى. (وفي الآيتين ذكر العسر معرفا بأل واليسر منكرا).

ولكن هذه القاعدة ينغص عليها ما جاء في قوله ﷻ: ﴿ **وهو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله** ﴾ الزخرف 84. فلو طبقنا تلك القاعدة لكان هناك إلـه في السماء و إلـه آخر في الأرض. وهو اعتقاد باطل، و في قوله تعالى:﴿ ... **ياخذه عدو لي و عدو له**﴾ طه39 .

وينغص عليها أيضا قول العربي: إن مع الفارس سيفا إن مع الفارس سيفا، فلا يفهم من هذا الكلام أن لهذا الفارس سيفين...الخ اللهم إلا إذا اعتبرنا القاعدة أغلبية وليست مطردة في كلام العرب.

وأعود إلى مضمون الآية لأقول: إن أحد الشعراء قد صاغه في قالب شعري جميل فقال:

فلا تيأس إذا أعسرت يومـــا فقد أيسرت في دهر طويـــل

فلا تظنن بربك ظن ســـوء فإن الله أولى بالجميـــــل

فإن العسر يتبعه يســـــار وقول الله أصدق كل قيـــل

وقال غيره:

ولرب نازلة يضيق لها الفتـــى ذرعا و عند الله منها المخـــرج

ضاقت فلما استحكمت حلقـاتها فرجت، و كان يظنها لا تفـرج

﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾

الفاء : تفريعيه؛ فرعت ما بعدها على ما قبلها.

"فرغت": انتهيت من عمل ما و لم يعين هذا العمل لإفادة التعميم .

و النصَب المفهوم من فعل الأمر **" انصب"** الاجتهاد في العمل إلى حد التعب.

و المعنى: أن إحساسك بنعم الله عليك قد استقر في ذهنك فلم يبق إلا أن تقابل النعم الجليلة بشكر المنعم بها عليك، و ذلك بأن تجتهد في عبادة ربك،

وتتأمل في عجائب صنعه، وتتهجد بالقرآن العظيم بعد أن تفرغ من الدعوة إلى الله، و من الجهاد في سبيله، و من شو اغل الحياة الدنيوية.

و قد كان ﷺ المصداق التام لهذا التوجيه الإلهي؛ فلم يُرَ إلا معلماً أو واعظاً، أو مجاهداً، أو متفقداً لأحوال أمته أو مقبلاً على مناجاة ربه.

و العلماء العاملون يعدون قعود الرجل (أو المرأة) فارغاً من غير شغل أومشتغلاً بما لا يعنيه، و لا يفيده في دينه أو دنياه من سفاهة الرأي و سخافة الطبع، و استيلاء الغفلة.

و عن عمر بن الخطاب ﷺ : إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سبهللا لا في عمل دنياه، و لا في عمل آخرته.

﴿وإلى ربك فارغب﴾

"ارغب": فعل أمر مصوغ من : رغِب، يرغب، من باب: فرِح، يفرح.

و يتحدد معناه المقصود بواسطة حرف الجر الذي يتعدى به إلى معموله: فإن عدي بـ "في" فقيل: رغب في الشيء كان معناه أنه أحبَّه فطلبه، و إن عدي بـ "عن" فقيل: رغب عن الشيء كان معناه أنه زهد فيه فتركه، و منه قوله-تعالى- في سورة البقرة: ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه**﴾الآية130 . وفي سورة مريم حكاية لقول آزر لإبراهيم عليه السلام :﴿**قال أراغب أنت عن آلهتي**﴾؟ الآية

46، و إن عدي بـ "إلى " كما في هذه الآية كان مضمناً معنى فعل الأمر: توجه أو أقبل.

وتقديم الجار والمجرور والمضاف إليه على عامله وهو " ارغب" لإفادة الاختصاص.

و المعنى : يجب عليك- أيها الرسول- أن تتوجه إلى ربك وحده، دون سواه، من أجل تحقيق رغباتك؛ فهو المختص بالقدرة على إجابة المطالب، قال بعض الحكماء - اقتباساً من الآيتين الأخيرتين - : المطلوب من الشخص أن يرى ساعياً في حسنة لمعاده، أو درهم لمعاشه.

تذييـــل: قيمة الوقـت:

قد أدب الله نبيه محمدا ﷺ فأحسن تأديبه.

و من وجوه تأديبه في هذه السورة الكريمة أمره إياه بألا يفرغ من عمل حتى يدخل في عمل آخر من أعمال الدين و الدنيا، و أن يكون توجهه إلى الله وحده ابتغاء وجهه الكريم، استعدادا للقائه، و الظفر برضائه ﴿ **فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب**﴾.

و بما أن لنا -معشر المسلمين- في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة بمقتضى قوله-تعالى- في سورة الأحزاب: ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة، لمن**

كان يرجوا الله، واليوم الآخر، وذكر الله كثيرا ﴾ الآية 21، فلنترسم خطاه جادين في الأعمال النافعة للفرد والجماعة، مثابرين على أنواع النشاط الديني والدنيوي، وذلك لأن الله ﷻ لم يخلق الدنيا من أجل الخلود فيها؛ فما هي إلا مزرعة لبذور الأعمال لتحصد نتائجها في الدار الآخرة، و لم يخلق آدم عليه السلام و ذريته للعبث، إنما خلقوا لأجل أداء الرسالة الإلهية التي ناطها بهم، وهي عمارة الأرض، وتنفيذ مشيئته فيها، و تمحيص القائمين بها ليكون الجزاء الأوفى على الحسنات والسيئات في الدار الأخرى، قال الله-تعالى- في سورة المؤمنون: ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا، وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ الآية 115. وفي سورة النجم : ...﴿**و أن ليس للإنسان إلا ما سعى، و أن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى**﴾. الآيات 39-41.

و بناء على ذلك فالوقت ثمين جدا جدا، من أحسن التصرف فيه ضمن لنفسه -بفضل الله- السعادة الأبدية، و من أساء التقلب فيه أورد نفسه -بعدل الله- الموارد الموبقة. قال ﷺ فيما يرويه الإمام الترمذي -رحمة الله عليه- : (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه؟ و عن شبابه فيم أبلاه؟ و عن علمه ماذا عمل به؟ و عن ماله من أين اكتسبه؟ و فيم أنفقه؟).

فالعمر (و هو وقت) فرصة غالية أتاحها الله-تعالى-للإنسان لتقرير مصيره النهائي حتى لا تكون للعبد حجة على سيده في يوم لا ينفع فيه مال و لا

بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وحتى لا يندم ولات ساعة مندم، كما قال – تعالى– في سورة فاطر، حكاية لقول المجرمين – وهم في نار جهنم–: ﴿ **ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل**﴾.فيقال لهم :﴿ **أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير؟، فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾ الآية 37.

و قيمة الوقت إنما جاءته من حيث إن أي فترة منه مضت لن تعود بخلاف المتاع الدنيوي فقد يعود، وربما بأوفر مما فات. ومن ثم قال العرب في أمثالهم: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، و قالوا : الوقت إما صديق ودود، أو عدو لدود؛ قالوا هذا الكلام حين كان الوقت يتسع لواجباتهم البسيطة، و لا يهتمون بغير الساعات و الدقائق، أما الآن و قد تطورت الحياة في شتى الميادين، وكثرت الأشغال، وعجز الوقت عن استيعابها، وأصبحت الثواني محسوبا لها حسابها في النجاح أو الفشل، و المغنم أو المغرم، فيجب علينا أن نحرص على الوقت حرص الرجل الشحيح على المال النفيس، و أن نعد الحياة هي الوقت نفسه، كما صاغ هذا المعني في قالب شعري المرحوم أحمد شوقي فقال :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق و ثوان

لذلك يجب أن نستغل الوقت أحسن استغلال، و استغلاله إنما يحصل بدوام النشاط فيما يفيد عاجلا أو آجلا.

و من رحمة الله بالإنسان أن حذره من الغفلة عن أهمية الوقت، وإهداره في اللهو و الهزل حتى إذا أدركه الموت استيقظ و تنبه و تحسر على ما أمضى فيه عمره من تفاهات، ثم إذا قامت القيامة استشعر قلة الأيام التي قضاها في الدنيا . مصداق ذلك قوله -تعالى- في سورة يونس: ﴿**ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار...**﴾ الآية45، و في سورة النازعات : ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾الآية46، و الغريب في الإنسان أنه يفرح بكل يوم جديد، و لا يحاسب نفسه على ما قدمه في اليوم القديم، غير شاعر بأنه قطع جزءا من أجله المقدر له في هذه الحياة. و قد صدق الشاعر العربي في قوله :

إنا لنفرح بالأيام نقطـعـها و كل يوم مضى نقص من الأجل

ومما يروى عن الحسن البصري رحمه الله: (ما من يوم ينشق فجره إلا نادى مناد من قبل الحق: (يا ابن آدم، أنا خلق جديد، و على عملك شهيد، فتزود مني بعمل صالح، فإني لا أعود إلى يوم القيامة).

ومن وصايا رسول الله ﷺ في استغلال الوقت قوله :(اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، و صحتك قبل سقمك، و غناك قبل فقرك و فراغك قبل شغلك، و حياتك قبل موتك). رواه الحاكم.

ومن جوامع كلمه ﷺ في ذلك: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ). البخاري و مسلم.

و هذا الغبن يشعر به المتسبب فيه حين يمرض فيتطلع إلى عمل ما من أعمال الخير فيعجز عنه فتخيم عليه الحسرة، و يلذعه الندم! أو تتراكم عليه الأعمال، وتلح عليه واجبات في فترة ما فيتأسف على ضياع وقت فراغه دون أن ينتفع به في قضاء بعض مآربه.

و التربية الإسلامية تدعونا إلى تنظيم أعمالنا في أوقاتنا؛ بحيث نخصص لكل جزء منها ما يناسبه، و يضمن استمراره، و نتجنب طغيان بعضها على بعض فقد يندفع الإنسان في عمل ما اندفاعا قويا، ثم لا يلبث أن يعتريه الملل فيتركه بكليته، أو يفرط في عمل ما على حساب عمل آخر، فيعيش في الفوضى والاضطراب و الفشل. قال ﷺ: (يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون؛ فإن الله-تعالى- لا يمل حتى تملوا. وإن أحب الأعمال إلى الله مادام، و إن قل). رواه البخاري و مسلم.

و قالت عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- : دخل علي رسول الله ﷺ وعندي امرأة من بني أسد، فقال: "من هذه؟". قلت: فلانة، لا تنام الليل. فقال: (مه[1] عليكم من الأعمال ما تطيقون). رواه البخاري و مسلم وغيرهما.

و نظام الحياة في الإسلام يقوم على أن اليوم يبتدئ من طلوع الفجر لا من طلوع الشمس، وأن السهر -في غير ما يفيد- مكروه كراهية شديدة. قال -

1 – مه : اسم فعل أمر بمعنى اكفف.

تعالى- في سورة الإسراء: ﴿ **و قرءان الفجر، إن قرءان الفجر كان مشهودا**﴾. الآية78. و قال رسول الله ﷺ : (اللهم بارك لأمتي في بكورها). رواه الترمذي وأبوداود و أحمد و الدارمي.

و من ثم ندرك مقدار الخطأ في سلوك أولئك الذين يسهرون إلى ما بعد منتصف الليل، ثم لا يستيقظون إلا عند الضحى، غير آبهين بفوات الوقت المختار، ثم الضروري لصلاة الصبح، وما يتبعها من أذكار مسنونة في ذلك الوقت، و لا عابئين بذلك الفراغ الذي يجب أن يستفيدوا منه في إنجاز بعض الأشياء قبل شروعهم في العمل الرسمي العادي.

و من الظواهر المؤسفة في بلادنا التي يدين أهلها بالإسلام أن الكثير منا لا يحترمون الوقت، و لا ينضبطون في مواعيدهم سواء أكان ذلك في ابتداء وظائفهم أم في الانتهاء منها، و سواء أكان ذلك في الدعوات الخاصة أم في الدعوات العامة، فانعكست الأحكام؛ فبعد أن كان المسلمون مضرب المثل في ضبط الوقت و احترامه صاروا إلى عكس ذلك، بينما التعاليم الإسلامية تنادي على أصحابها صارخة بضبط الوقت و الانتفاع به، و الشواهد على ذلك كثيرة في مجالات الإسلام المختلفة من عبادات و معاملات...

خذ إليك -مثلا- بعض العبادات، كالصلاة والصيام ومناسك الحج فهل تقبل ممن أداها قبل وقتها المحدد ؟ وهل يسلم من الإثم من قضاها بعد وقتها ؟

فكان المفروض في المسلم الذي تربى على هذا النظام الدقيق أن يصير الانضباط فيه مَلَكة راسخة تيسر له الاستفادة من كل لحظة في حياته هذه، ليضمن لنفسه النجاح في هذه و تلك.

سورة التين

سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

سميت بهذا الاسم لوروده فيها .

وهي مكية ، و عدد آياتها ثمان .

ومناسبتها لما قبلها : أن الله ـ تعالى ـ ذكر في سورة الشرح حال أكمل إنسان ﷺ، وفي هذه ذكر أحط إنسان إذا تمرد على فطرته السليمة التي خلقه الله عليها .

﴿وَالتِّينِ وَ الزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ .وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾

أقسم الله ﷻ في أول هذه السورة بأربعة أشياء : فاكهتين ؛ هما التين والزيتون ، ومكانين ؛ هما طور سينين، والبلد الأمين .

وإذا كان المفسرون قد اتفقوا على المراد من طور سينين ، والبلد الأمين، فقد اختلفوا في المراد من التين و الزيتون.

مدلولات التين و الزيتون:

- فمن قائل : إن المقصود منهما الثمار التي ينتجها شجر التين و الزيتون، وقد روي هذا المعنى عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقد كان يقول فيهما : (تينكم الذي تأكلون، و زيتونكم الذي تعصرون)، وعلى هذا التفسير نفهم أن الله ـ تعالى ـ أراد أن يلفت نظر العقلاء من بني آدم إلى ما في هذين النوعين المأكولين من منافع للناس كي يشكروه عليها؛ فالتين غذاء سريع الهضم، مفيد للجسم، وفاكهة لذيذة الطعم، ودواء شاف من علل كشف عنها الأطباء.

و الزيتون ـ كذلك ـ فاكهة يتلذذ بها الآكلون ،وإدام عظيم النفع، ودواء لبعض الأمراض، وقد أخبرنا الله في سورة النور بأنه أودع في شجرته البركة والخير الكثير ، حيث يقول : ﴿ ... **يوقد من شجرة مباركة : زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار...**﴾. الآية35، كما ذكرها بالاسم -في جملة ما أنعم الله به على العباد - حيث يقول في سورة المؤمنون: ﴿...**وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن، وصبغ للآكلين..**﴾ الآية 20.

وفي الآية ـ أيضا ـ توجيه إلى ما في إنشاء التين و الزيتون من إبداع يدل على قدرة الله، وحكمته البالغة .

- ومن قائل : إن المراد بالتين ـ والله أعلم بمراده ـ شجرته التي التجأ إليها آدم عليه السلام وزوجه وهما في الجنة ـ ليسترا عوراتهما من ورقها بعد انكشافها من جراء

وسوسة الشيطان لهما بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله ﷻ عن القرب منها ، قال الله - تعالى- في سورة الأعراف: ﴿..**ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما، وقال:ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين، أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما: إني لكما لمن الناصحين، فدلاّهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما: إن الشيطان لكما عدو مبين؟ قالا:ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننن من الخاسرين، قال:اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين...**﴾الآيات19-24.

وعلى هذا التفسير قد يكون في الآية تذكير للآدميين بحالة من حالات أبويهم ليتعظوا، فلا ينخدعوا -كما انخدع أبواهم من قبل- بوساوس الشيطان الذي يزين لهم الفواحش ، ويغريهم بالاعتداء على حدود الله، حتى لا يحصل لهم الندم في عاقبة أمرهم، وقد لا تنفعهم التوبة وإن نفعت أبويهم.

- ومن قائل : إن في ذكر التين رمزا لمنبته في الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام بعد الطوفان، وفي ذلك إشارة إلى الشريعة التي أوحى الله ﷻ بها إلى نوح عليه السلام.

وتسمية المكان باسم الشجر النابت عليه معروف عند العرب، وذلك كتسمية المكان الذي كثر فيه العفر بـ(العفر)، وتسمية المكان الذي كثر فيه شجر الطرفاء بـ(الطرفاء)، وتسمية المكان الذي كثر فيه شجر الدفلى بـ(الدفلى)الخ...

ويمكن أن يفهم من ذكر الزيتون الإشارة إلى غصن الزيتون الذي عادت به الحمامة التي أطلقها نوح عليه السلام من السفينة لتستطلع له حالة الطوفان، فلما عادت ومعها غصن الزيتون عرف أن الأرض قد انكشفت.

كما يمكن أن يراد به منبته حول القدس الشريف الذي بارك الله حوله مباركة مادية تتمثل في الأشجار المثمرة والمياه المتدفقة، ومباركة معنوية بإنزال وحيه على أنبيائه هناك، وأبرزهم إبراهيم وعيسى -عليهما الصلاة و السلام .

طور سينين: ويقال طور سيناء كما جاء عند قوله ـ تعالى ـ في سورة المؤمنون:﴿**وشجرة تخرج من طور سيناء** ...﴾ الآية20، فهو الجبل المبارك الموجود في صحراء سيناء المصرية، الذي شرف الله ـ تعالى ـ عنده موسى عليه السلام بندائه ومناجاته وبعثه إلى فرعون وملئه، قال الله ـ تعالى ـ في سورة مريم:﴿...**وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا** ﴾ الآية 52.

البلد الأمين: هو مكة المكرمة مولد رسول الله ﷺ ومبعثه ومهبط الوحي الإلهي عليه، ومحضن الكعبة المشرفة التي رفع قواعدها إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام .

وقد وصف البلد بالأمين لأن الله ﷻ جعله ذا أمن، فهو في ذاته آمن، من أراده بسوء قصمه الله ـ كما وقع لأصحاب الفيل ـ ومن دخله كان آمنا من الاعتداء عليه، قال الله ﷻ في سورة العنكبوت :﴿**أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا، ويُتَخَطَّفُ الناس من حولهم**﴾؟ الآية 67.

وأشير إلى البلد الأمين باسم الإشارة (هذا) لأنه حاضر أمام المخاطبين فيه.

وبناء على تفسير التين والزيتون بمنابتهما، وما يرمزان إليه، مع ذكر طور سينين والبلد الأمين يكون في الأقسام الأربعة إشارة إلى الشرائع الإلهية المشهورة المنزلة في تلك الأماكن على الرسل العظام أولي العزم وهم : نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام .

وقد جمع الله ذكرهم في سورة الشورى حيث يقول :﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ،أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ الآية 13، و في سورة الأحزاب حيث يقول :﴿**وإذ أخذنا من النبيئين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم...**﴾ الآية 7.

أقسم الله تعالى بتلك الأقسام الأربعة على ما تضمنه جواب القسم وهو قوله:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾

والمراد بـ(الإنسان) هنا جنسه الذي يتناول كل أفراده:مؤمنَهم وكافرَهم، ذكرَهم وأنثاهم .

و"**التقويم** ":معناه التعديل و التسوية.

و" **أحسن**": اسم تفضيل ،بمعنى أجمل ؛ أي خلق الله الإنسان في أجمل تركيب ، وأحسن هيئة ؛ فقد جعله منتصب القامة، بديع الشكل، متقن التصوير، يتناول غذاءه بيده، كما قال الله ﷻ في سورة التغابن: ﴿ **وصوّركم فأحسن صوركم**﴾ **الآية** 3. وفي سورة الملك: ﴿**أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم ؟** ﴾ الآية 22.

كما وهبه ـ من بين سائر الحيوانات ـ العقل الذي به يفكر ويتدبر ويتطور ويحكم به على الأشياء...قال الله ﷻ في سورة الإسراء: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾ الآية 70.

فالإنسان أرقى الكائنات الحية شكلا و مضمونا ...

و" **ثم**"حرف عطف يفيد التراخي .

و"**رددناه**": صيرناه .

و" **أسفل**": اسم تفضيل بمعنى أحط، وهو مضاف إلى"**سافلين**" بمعنى منحطين، أي بعد أن خلقه الله بشرا سويا جعله أحط مخلوق وأرذله، وذلك ينطبق على بعض الناس فقط.

ظواهر سفالة الإنسان:

وسفالة الإنسان ـ بمعناها الحقيقي ـ تصدق برده إلى أرذل العمر، كما قال الله ﷻ في سورة الحج: ﴿...**ومنكم من يرد إلى أرذل العمر، لكي لا يعلم من بعد علم شيئا** ﴾الآية5، وفي سورة يس: ﴿...**ومن نُعَمِّرْهُ ننكسه في الخلق، أفلا تعقلون؟**﴾. الآية 68.

والنكس في الخلق أي القلب لخلقة الإنسان من طور القوة إلى طور الضعف، ورده إلى رذالة العمر يتمثلان في تقوس ظهره بعد استقامته، وتشنن جلده بعد نضارته، و ضعف بصره بعد حدته، وثقل سمعه بعد خفته ،وسوء فهمه بعد حسنه ، و وهن ذاكرته بعد توهجها.

وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفا و شيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير** ﴾. الروم 54.

كما أن سفالة الإنسان ـ بمعناها الحقيقي ـ تصدق برده إلى أسفل من سفل في دركات جهنم والعياذ بالله.

أما سفالة الإنسان ـ بمعناها المجازي ـ فتتمثل في إلغاء عقله ، وإفساد فطرته السليمة التي خلقه الله عليها ، فأبى إلا تشويهها وتدسيتها، والانحراف بها نحو السلوك البهيمي، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷻ في سورة الشمس: ﴿ **قد أفلح من زكاها ، و قد خاب من دساها** ﴾ الآيتان 9-10، و بقوله ـ تعالى ـ في سورة الفرقان : ﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ الآية 44، وفي سورة الأعراف :﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس: لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم ءاذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون** ﴾ الآية 179.

– وأي سفالة أقبح من سفالة إنسان يعمد إلى حجر فينحته ليتخذه إلها يعبده من دون الله، أو يجعله شريكا له، ويقرب له القرابين لاسترضائه، واستجابته لمطالبه ؟

– وأي سفالة أحط من سفالة إنسان يقدس بعض الحيوانات مع ما تحمله في داخلها من بول وفرث.

– و أي سفالة أخس من سفالة إنسان يرفض أن يتأمل فيما حوله من نبات الأرض وما فيه من آيات على قدرة الله ﷻ على الإحياء والإماتة، فيستبعد أن يخلقه الله مرة أخرى، و يبعث فيه الحياة ليحاسب على ما قدمه في حياته الأولى من أعمال ؟

– و أي سفالة أشنع من سفالة إنسان انسلخ من إنسانيته الراقية و هبط إلى أوحال الشهوات يتقلب في أصنافها كيفما شاءت له غريزته الحيوانية التي لا تعرف الضوابط الشرعية ولا العقلية ؟

ومن لطف الله بهذا الإنسان أن عرض عليه في كتابه الكريم نماذج بشرية انحرفت عن فطرتها السليمة فاستحقت غضب الله عليها ، وذلك لينأى بنفسه عن التسفل إلى ما تسفلت فيه، قال الله ﷻ في سورة الأعراف : ﴿**واتل عليهم نبأ الذي ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين، ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب؛ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون، ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا، وأنفسهم كانوا يظلمون**﴾ الآيات 175–177، وفي سورة المائدة: ﴿ **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله؛ من لعنه الله، وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل**﴾ الآية 60.

وقد يتبادر إلى ذهن المرء أو المرأة أن الله تعالى يرد بعض الناس ـ قسرا ـ إلى السفالة (بمعناها المجازي) في الدنيا ، ثم بمعناها الحقيقي في نار جهنم . وليس الأمر كذلك،بل الله ﷻ أرشد الإنسان إلى أسباب ترقيه التي تتمثل في الشريعة السماوية من إيمان وأعمال صالحات، وإلى أسباب تسفله من كفر وأعمال فاسدات، و أعانه ـ بواسطة نور العقل ـ على حسن الاختيار بين تلك الأسباب، وأوضح له

أن من أحسن الاختيار لنفسه كان من المفلحين ، وأن من أساءه كان من الخاسرين السافلين، فلا يلومنَّ إلا نفسه.

قال الله ﷻ في سورة فصلت : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد** ﴾. الآية 46، وفي سورة النساء : ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجرا عظيما**﴾ الآية 40، وفي سورة البلد : ﴿**وهديناه النجدين**﴾. **الآية 10، وفي سورة الإنسان:** ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا**﴾ الآية 3. إلى ما هنالك من الآيات المماثلة.

ولا يغيبنَّ عن ذهنك أن الله ﷻ يعلم (مسبقا) ما يختاره كل إنسان لنفسه من انتهاج نهج الهداية، أو الانحدار في طريق الغواية وهو جنين في بطن أمه.

وبهذا التحليل يزول ما عساه يلوح في أذهان البعض من شعور بالتناقض بين تلك الآيات الصريحة في مسئولية الإنسان عن تصرفاته، و بين أمر الله ﷻ للملك بأن يكتب الجنين شقيا أو سعيدا؛ فالعلم الإلهي إنما تنكشف به الأشياء على حقيقتها، أزلا وأبدا، ولا يجبر أحدا على الطاعة أو المعصية، وإلا فلا معنى لما يشرعه الله لعباده ، و يأمرهم باتباعه وينهاهم عن اجتنابه، والله أعلم.

﴿ إِلاَّ الذِينَ ءَامنوُا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

"**إلا**": أداة استثناء ، و"**الذين آمنوا**" وما عطف عليه ، مستثنى، وضمير الغائب في (رددناه) العائد إلى الإنسان بمعناه الجنسي العام (أي الناس) مستثنى منه؛ فالذين آمنوا و عملوا الصالحات مستثنون أي خارجون من الناس الذين يردون أسفل سافلين .

و باعتبار سفالة السافلين في نار جهنم، أو باعتبار معناها المجازي في الدنيا، وهو التسفل في الاعتقاد والأخلاق والسلوك، فإن الاستثناء متصل ، وباعتبار السفالة النكس في الخلق و التكوين، والرد إلى أرذل العمر فالاستثناء منقطع يفسر ب(لكن)...

وقاعدة كل من الاستثناء المتصل و المنقطع : أن المتصل يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه، كقولك : خرج المصلون من المسجد إلا الإمام؛ فالإمام من جنس المصلين ، فهو مستثنى متصل .

أما المنقطع فلا يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه؛ كقولك: خرج الناس من السوق إلا حصانا؛ فالحصان ليس من جنس الناس، فهو مستثنى منقطع.

وبإعمال عقلك في هذه القاعدة يتبين لك أن الحكم على الاستثناء في الآية بأنه متصل أو منقطع يكون على حسب الاعتبارات المذكورة في تفسير الآية الكريمة .

و" **الذين آمنوا و عملوا الصالحات**" هم الذين صدقوا بوجود الله ﷻ وما يستحقه من صفات الكمال ، وصدقوا بالرسول ﷺ وبما جاء هم به من عند الله، وعملوا الأعمال الصالحات التي تصلح بها عقائدهم و أخلاقهم وشئونهم كلها .

﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

"**أجر**" : ثواب.

"**غير ممنون**" :غير مقطوع عنهم ، فهو دائم .

فـ (**ممنون**) اسم مفعول مشتق من مَنَّ، يَمُنُّ ، يقال : منّ الحبل فهو ممنون أو منين يعنى مقطوع.

وعدم قطع الثواب يصدق في الدنيا بالنسبة لفئات من المسلمين وهم الذين كانوا يعملون الصالحات في زمن قوتهم البدنية و العقلية، فلما طال بهم العمر عجزوا عن أداء تلك الأعمال، فالله ﷻ - تفضلا منه - يكتب لهم مثل الأجر الذي كان يكتب لهم و هم أقوياء ، ويرشد إلى ذلك قوله ﷺ ـ فيما رواه البخاري

وأحمد عن أبي موسى الأشعري ﷺ : (إذا مرض العبد أو سافر كتب الله – تعالى – له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحا مقيما).

أما عدم قطع الثواب عن جميع المؤمنين المتقين فيصدق في الجنة التي يقول الله ﷻ في وصفها :﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون، تجري من تحتها الأنهار، أكلها دائم و ظلها،تلك عقبى الذين اتقوا ، وعقبى الكافرين النار**﴾ الرعد 35 .

فما يؤكل في الجنة دائم التجديد لا يمن ولا يقطع ، وما يستظل به فيها لا ينسخه شيء ولا يزيله كما تنسخ الشمس ظلال الدنيا .

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾.

" الفاء" تفريعة ؛ فرعت هذه الآية على ما قبلها من الآيات .

و "ما" استفهامية ، و الجملة الاستفهامية فيها معنى الإنكار والتعجيب.

و " **يكذبك** " : يجعلك تكذب .

و " **الدين** " : الجزاء على الأعمال في الدار الآخرة .

و المعنى : أي شيء يحملك أيها الإنسان على التكذيب بإحياء الإنسان و بعثه في اليوم الآخر، ثم محاسبته و مجازاته على أعماله في الدنيا بعد البيان الذي يصور لك قدرة الله على خلق الإنسان على غير مثال سابق ثم تطويره من حال إلى حال إلى أن صار بشرا سويا ثم العدول به إلى عكس ذلك حتى كان أسفل سافلين حسا ومعنى ؟

فالقادر على إنشائه ـ أول مرة ـ قادر ـ بداهة ـ على إنشائه ثاني مرة، قال اللهﷻ في سورة الروم: ﴿**و هو الذي يبدأ الخلق، ثم يعيده، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم**﴾ الآية 27.

وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب لغرض بلاغي مفهوم (و هو مواجهته بالتقريع)، وإلا فإن أصل الكلام أن يكون هكذا : فما يكذبه ...(بهاء الغائب).

﴿ أَلَيْسَ اللهِ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ ﴾

الهمزة : للاستفهام التقريري ، وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بحقيقة لا يسعه إنكارها.

و" **أحكم**":اسم تفضيل، إما من الحكم بمعنى الفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، وإما من الحكمة بمعنى التصرف في كل شيء وَفق الصواب .

و"**الحاكمين**": جمع مذكر سالم مفرده : حاكم .

والمعنى ـ على التفسير الأول لـ (أحكم) : أن الله ﷻ أقضى القضاة وأعدلهم بحيث ينال كل واحد ما يستحقه من ثواب أو عقاب بعد المحاسبة في يوم المعاد ، ولن يفلت منه أحد، ﴿ **ولا يظلم ربك أحدا**﴾ الكهف49، ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد**﴾ فصلت46 .

والمعنى على التفسير الثاني : أن الله ﷻ لم يخلق الناس في هذه الدنيا عبثا كما قال في سورة المؤمنون :﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ ؟ الآية 115، وإنما خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، ولينفذوا مشيئته في الأرض بمقتضى الخلافة التي نيطت بأبيهم آدم ثم توارثوها من بعده خلفا عن سلف ، فمن قام بتكاليفها ورعاها حق رعايتها كان من المفلحين، ومن أعرض عنها واستنكف عن متطلباتها كان من المخفقين ، قال الله ﷻ في سورة الذاريات: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ الآية56 ، وقال في سورة البقرة :﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ...**﴾ الآية30، وقال في سورة فاطر :﴿ **هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ؛ فمن كفر فعليه كفره ، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا** ﴾ الآية39، والله أعلم .

روى الترمذي وأبوداود عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :(من قرأ منكم {**والتين و الزيتون** ... فانتهى إلى قوله ﴿...**أليس الله بأحكم الحاكمين**﴾ فليقل : بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين).

طُـــرفـــة:

أورد الإمام القرطبي الطرفة الآتية في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ قال:

((... و قد أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزدي قال : أخبرني القاضي أبو القاسم علي بن أبي علي القاضي المحسن عن أبيه، قال :كان عيسى بن موسى يحب زوجته حبا شديدا، فقال لها يوما : أنت طالق ثلاثا إن لم تكوني أحسن من القمر، فنهضت واحتجبت عنه ، وقالت : طلقتني ! وبات بليلة عظيمة، فلما أصبح غدا إلى المنصور، فأخبره الخبر وأظهر للمنصور جزعا عظيما ، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم ، فقال جميع من حضر : قد طلقت، إلا رجلا واحدا من أصحاب أبي حنيفة ، فإنه كان ساكتا ، فقال له المنصور : مالك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ **والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسن الأشياء ، ولا شيء أحسن منه.

فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرجل فأقبل على زوجتك، وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل : أن أطيعي زوجك ولا تعصيه، فما طلقك.

فهذا يدل على أن الإنسان أحسن خلق الله باطنا و ظاهرا : جمال هيئة وبديع تركيب، الرأس بما فيه ، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه، ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالم الأصغر، إذ كل ما في المخلوقات جُمع فيه) انتهى.

سورة العلق

سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا
إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ
﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ
عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾
أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾
نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾
كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

وتسمى سورة (اقرأ). خمس الآيات الأولى منها هي أول ما نزل من القرآن الكريم على سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ وهو يتعبد في غار حراء، و ذلك في ليلة القدر المباركة من شهر رمضان المعظم سنة أربعين من عام الفيل.

أما بقية الآيات من السورة فلم تنزل عليه ﷺ إلا بعد أن أمره الله ﷻ بأن يصدع بالدعوة إلى الإسلام و يجهر بها، و كان ما كان من معارضة المشركين

وإيذائهم له و لمن آمن به، قال الله – تعالى– في سورة الحِجر: ﴿ **فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين**﴾ الآية94.

و هذه السورة مكية باتفاق، وعدد آياتها تسع عشرة.

ومناسبتها لما قبلها: أن الله تعالى ذكر في سورة **التّين** خلق الإنسان في أحسن تقويـــم، وفي هذه السورة ذكر المادة الأولى التي تطور منها الإنسان إلى أحسن تقويم و في ذلك عبرة للمعتبرين.

و إليك أيها القارئ الكريم قصة الوحي منقولة من صحيح البخاري قبل المضي في تفسير السورة:

عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث[1] فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة، و يتزود لمثلها، حتى جاءه الحق و هو في غار حراء ، فجاءه الملك، فقال : (اقرأ، قال : ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطَّني[2] حتى بلغ مني الجهد[3]، ثم أرسلني، فقال : اقرأ، فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية

---

1 – يتحنث: يتعبد

2 – غطّني : ضغط علي

3 – الجهد: غاية التعب

حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت : ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ و ربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**﴾. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف[1] فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال : زمّلوني[2]، زمّلوني، فزمّلوه، حتى ذهب عنه الرَّوع[3]، فقال لخديجة-وأخبرها الخبر- لقد خشيت على نفسي، فقالت له خديجة: كلا، و الله ما يخزيك[4] الله أبداً، إنك لتصل الرحم[5]، وتحمل الكَلَّ[6]، و تكسب المعدوم[7] وتقري[8] الضيف، و تعين على نوائب الحق[9]. الحق[9]. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة، و كان ممن تنصر في الجاهلية، و كان يكتب الكتاب العبراني[10]، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، و كان شيخاً كبيراً قد عَمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له: يا ابن أخي

---

1 - يرجف: يرتعد

2 - زملوني: غطوني

3 - الروع: الفزع

4 - ما يخزيك : ما يهينك

5 - تصل الرحم : تحسن إلى الآقارب

6 - تحمل الكل: تساعد الضعيف

7 - تكسب المعدوم: تملك ما لا يوجد عند غيرك

8 - تقري الضيف: تكرمه

9 - نوائب الحق: الكوارث التي تنزل على الإنسان

10 - الكتاب العبراني: الكتابة بالعبرية

ماذا ترى؟ فأخبره ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس[1] الذي أنزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذع!! ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك!! فقال له رسول الله ﷺ :أو مخرجي هم؟ قال : نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، و إن يدر كني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب[2] ورقة أن توفي، و فتر الوحي).

وجاء في الروايات ـ في الصحيحين و غيرهما ـ أن رسول الله ﷺ حزن لفترة[3] لفترة[3] الوحي حزناً غدا منه مراراً إلى أن يتردى من رؤوس شواهق[4] الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدىٰ[5] له جبريل، فقال : يا محمد، إنك إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه[6] وتقر[7] عينه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل ليلقي نفسه تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿**يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك**

---

1 – الناموس: المراد به جبريل عليه السلام

2 – لم ينشب: لم يلبث

3 – فترة الوحي: انقطاعه مدة

4 – شواهق الجبال: أعاليها

5 – تبدى: ظهر

6 – يسكن جأشه: يهدأ اضطراب نفسه

7 – تقر عينه: ترتاح نفسه

فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾ المدثر1-7.

﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

"اقرأ" أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بالقراءة؛ أي :كن قارئاً.

والباء في "باسم ربك "، إما للاستعانة-وهي حينئذ متعلقة بمحذوف تقديره : مستعينا باسم ربك - وإما للمصاحبة؛ فهي متعلقة بفعل اقرأ أي: لتكن قراءتك مصحوبة باسم ربك.

واختيار اسم "الرب" من أسمائه تعالى يشير إلى التربية الروحية بعد التربية الجسمية؛ فالرب ﷻ لطيف بمربوبيه، يعرفهم به ويرشدهم إلى ما يجب عليهم نحوه، ويعلمهم ما يستمطرون به رحمته، ويستبعدون نقمته.

وإضافة "رب" إلى كاف المخاطب (وهو سيدنا محمدﷺ) لتشريفه بذلك.

"الذي خلق":

" الذي" اسم موصول وصلته، وحذف مفعول "خلق " ليعم كل شيء مخلوق، كما قال -تعالى- في سورة الزمر: **﴿الله خالق كل شيء﴾** الآية 62.

وقد وصفَ الرب ﷻ نفسه بالصفة التي يكون بها الخلق والإيجاد لأنها أعظم صفات الربوبية.

و بديهي أن قراءة النبي ﷺ كانت ترديداً لما يقرؤه عليه جبريل عليه السلام وتبليغا لما أوحى الله إليه مباشرة، وذلك مظهر من مظاهر الإعجاز؛ من حيث إن رجلا أمياً صار- بإرادة الله - يقرأ على الناس ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

وفي أمره تعالى لنبيه ﷺ بالقراءة باسم ربه رد على المشركين الذين كانوا يتبركون بأسماء آلهتهم، ويستعينون بها، فيقولون: باسم اللات والعزى... وفي ذلك أيضا إرشاد للموحدين ألا يتشبهوا بالمشركين في توجهاتهم لغير الله.

هذا ويمكن أن يفهم من قوله تعالى: "باسم ربك" أن ما يقرؤه الرسول ﷺ على الناس ليس من عند نفسه، إنما هو من عند ربه، ونظيره في أحاديثنا قول أحدنا لمخاطبيه: باسم فلان أخاطبكم أو أحييكم ونحو ذلك.

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾

ذكر الخلق(بمعنى الإيجاد من العدم) أولاً بطريق العموم، ثم خص من هذا العموم خلق الإنسان؛ فهو من باب ذكر الخاص بعد العام.

و"**العلق**": اسم جمع، واحدته علقة، وهي القطعة الجامدة الرطبة من الدم في حجم الدودة المسماة علقة، لعلوقها بجلد الحيوان، وامتصاص الدم منه وقد تدخل مع الماء إلى فم الجمل أو الحصان فتعلق بحلقه.

والإنسان في المرحلة الثانية من تطوره في بطن أمه يكون في حجم العلقة، قال الله -تعالى- في سورة المؤمنون:﴿...**ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة** ...﴾ الآيتان 13-14.

وفي تخطي مرحلة النطفة إلى مرحلة العلقة تنبيه على أن نطفة الذكر لا تتحول إلى علقة إلا بعد اختلاطها ببويضة الأنثى.

وصح التعبير باسم الجمع "علق" بدلاً من المفرد "علقة" لأن لفظ الإنسان اسم جنس يفيد العموم، ولأن ذلك يتناسب مع الفاصلة السابقة التي هي قاف "خلق- علق" وذلك من الترصيع الجميل، وهو فن من فنون البلاغة.

وهناك تناسب بديع بين ذكر خلق الإنسان من علق ، وبين أمره - تعالى- لنبيه ﷺ بالقراءة؛ فكأنه يقول له : الذي قدر على خلق الإنسان في أحسن تقويم وأجمل صورة - بعد أن كان علقة في بطن أمه- قادر على أن يجعلك قارئا ومعلما مع أميتك، وفي ذلك من الحكمة الإلهية ما ذكره-تعالى- في سورة العنكبوت حيث يقول: ﴿**و ما كنت تتلوا من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك، إذاً لارتاب المبطلون** ﴾ الآية 48، فلو أنه ﷺ كان يقرأ ويكتب لا تخذ أهل الباطل من ذلك ذريعة لإنكار نبوته؛ فقال اليهود: إن التوراة تخبرنا بأن نبي آخر الزمان أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب. و أهل العناد لا يقفون عند حد؛ فهاهم طغاة قريش يتهمون محمداً ﷺ بأن ما يتلوه عليهم من أساطير الأولين يمليها عليه بعض أهل الكتاب صباحا ومساء بطلب منه فيحفظها ثم يبلغها للناس على أنها وحي يوحي إليه من السماء؛

قال الله -تعالى -في سورة الفرقان يحكي مقالتهم تلك: ﴿..**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا**﴾ الآية5، فيلقنه ربه الرد عليهم بقوله: ﴿**قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما...**﴾. الآية6.

﴿اِقرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾

تكرار الأمر بالقراءة للاهتمام بها .

والواو يصح أن تكون عاطفة كما يصح أن تكون حالية أي: اقرأ والحال أن ربك هو الأكرم.

و"**الأكرم**": اسم تفضيل يفيد أن لا أحد يدانيه في الكرم فهو يفيض نعمه على الإنسان فيضا، من غير انتظار مقابل، ومن هذا الفيض ما نقرؤه في سورة الإسراء حيث يقول الله تعالى: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**﴾ الآية 70.

﴿الذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ﴾

مفعولا "**علم**" محذوفان، تقديرهما علم الإنسان الكتابة بالقلم فلفظ "الإنسان" مفعوله الأول، و"الكتابة" مفعوله الثاني، وتعليم الإنسان الكتابة بالقلم مثال واضح على الأكرمية التي وصف الله بها نفسه في الآية السابقة.

وفي ذلك إشادة بالقلم وما ينتج عنه من تدوين العلوم المختلفة التي تصلح بها حياة الإنسان في الدنيا والآخرة .

ومما يدل على سمو قيمة القلم وما يسطر به؛ أن الله تعالى جعله من عظائم الأشياء الجديرة بالإقسام بها في القرآن الكريم حيث يقول في صدر سورة ن: ﴿**ن، والقلم وما يسطرون**﴾.

﴿**عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم**﴾

هذه الآية بيان للإجمال في الآية التي قبلها؛ فالتي قبلها أخبرت بأن الله تعالى علم الإنسان، ولكنها لم تبين ماذا علمه، فجاءت الآية بعدها لتبين أنه علمه ما لم يعلم .

والإخبار بالآيات الثلاث من "**اقرأ**" الثانية إلى "**ما لم يعلم**" كأنه جواب عن سؤال كان يجول بخاطر النبي ﷺ مؤداه: كيف اقرأ وأنا أمي ؟ فأجيب: بأن ربك الذي علم الإنسان القراءة بواسطة الكتابة بالقلم وعلمه ما لم يكن يعلمه قادر على أن يجعلك قارئا ومعلما لغيرك.

وما هذا القرآن الكريم وما أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ من غير القرآن إلا دليل واضح على تعليمه إياه ما لم يكن يعلمه.

﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّءاهُ اسْتَغْنَى**﴾.

"**كلاَّ**": يحتمل أن تكون للزجر والردع، وهو الغالب في استعمالها كقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿**قال أصحاب موسى إنّا لمدركون قال: كلا إن معي ربي سيهدين**﴾ الآيتان 61-62، أي: انزجروا عن هذا القول.

وإذا كان الكلام الذي سبقها- هنا- ليس فيه ما يقتضي الزجر فمضمون الكلام بعدها يقتضيه و هو قوله تعالى: (أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى) ويحتمل أن تكون بمعنى "ألا" التي يستفتح بها الكلام للتنبيه .

ومن المفسرين من اعتبرها – هنا - بمعنى (حقا)، ولكن بعض اللغويين يرون أنها تكون بمعنى حقا إذا كانت مع القسم كقوله تعالى: ﴿**و ما هي إلا ذكرى للبشر كلا والقمر...**﴾ المدثر 31-32.

ولفظ الإنسان عام يشمل كل إنسان تنطبق عليه الحقيقة التي تضمنتها الآية الكريمة وبما أن سبب نزولها مع ما بعدها هو أبو جهل فهو أول المعنيين بها.

و"**يطغى**": مضارع طغى ،يقال طغى فلان يطغى طغيانا إذا تجاوز الحد في أمر من الأمور، والأمر المقصود هنا هو الكبر والتعاظم والعجب ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة النازعات:﴿ **فأما من طغى وءاثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى**﴾ الآيات 37-39، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿**و نذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ الآية186.

و"**أن**" مصدرية، والضمير المستتر في "**رأى**" المقدر بـ "هو" والضمير البارز وهو الهاء عائدان إلى الإنسان.

و"**استغنى**": شعر بأنه غني عن الآخرين بسبب ماله أو قوته أو جاهه أو حتى وهمه - كما يمكن أن يفهم من تركيب الجملة - أي رأى نفسه استغنى، ولو كان ـ في الواقع -خلاف ذلك.

وما بعد " أن " المصدرية يسبك بمصدر مجرور باللام الدالة على التعليل، تقديره: "إن الإنسان ليطغى لرؤيته نفسه مستغنيا" .

وشعور الإنسان بالاستغناء عن خالقه وعن مخلوقاته ، والاعتزاز بماله ، أو بقوته الذاتية، أو بمنصبه الرفيع، أو بعشيرته ، ومن ثم احتقار الآخرين والتلذذ باضطهادهم إنما ينجم عن التمرد على القيم الروحية والخلقية والإنسانية، نتيجة لانطماس البصيرة، و إلا فإن هناك من يملكون أسباب القوة الحقيقية ولكنهم يربئون بأنفسهم عن الوقوع في مثل ذلك الغرور بفضل انتصارهم للقيم الروحية والخلقية والإنسانية.

وهل يصح الجمع مثلا بين أبي بكر الصديق ﷺ وأبى جهل لعنه الله ، أو بين عمر الفاروق ﷺ وفرعون الطاغية، أو بين عثمان ذي النورين ﷺ وقارون المغرور بماله ؟ كلا.

وصدق الله العظيم في قوله :﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟ مالكم؟ كيف تحكمون** ﴾ سورة ن35-36، وفي قوله -تعالى-: ﴿ **أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون؛ أما الذين ءامنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون وأما الذين فسقوا فمأواهم النار، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون** ﴾ السجدة 18-20.

﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾

"**الرجعى**": الرجوع، وهو أحد مصادر "رجع".

وكاف الخطاب يعود إلى "الإنسان" على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب أي: إن رجوعك يا إنسان إلى ربك.

و تقديم الجار و المجرور "إلى ربك" على اسم " إن" : "الرجعى" للاهتمام بربوبية الرب لمربوبيه، و لمراعاة الفاصلة التي هي الألف.

و رجوع الإنسان إلى ربه بالموت، وفي ذلك تهديد لهذا الطاغي بعذاب الله، كما قال -تعالى- في سورة النبأ : ﴿**إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مئابا...**﴾ الآيتان 21-22.

﴿أَرَأَيْتَ الِذي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾

الاستفهام في "أرأيت" لتعجيب السامع من رجل ينهى عبداً عن الصلاة، و هذا الرجل هو أبو جهل –لعنه الله–، و هذا العبد هو محمد ﷺ ؛فقد روى مسلم عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: "قال أبوجهل : هل يعفّر[1] محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل : نعم، فقال: و اللات و العزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ[2] على رقبته (وهذا القول يتضمن معنى النهي عن الصلاة)، فأتى رسول الله ﷺ و هو يصلي ليطأ على رقبته فما فجأهم[3] منه إلا و هو ينكص[4] على عقبيه ويتقي بيده[5] فقيل له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني و بينه خندقاً من نار، و هولاً و أجنحة، فقال رسول الله ﷺ لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضوا قال: فأنزل الله: **﴿إن الإنسان ليطغى﴾** الآيات.

و الخطاب في "**أرأيت**" لغير متعين، فهو موجه إلى كل من يصلح للخطاب، و حق الإخبار عن هذا النهي أن يأتي بصيغة الماضي، لأن النهي قد مضى قبل نزول هذه الآيات، و لكن عدل عنه إلى المضارع الدال على الحاضر ليستحضر السامع تلك الحالة العجيبة في ذهنه.

---

1 – يعفر وجهه بين أظهركم: يضع وجهه في التراب و أنتم تشاهدونه يعني : يسجد

2 – لأطأن على رقبته: أقسم لأضعن رجلي على عنقه.

3– فجأهم منه : أي بغتة من غير توقع .

4 – ينكص على عقبيه: يتأخر إلى الوراء. و عقبيه مثنى عقب، وهو مؤخر الرجل.

5 – يتقي بيده: يضع يده أمامه ليحفظ نفسه من شيء مخيف.

ومما يروى في هذا المقام عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه رأى قوماً يصلون قبل صلاة العيد فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل له: ألا تنهاهم؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿ **أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى**﴾.

ونظير هذا الأدب ما روي عن أبي حنيفة-رحمه الله- وقد سأله تلميذه أبو يوسف: أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع: اللهم اغفر لي؟ قال له: يقول: ربنا لك الحمد، و يسجد. وتجنب أبو حنيفة النهي عن الدعاء بالمغفرة.

﴿ **أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى؟**﴾

كرر الاستفهام-مرة ثانية-لدعوة السامع إلى التعجب من تصرف ذلك الطاغي.

و الضميران في الفعلين (**كان**) و(**أمر**) عائدان إلى العبد المذكور في الآية السابقة ﴿ **ينهى عبداً إذا صلى**﴾ وهو رسول الله ﷺ والطاغي هو أبو جهل.

والأصل في استعمال حرف الجر (**على**) أن يدل على الاستعلاء الحقيقي كقولك:" فلان جلس على الكرسي" فهو فوقه حقيقة و مستعل عليه.

و قد يستعمل ليدل على الاستعلاء المجازي، كقولك "فلان على الحق" فالحق شيء معنوي لا يمكن أن يعلو عليه الإنسان، و إنما المقصود أن هذا الإنسان متمكن من الحق، كما تمكن ذلك الجالس من الكرسي.

وبناء على هذا التقدير فقد اتضح أن (على) في قوله تعالى: ﴿**إن كان على الهدى**﴾ دالة على الاستعلاء المجازي بمعنى التمكن من الهدى، و الهدى معناه الرشاد أي السير في طريق الحق والصواب.

و الأمر بالتقوى معناه النصح بما فيه طاعة الله التي تحفظ الإنسان من الوقوع في غضب مولاه.

و خلاصة المعنى: أرأيت-أيها السامع- إن كان الرسول ﷺ متمكناً من الهدى و آمراً بما فيه الخير للناس أينهاه أبو جهل عن ذلك أيضاً؟

هذا ويمكن أن يعود الضميران في (كان) و (أمر) على (الذي طغى). والمعنى-حينئذ-: أرأيت إن كان هذا الطاغي مهتدياً و آمراً بالخير أليس ذلك خيراً له؟

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾

دعوة ثالثة إلى السامع ليتعجب من أمر هذا الطاغي بواسطة الجملة الاستفهامية المكررة.

و التعجيب- في هذه المرة- من توليه أي إعراضه عن دعوة الحق، و من تكذيبه للرسول ﷺ فيما أرسله الله به من توحيده و الخضوع لأمره.

و قوله تعالى: ﴿ **ألم يعلم بأن الله يرى**﴾ هو جواب شرط "إن" اعتماداً على القول بأن جواب الشرط - إذا كان جملة استفهامية كما هاهنا- لا يحتاج إلى الفاء الرابطة.

و نظير ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿**قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون؟**﴾ . الآية 47.

و مفعول الفعل (**يرى**) محذوف يعلم من سياق الكلام، و التقدير : يرى تكذيبه و توليه ونهيه عن الصلاة فيجازيه على ذلك.

و رؤية الله لأعمال هذا الطاغي كناية عن وعيده إياه بسوء العقاب.

و المعنى: اخبرني أيها المخاطب- إن كذّب هذا الطاغي بالحق الذي جاءه ورفضه هل غاب عن ذهنه أني أعلم ذلك فأجزيه بالعذاب الشديد؟

و من المعلوم في الشريعة الإسلامية أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالآية - أو الآيات- و إن نزلت في أبي جهل فهي عامة تشمل كل طاغ ينهى الناس عن طاعة الله فيما أمر و نهى، و يصر على الإثم و العدوان.

﴿ **كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ**﴾

"**كلا**": تفيد ردعا ثانياً لهذا الطاغي عن سلوكه مع رسول الله ﷺ واللام في (لئن) لام القسم اقترن بـ "إن" الشرطية، كأنه قال : قسماً لئن لم ينته.

و "**ينته**": يكف عن طغيانه و إيذائه للنبي ﷺ و أتباعه. و جملة :" **لنسفعاً**" هي جواب القسم، و قد أغنى عن جواب شرط "إن". و النون في آخر الفعل المضارع هي نون التوكيد الخفيفة أبدلت ألفاً في المصحف. و النون في صدر الفعل المضارع دالة على التعظيم لا على الجمع لأن الضمير المستتر في الفعل عائد إلى الله وهو واحد.

و **السفع** (بالسين): الأخذ العنيف مع الجذب، أما الصفع (بالصاد) فهو ضرب البدن بكف مبسوطة.

و"**الناصية**": شعر مقدَّم الرأس .

و"**ناصية**" (بالتنكير) بدل مطابق من "الناصية" بالتعريف فهو من بدل النكرة من المعرفة.

و"**خاطئة**": صفة مشتقة من "خطئ" بكسر الطاء إذا فعل خطيئة أي ذنبا، و صيغة المذكر: خاطئ، أما أخطأ بمعنى:خالف الصواب فاسم الفاعل منه مخطئ- في صيغة التذكير-ومخطئة في صيغة التأنيث.

و قد ورد (الخِطء) بكسر الخاء بمعنى الذنب في سورة الإسراء حيث يقول الله-تعالى- ﴿... **إن قتلهم كان خطئاً كبيرا**﴾ الآية 31.

و إسناد الكذب و الخطءِ إلى الناصية على سبيل المجاز، لأن المقصود بها صاحبها (من باب إطلاق الجزء و إرادة الكل)كما هو معروف في المباحث

البلاغية، و من ذلك قوله تعالى في سورة البلد﴿... **فك رقبة**﴾ الآية 13. ذكرت الرقبة و المراد صاحبها.

و ماذا يلاحظ في تخصيص الناصية بالأخذ الشديد؟ إن أخذ الإنسان بعنف من ناصيته لأجل صرعه أمعن في إذلاله و قهره، على أن العلماء المختصين يقولون: إن سلوك الإنسان وأخلاقه- من كذب و إثم و كبر و غيرها- تتحكم فيها المنطقة الأمامية من الدماغ قرب الناصية؛ و المعنى: يقول الله -تعالى- أقسم بجلالي لئن لم يكف هذا الطاغي عن طغيانه لأذلّنّه إذلالاً لا قبل له بدفعه.

و الذي نعلمه من كتب السيرة النبوية أن الله ﷻ أذل هذا الطاغي إذلالاً لا مزيد عليه في وقعة بدر التي أزهقت فيها روحه، و ما ينتظره في الآخرة أشد وأبقى! فليعتبر بذلك سائر الطغاة.

يروى أن رسول الله ﷺ بعد انتهاء المعركة - أمر أن يُلتمس[1] أبو جهل في القتلى فعثر، عليه عبد الله بن مسعود ﷺ و به رَمَق[2]، فوضع رجله على عنقه وأخذ لحيته ليحتز[3] رأسه؛ قال عبد الله : و كان قد ضبث[4] بي مرة بمكة فآذاني و لكزني[5].

---

1 - يلتمس: يبحث عنه

2 - رمق: به بقية من حياة

3 - يحتز رأسه: يفصله عن جسده

4 - ضبث به: قبضة قبضاً شديداً و بطش به

لكزني[1]. ثم قلت له: هل أخزاك الله، يا عدو الله؟ قال : و بم أخزاني؟ أعمد[2] من رجل قتلتموه! ثم قال لابن مسعود: لقد ارتقيت مرتقي صعباً يا رويعي الغنم! أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال : لله و رسوله، و بعد أن دار بينهما هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه و حمله إلى رسول الله ﷺ، فقال : يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل ، فقال رسول الله ﷺ :آلله[3] الذي لا إله غيره؟ فقال ابن مسعود: نعم و الله الذي لا إله غيره. ثم ألقى رأسه بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله. و يروي أنه قال لابن مسعود: انطلق أرِنيه: قال ابن مسعود : فانطلقنا فأريته إياه فقال : هذا فرعون هذه الأمة.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ؛ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾

الفاء: تفريعية، لأنها فرعت ما بعدها على ما قبلها.

و "اللام" في "**فليدع**" لام الأمر. و "يدع" فعل مضارع مجزوم بلام الأمر و علامة جزمه حذف آخره، و هو الواو لأنه في حالة الرفع يثبت فيقال: يدعو.

و الضمير المستتر في "**يدع**" عائد إلى الذي طغى، و هو أبو جهل.

---

1 – لكزه: ضربه بجمع كفه

2 – أعند من رجل قتلتموه: هل فعلتم أكثر من قتل رجل

3 – آلله: الهمزة للاستفهام قامت مقام حرف القسم كأنه قال له: أقسم بالله على أن هذا هو رأسه.

و النادي أو النِدِي(بكسر الدال) أو المنتدى: اسم للمكان الذي يجتمع فيه القوم نهاراً (والذي يجتمعون فيه ليلاً يسمى سامراً) و منه قوله تعالى في سورة المؤمنون:﴿... **سامراً تهجرون**﴾ الآية 67.

ويقال في اللغة: ندا القوم ندوة، وانتدوا انتداء.

و"النادي" في الآية ليس المقصود منه مكان الاجتماع، و إنما المجتمعون فيه أنفسهم أي: فليدع أنصاره الذين يلتقي بهم في ناديه، و أضيف النادي إلى ضميره باعتبار رئاسته فيه.

وإطلاق النادي، وإرادة المجتمعين فيه من باب إطلاق المحل و إرادة الحال فيه (و هو مبحث بلاغي)، و من ذلك قوله-تعالى- في سورة يوسف: ﴿**وسئل القرية التي كنا فيها**﴾ الآية 82، فالمراد بالقرية أهلها الحالّون فيها، ضرورة أن القرية- و هي أبنية- لا تسأل حقيقة و لا تجيب إن سئلت.

و الظاهر أن أبا جهل يقصد بالنادي رواد الدار المشهورة في مكة بدار الندوة، و هي التي بناها قُصَيّ (أحد أجداد النبي ﷺ) قرب المسجد الحرام ليتشاور فيها القوم، و يقضوا مهماتهم، وقد هدمت على مراحل في عهد كل من الخلفاء الراشدين و الدولة الأموية ثم الدولة العباسية، ثم الدولة السعودية لتضاف مساحتها في كل مرة إلى مساحة المسجد الحرام.

و السبب في هذا الأمر التعجيزي الموجه إلى أبي جهل ليدعو ناديه هو ما رواه الترمذي والنسائي عن ابن عباس ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا؟ و توعده، فأغلظ له رسول الله ﷺ فقال أبو جهل : يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما و الله إني لأكثر أهل هذا الوادي نادياً، فأنزل الله -تعالى- ﴿ **فليدع ناديه، سندع الزبانية**﴾.

و في إحدى الروايات أن أبا جهل هدد النبي ﷺ بقوله: لقد علمت ما بها (أي مكة) رجل أكثر نادياً مني، لأملأنَّ عليك هذا الوادي- إن شئت - خيلاً جُرداً (قصيرة الشعر) و رجالاً مُرداً (يعني بالمرد جمع أمرد و هم الشباب).

وقوله -تعالى: "**سندع**": أدخلت السين على أول المضارع لتأكيد المعنى.

و الفعل المضارع مجزوم لأنه جواب الأمر (فيلدع) و علامة جزمه حذف آخره، وجواب الأمر يكون مجزوماً لأنه يشبه جواب الشرط ،كأنه قيل: إن يدع - هو- أهل ناديه للسطو على محمد ﷺ ندع- نحن- زبانيتنا لإهلاكه.

و الزبانية جمع تكسير مفرده: زباني أو زِبني (بكسر الزاي) أو زبنية، والمراد بهم الملائكة الغلاظ الشداد الذين أوكل الله إليهم عذاب المجرمين، و سموا زبانية من الزبن، و معناه الدفع العنيف لأن هؤلاء الملائكة يزبنون أعداء الله إلى نار جهنم أي يدفعونهم إليها دفعاً قوياً.

و من هذا المعنى قيل للناقة التي تركل حالبها: ناقة زبون، و قيل للحرب التي يتدافع فيها المتحاربون حرب زبون و قيل أيضاً لرجال الأمن الأقوياء زبانية.

و هل نفذ أبو جهل تهديده بدعوة أنصاره للفتك برسول الله ﷺ ؟

لم يفعل ذلك، مع تحديه بمضمون الآيتين الكريمتين، و في ذلك دلالة واضحة على أن أباجهل كان يشعر - في قرارة نفسه- بأن هذا التحدي ليس من عند محمد ﷺ و لكنه من مرسل محمد و هو الله القاهر فوق عباده.

﴿ كَلاّ لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ﴾

"كلا" تفيد زجر أبي جهل عن تهديده للنبي ﷺ بدعوة أهل ناديه للهجوم عليه و في الآية نهى للنبي ﷺ عن طاعة هذا الطاغي في ترك الصلاة و الدعوة إلى الإسلام، و فيها أمر له بالسجود أي الصلاة التي عبر عنها بالسجود لأنه أعظم أركانها قال ﷺ : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) رواه مسلم، وقال: (أما الركوع فعظموا فيه الرب، و أما السجود فاجتهدوا في الدعاء فيه فإنه قَمِن[1] أن يستجاب لكم). رواه مسلم.

والاقتراب المفهوم من الفعل **"اقترب"** يكون بعبادة الله و حده والاستجابة لشرعه الذي شرعه للناس.

---

1 - قمن: حقيق و جدير

و نظير الآية قوله تعالى في سورة ن: ﴿... **فلا تطع المكذبين**﴾ الآية 8.

سجدة التلاوة :

ذهب المالكية إلى أنه لا سجدة تلاوة عند نهاية سورة العلق لحديث ابن عباس ﷺ: (لم يسجد النبي ﷺ في شيء من المفصَّل منذ تحول إلى المدينة). رواه أبو داود وابن السكن في صحيحه .

واستدل الجمهور على ثبوت السجدة بحديث أبي هريرة ﷺ قال: (سجدنا مع النبي ﷺ في: إذا السماء انشقت، واقرأ باسم ربك). رواه مسلم وأصحاب السنن.

و أما حديث ابن عباس المتقدم فقال عنه الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: حديث ابن عباس ضعيف الإسناد لا يصح الاحتجاج به ، وعلى فرض صحته فالأحاديث الأخرى مُثبتة وهي مقدَّمة على النفي .انتهى .

ثم إن إسلام أبي هريرة ﷺ كان في سنة سبع من الهجرة .

تذييـــل: أهمية الكتابة و القراءة

جاءت الإشادة بالقلم في أول ما نزل من القرآن الكريم، تنبيهاً لبني آدم على قدرة الله المتمثلة في إلهامهم إلى التوفيق بين كل صوت يلفظونه و صورة الحرف الذي اخترعوه ليدل عليه، فكان عدد الأصوات – عند العرب– ثمانية وعشرين صوتاً، اخترعوا لها ثمانية و عشرين حرفاً، هي الحروف الهجائية، و من الحروف

كونوا الكلمات التي تحمل المعاني، و من الكلمات ركبوا الجمل التي تستوعب أفكارهم و خواطرهم، و تفيدهم في مراسلاتهم، كل ذلك يسجل بواسطة القلم على الصحف التي يتداولونها، و يستفيدون من محتوياتها، ثم يورثونها إلى من بعدهم من الأجيال ليضيف إليها هؤلاء ما اكتسبوه من علوم ومعارف، و هكذا ما تزال الأجيال اللاحقة تتناقل ما تركته لها الأجيال السابقة لتثريه و توسعه بما اكتسبوه من مستجدات في كل عصر حتى وصلت العلوم إلى ما هي عليه الآن من اتساع يعجز الإنسان بمفرده كل العجز أن يستوعب أقله بله[1] أكثره.

و القلم لم يحفظ لنا التراث البشري فحسب بل حفظ لنا أغلى ما يتنافس فيه المتنافسون حفظاً وفهماً وتبركاً وتطبيقاً على الحياة اليومية ألا وهو الوحي السماوي المنزل على خاتم الرسل سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.

و ما انفك العلماء و الفقهاء و المحدثون يجِدُّون في الشرح و التبسيط والاستنباط-حسب ما يقتضيه كل عصر- حتى أصبحت لدينا الكتب الضخمة في تفسير القرآن الكريم، و شرح السنة الشريفة، و تدوين الفقه الإسلامي وأصوله، وكتب السير الشخصية والتاريخ العام...

كان النبي ﷺ يدرك جيداً قيمة الكتابة و لذلك اتخذ كتاباً يسجلون لأمته ما يوحيه الله إليه، و قد أوصلهم الإمام ابن القيم -رحمة الله عليه- إلى سبعة عشر،

1- بله: دع أو أترك

وكان ﷺ يأمر بعض المسلمين بتعلم الكتابة و القراءة و يأمر المتعلمين منهم بتعليم من يجهلها.

ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أن الرسول ﷺ أمر عبد الله بن سعيد بن العاص رضي الله عنه أن يعلم الناس الكتابة بالمدينة و كان كاتباً محسناً ؛ و في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال:(علمت ناساً من أهل الصفة الكتابة و القرآن).

و مما يدل على عناية النبي ﷺ بأمر الكتابة و القراءة أنه أمر بعض الأسرى في غزوة بدر أن يعلم كل واحد منهم عشرة من غلمان المدينة القراءة و الكتابة ليكون ذلك فداء له من الأسر.

و من الإشارات القرآنية الدالة على فضل القلم و ما يسطر به من علوم أن الله ﷻ أقسم به في صدر سورة سميت القلم ﴿ **ن و القلم وما يسطرون**﴾ و بسبب هذا التوجيه القيم أقبل الناس على تعلم القراءة و الكتابة بصفتها مفتاح العلوم والمعارف، و تزايد عدد المتعلمين في عهد النبي حتى عدوا بالعشرات ،و بانتشار الإسلام، و انديا ح دائرته في الأرض قفز عدد المتعلمين من العشرات إلى المئات، ثم إلى الآلاف المؤلفة، ثم إلي استئثار علماء المسلمين بنواصي كل العلوم التي كانت معروفة آنذاك .

و ما كاد القرن الثاني للهجرة ينتهي حتى أصبح علماء المسلمين أساتذة العالم و رواده إلى قمة الحضارة الإنسانية بوجوهها المختلفة. و لم ينكفئ[1] عطاؤهم للبشرية و يأفل نجمهم ويتحولوا من الريادة إلى التبعية إلا يوم أن استكانوا للجمود الفكري، و حاصروا العقل في محيط لا يتعداه وكانوا بالمرصاد لكل من رام تحرير هذا العقل من قيوده ليحلّق في سماء الإصلاح و الاختراع مما نجم عنه التقهقر في كل ميادين الحياة، و التخلف الحضاري الذي أغرى أعداءهم بالسطو عليهم، و احتلال أرضهم واستغلالها دونهم ثم النفوذ إلى أدمغتهم ليزرعوا فيها التشويش والتشكيك والإلحاد والتزهيد في كل ما هو أصيل والإيلاع بكل ما هو دخيل حتى أمست الأمة في مواجهة عدوين لدودين عدو داخلي من أبنائها وبناتها و عدو خارجي من الأجانب عنها ولا حول ولا قوة إلا بالله.

و لا مناص لنا من هذا التخلف المزري إلا بإقبال شبابنا على دينهم يوسعونه فهماً ليكون لهم حصناً، و الاجتهاد في اكتساب العلوم العصرية بمختلف مواضيعها لتعينهم على الاستفادة مما سخره الله للإنسان في الأرض والسماء، كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا**﴾ الآية29، وفي سورة يونس: ﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق نفصل**

1- ينكفئ: يتأخر.

الآيات لقوم يعلمون ﴾. الآية 5. إلى ما هنالك من آيات توجه العقول نحو الاكتشاف ثم الانتفاع ثم التصدير و الارتياد.

و بذلك نزيح عن أنفسنا الجوانب الضارة من التبعية الثقافية والتكنولوجية و الاقتصادية والاجتماعية و التربوية الخ...

وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾ الزمر 9.

و في قوله: ﴿ **و تلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلا العالمون** ﴾ العنكبوت 43. وصدق رسوله الكريم في قوله: (العالم و المتعلم شريكان في الأجر، و لا خير في سائر الناس) رواه ابن ماجه.

و في قوله ﷺ : (من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع). رواه الترمذي.

سورة القدر

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

اختلفت الروايات في مكيتها أو مدنيتها؛ و المثبت في المصحف مكيتها.

عدد آياتها خمس، و **مناسبتها لما قبلها** أن الله ﷻ أمر نبيه بالقراءة في سور ة العلق، و المقروء هو القرآن الكريم، و في هذه السورة أخبرنا بأن هذا القرآن أنزل في ليلة القدر .

﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾

ضمير الجماعة "نا " في " إنا " و في " **أنزلناه** " عائد إلى الله ﷻ وإيثار ضمير الجماعة على ضمير المفرد (مع العلم أن الله واحد) من أجل التعظيم، و ضمير الغائب (الهاء) في أنزلناه عائد إلى القرآن الكريم، وإن لم يسبق له ذكر لاشتهاره عند الناس؛ فهو حاضر في أذهانهم.

و تأكيد إنزاله من الله فيه ترغيب في تلقي الخير، و دليل على عظمة المنزل (وهو الله تعالى) ، وعظمة المنزل (و هو القرآن العظيم)، و عظمة المنزل به (وهو جبريل)، و عظمة المنزل عليه (و هو سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ).

وفي ذلك رد أيضا على المشركين الذين كانوا يزعمون أن محمداً ﷺ اختلق هذا القرآن من عند نفسه ولم ينزله الله عليه: فهو -في زعمهم- تارة كذاب وتارة ساحر و تارة كاهن وتارة شاعر إلى آخر ما هنالك من ضلالاتهم وسفاهاتهم قال الله -تعالى- في سورة الفرقان حكاية لأقوالهم: ﴿**وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه**[1] **وأعانه عليه قوم آخرون**﴾ الآية4 إلى آخر الآيات، وقال في سورة الأنبياء: ﴿**وأسروا النجوى الذين ظلموا:هل هذا إلا بشر مثلكم أفتاتون السحر وأنتم تبصرون؟ قل ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر**﴾ الآيتان3-4.

و معلوم أن القرآن لم ينزله الله جملة واحدة على النبي ﷺ و إنما أنزله منجما (مفرقا) على حسب الوقائع في عشرين سنة و نيف[2] .

1- افتراه :اختلقه و اخترعه من عند نفسه.

2- نيِّف: زيادة.

و كانت أولى الآيات المنزلة منه على رسول الله ﷺ هي الآيات الخمس في مفتتح سورة العلق ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.**﴾. الآيات 1-5.

ثم فتر الوحي (انقطع مدة) ثم تتابع إلى أن ختم بالآية التي وضعت في سورة البقرة و هي قوله -تعالى-: ﴿**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت و هم لا يظلمون**﴾ الآية281.

فالمراد بإنزال القرآن ليلة القدر ابتداء إنزاله بالآيات الخمس منه، وإطلاق لفظ "القرآن "على بعضه وارد في كثير من الآيات.

و"**القدر**": قد يكون المراد به الشرف و الفضل، من قولهم:لفلان قدر عند فلان أي شرف ومنزلة رفيعة عنده، و قد يكون المراد به: تقدير الأمور كما قال - تعالى - من سورة الدخان: ﴿ **فيها يفرق كل أمر حكيم**﴾الآية 4.

في أي شهر هي ؟

لاشك أنها في شهر رمضان، لأن الله ﷻ يقول في سورة البقرة: ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان** ﴾ الآية 185.

وفي أي ليلة منه ؟

وردت عن النبي ﷺ روايات في تعيينها، أرجحها، أنها في أوتار العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك،جاء في الصحيحين عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: (تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان). وأشهر تلك الليالي الليلة السابعة و العشرون منه.

وما يؤيد كونها في العشر الأواخر انتقال النبي ﷺ باعتكافه إليها، واستمراره على ذلك إلى الوفاة، روي في الصحيحين أنه ﷺ كان يعتكف -في العشر الأواخر- حتى توفاه الله ثم اعتكف أزواجه من بعده.

وروى مسلم أنه ﷺ كان يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيرها.

واعلم -أيها القارئ الكريم- أن الله - تعالى- قد أعلم نبيه ليلة القدر وعينها له ثم أنساه إياها لتبقى مخفاة في ليالي رمضان، ولعل في ذلك الخير الكثير للأمة لتجتهد في كل ليالي رمضان بالعبادة فينال كل مجتهد بركاتها.

و من أراد التوسع فيما ورد عن النبي ﷺ في ليلة القدر فعليه بكتب الحديث الموثوق بما فيها.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة أن عائشة ﵂ قالت :يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أقول فيها ؟ قال :قولي : (اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني).

واختيار الليل لإنزال القرآن الكريم دليل على أن الليل ظرف للنفحات الربانية لما فيه من سكون، وخلو القلب من الشواغل التي تشغله أثناء النهار .

﴿وما أدراك ما ليلة القدر ﴾

"أدراك" :أعلمك، و صيغة (وما أدراك)يراد بها تفخيم المتحدث عنه، والتشويق إلى معرفته وذلك عن طريق الإبهام؛ والمعنى :أي شيء أمكنه أن يوضح لك مقدار شرف ليلة القدر، فمقدار شرفها لا يعلمه إلا الله، وقد أخبرنا ربنا بـبعض فضلها في هذه السورة بعد هذه الآية الكريمة، وفي مفتتح سورة الدخان .

﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾

هذه الآية فيها توضيح للإبهام الموجود في الآية السابقة.

والأقرب إلى الصواب في دلالة لفظ (ألف) هنا أنه للدلالة على مجرد الكثرة لا على العدد المعين المعروف في الحساب، وذلك كقول العرب (رجل كألف، وألف كـأُفٍّ) لا يقصدون العدد المضبوط، ومن هذا الوادي قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **يود أحدهم لو يعمر ألف سنة** ...﴾ . الآية96، ومن ذلك قوله ﷺ: (رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل). رواه أحمد.

و من الألفاظ التي استعملها العرب لمجرد الدلالة على الكثرة لفظ سبعين، وتمشياً مع هذا الاستعمال العربي جاء قوله -تعالى- مخاطباً للنبي ﷺ في شأن المنافقين: ﴿**إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ التوبة80، فلا مفهوم

للعدد... وإنما جاء تمييز العدد ألف بلفظ شهر(دون لفظ عام أو يوم مثلا) لمراعاة الفاصلة التي هي الراء (القدر – شهر – أمر – الفجر) .

وبأي اعتبار كانت ليلة القدر خيرا من ألف شهر؟.

قد تكون خيريتها باعتبار أن ليلة واحدة ابتدأ فيها إنزال ما من شأنه أن يهدي البشر إلى الطريق التي هي أقوم في حياتهم خير من آلاف الشهور التي قضوها في الضلال البعيد.

كان أبو هريرة ﷺ يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يصل قط فإذا لم يعرفه الناس سألوه :من هو ؟ فيقول: أصيرم بني عبد الأشهل، عمر بن ثابث، وكان يأبى الإسلام على قومه، فلما كان يوم خرج رسول الله ﷺ إلى أحد بدا له في الإسلام فأسلم، ثم أخذ سيفه فغدا حتى دخل في عرض الناس، فقاتل حتى أثبثته الجراحة [1]، فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به، فقالوا :والله إن هذا للأصيرم، ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث، فاسألوه :ما جاء به ؟ فقالوا : ما جاء بك يا عمر ؟ أَحَدَبٌ[2] على قومك أم رغبة في الإسلام ؟ قال :بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله وبرسوله وأسلمت،

1 – أثبثته الجراحة : أثقلته الجروح فلم يستطع الحركة.

2 – أحدب: الهمزة استفهامية، وحدب : حنو وتعطف.

ثم أخذت سيفي، فغدوت على رسول الله ﷺ ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني، ثم لم يلبث أن مات في أيديهم، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: إنه من أهل الجنة.

قلت: أليس بعض يوم أسلم فيه وجاهد مع رسول الله ﷺ حتى استشهد وكان من أهل الجنة خيراً له من عمره كله، هذا العمر الذي أمضاه في الشرك وعبادة الأصنام وعبث الجاهلية؟) أورد قصته الإمام أحمد في مسنده.

وقد تكون خيريتها باعتبار أن العمل الصالح فيها أفضل من حيث الأجر عند الله من ألوف الليالي غيرها، وذلك من كرم الله –تعالى– وفضله على المؤمنين المتقين جاء في الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال: (من قام ليلة القدر إيمانا و احتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه).

ولا مانع من إرادة الاعتبارين.

والمعلوم أن الليالي والأيام لا تتفاضل بطولها أو قصرها ولا بأحوالها، وإنما تتفاضل بحسب ما يقع للناس خلالها من صلاح، وما يساعدهم فيها على الاستقامة وإلا فإن الأزمنة كلها متساوية، وهذا التفاضل بين الأوقات يشبه التفاضل بين الناس في ميزان الله تعالى، فهو لا يكون باعتبار الطول والقصر أوالغنى و الفقر أو القوة والضعف، وإنما يكون بما أثبته الله في كتابه العزيز: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ الحجرات 13.

روى الإمام مالك ﷺ في موطئه أنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول: إن رسول الله ﷺ أري أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر، وجعلها خيرًا من ألف شهر.

وقد تتساءل -أيها القارئ الكريم- عن الحكمة من تكرار لفظ" **ليلة القدر**" ثلاث مرات، والأصل أن يُكتفى بضميرها فيقال :"وما أدراك ما هي " ."هي خير من ألف شهر" ؟

والجواب أن الحكمة في ذلك هي الاهتمام بهذه الليلة المباركة،كالاهتمام بـ"الكتاب" عند قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿**وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب ، لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب**﴾. الآية78.

ومن أوجه البلاغة المستحسنة في هذه السورة الكريمة ما يسمى في علم البلاغة بتشابه الأطراف، وهو إعادة اللفظ الأخير المذكور في جملة سابقة في صدر جملة لاحقة، والجملة السابقة هنا هي "**وما أدراك ما ليلة القدر** " ختمت بـ "**ليلة القدر**" ثم ابتدئت بها الجملة اللاحقة "**ليلة القدر خير من ألف شهر** ". ونظير ذلك تكرار لفظ المصباح والزجاجة، في قوله تعالى: ﴿ **مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درّيّ** ﴾ النور الآية35.

﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر** ﴾

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا. .

وتنزل أصله تتنزل (بتاءين)الأولى تاء المضارعة والثانية أصلية في الفعل حذفت إحداهما اختصاراً، و"**الروح** " هو جبريل عليه السلام عطف على الملائكة وهو منهم تشريفاً له.

ويصح أن تكون الواو للحال والجملة الاسمية بعده حالية، والجار والمجرور "فيها " يتعلق بـ" تنزل " إن اعتبرنا الواو عاطفة، وبخبر المبتدأ المحذوف "كائن "إن اعتبرنا الواو حالية، وما بعدها مبتدأ وخبراً.

وإيثار صيغة المضارع في " **تنزل** " الذي يفيد تجدد نزول الملائكة وتكراره، هذا من جهة، وذكر فضائل ليلة القدر من جهة أخرى، وتحريض النبي ﷺ على إحيائها وترقب بركاتها من جهة ثالثة، دليل على أن فضل الله في ليلة القدر الأولى يتجدد في كل ليلة تماثلها من ليالي الأعوام المقبلة إكراما لها، وللقرآن الذي أنزل فيها، وللنبي الذي أنزل عليه، وللأمة التي تتبعه وتقتدي به.

والباء التي في "**بإذن** "يصح أن تكون سببية أي تنزل الملائكة بسبب أن ربهم أذن لهم في ذلك، ويصح أن تكون للمصاحبة إذا أريد بالمصدر "**إذن** "معنى اسم المفعول أي تنزل الملائكة بمأذون ربهم أي بما أذن به لهم فيها.

واستعمال المصدر بمعنى اسم المفعول معروف في لغة العرب، ومن ذلك قوله تعالى قي سورة لقمان: ﴿**هذا خلق الله** ...﴾ الآية11، أي مخلوقه .و"**من**"في

جملة "**من كل أمر**" إما تعليليه لأنها عللت تنزل الملائكة إلى الأرض أي من أجل كل أمر أراده الله، وإما بيانية (إذ اعتبرنا المصدر "إذن "بمعنى اسم مفعول لأن مأذون الله (أي ما أذن فيه) يقتضي بياناً، فبين بقوله "**من كل أمر** "، وإما بمعنى الباء أي: تنزل بكل أمر.

و"**أمر** ":لفظ مشترك بين واحد "الأمور "وواحد"الأوامر" ويصح أن يكون كلا المعنيين مقصودا هنا من باب استعمال اللفظ في معنييه، يؤيد ذلك ما جاء في سورة الدخان عن ليلة القدر: ﴿**فيها يفرق كل أمر حكيم، أمرا من عندنا**﴾. الآيتان 4-5. وبديهي أن الأمر الأول واحد الأمور، وأن الأمر الثاني واحد الأوامر .

﴿**سلام هي حتى مطلع الفجر**﴾

"**السلام**": من معانيه السلامة من الشر، والأمن من الأذى، كما في قوله تعالى: ﴿**قلنا يا نار كوني برداً وسلاما على إبراهيم**﴾ الأنبياء 69 .

ومن معانيه أيضا التحية .

وكلا معنيي السلام حاصل في هذه الليلة المباركة، فالسلامة من الشر يتحقق معها حصول كل خير كغفران الذنوب، وكثرة الأجر، والتحية تعني ثناء الملائكة على العباد في ليلة القدر كثنائهم على أهل الجنة في الجنة قال-تعالى-في

سورة الرعد ﴿...**والملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾ الآيتان 23-24.

وتقديم الخبر (سلام) على المبتدأ(هي)لإفادة القصر، أي ما هي إلا سلام بالنسبة للمؤمنين الذين يحيونها بالصلاة والذكر؟

و"**حتى**"حرف يفيد الغاية أي النهاية: نهاية ماذا؟ نهاية ليلة القدر.

و"**مطلع**"مصدر ميمي أي طلوع.

والمعنى: أن تنزل الملائكة في ليلة القدر والسلام الحاصل فيها يستمران إلى طلوع الفجر بحيث إن من يحيى جزءاً منها (في أولها أو وسطها أو آخرها على حسب طاقة كل واحد) مع حضور صلاتي العشاء والصبح في الجماعة ينال بركتها إن شاء الله تعالى.

تنبيهات:

قد أطلق بعض الناس العنان لخيالهم فنسجوا حول ليلة القدر أقاويل بعضها كذب محض، وبعضها و هم يعوزه الدليل، وبعضها إلزام بما لا يلزم، وقد تصدى لبيان ما فيها من زيف وضعف حذاق العلماء كالأئمة: ابن كثير وشيخه المزي وفخر الدين الرازي والطاهر بن عاشور ومحمد عبده- رحمهم الله أجمعين - على أن ما ورد في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة كاف - كل الكفاية - في بيان فضلها والكشف عن مظان وجودها.

ومن تلك الأقاويل المردودة على أصحابها ما رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه يسنده إلى القاسم بن الفضل الحداني عن يوسف بن سعد، وقال عنه "حديث غريب" ونصه: قام رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنه بعدما بايع معاوية رضي الله عنه فقال:سودت وجوه المؤمنين أو يا مسود وجوه المؤمنين؛ فقال لا تؤنبني –رحمك الله – فإن النبي ﷺ رأى بني أمية على منبره فساءه ذلك، فنزلت: إنا أعطيناك الكوثر يا محمد، يعني نهرا في الجنة،ونزلت : ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر**﴾ يملكها بنو أمية يا محمد، قال القاسم: فعددناها فإذا هي ألف شهر، لا يزيد يوم ولا ينقص).

قال الإمام الطاهر بن عاشور– رحمه الله – معلقا على هذه الرواية في تفسيره القيم"التحرير و التنوير " ج 30ص.460و 461 "واتفق حذاق العلماء على أنه حديث منكر، صرح بذلك ابن كثير، وذكره عن شيخه المزي، وأقول: هو مختل المعنى، ولمحات الوضع (علامات الكذب) بادية عليه، وهو من وضع أهل النحل المخالفة للجماعة، فالاحتجاج به لا يليق أن يصدر مثله عن الحسن مع فرط علمه وفطنته ! وأية ملازمة بين ما زعموه من رؤيا رسول الله ﷺ وبين دفع الحسن التأنيب عن نفسه ولا شك أن هذا الخبر من وضع دعاة العباسيين، على أنه مخالف للواقع لأن المدة التي بين تسليم الحسن الخلافة إلى معاوية، وبين بيعة السفاح – وهو أول خلفاء الدولة العباسية – ألف شهر و اثنان وتسعون شهراً أو

أكثر بشهر أو شهرين، فما نسب إلى القاسم الحداني من قوله : فعددناها فوجدناها ... إلخ كذب لا محالة ، والحاصل أن هذا الخبر الذي أخرجه الترمذي منكر كما قال المزي.

ومن الأخبار التي لا يقبلها عقل سليم، ولا يؤيدها نقل صحيح قولهم : (إن الروح ملك عظيم الخلقة تحت العرش، ورجلاه في تخوم [1] الأرض السابعة، وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا، وفي كل رأس ألف وجه، وفي كل وجه ألف فم، وفي كل فم ألف لسان يسبح -الله- بكل لسان ألف نوع من التسبيح والتحميد والتمجيد، ولكل لسان لغة لا تشبه لغة الآخر وإذا فتح أفواهه بالتسبيح خرت ملائكة السموات السبع سجداً مخافة أن يحرقهم نور أفواهه، وإنما يسبح الله تعالى غدوة وعشية، فينزل في ليلة القدر لشرفها وعلو شأنها فيستغفر للصائمين والصائمات من أمة محمد ﷺ بتلك الأفواه كلها إلى طلوع الفجر).

واضحك -أيها القارئ الكريم- ما شاء لك الضحك، ثم تأسف ما شاء لك التأسف من هذه الصورة الكاريكاتورية التي اخترعت لهذا الملك الذي فسروا به "الروح "الوارد ذكره في سورة القدر ثم عد إلى نفسك واسأل :هل

1- تخوم الأرض:حدودها النائية .

خلقة الملك الأصلية تشبه خلقة الإنسان[1] ؟ وتذكر قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿**جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء**﴾... الآية1، وقوله تعالى في سورة الإسراء :﴿ **... قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا** ﴾ الآية95.

وإذا أردت أن تعرف السر من وراء هذا الخلط بين الجد و العبث والحق والباطل في أمور الدين فهو المكر السيئ الذي ظل الزنادقة يلاحقون به أفكار المسلمين عبر العصور حتى يحجبوا عنها الرؤية الصحيحة لحقائق الدِّين.

ولو لا أن هذه الأخبار قد وردت في بعض كتب التفسير عن غفلة وعدم تثبت من أصحابها، - كما نبه إلى ذلك المحققون من العلماء - ولولا أني سمعت من يحدث المسلمين بأغرب منها، ولولا حسن النية الغالب على كثير من المسلمين حتى إنهم ليصدقون بما يستحيل وقوعه لضربت عنها صفحا، ولما ألقيت لها بالا، ولكنها الرغبة الملحة في القيام بواجب الإصلاح دفعتني إلى هذه التنبيهات التي تعصم أبناءنا من الوقوع في مثل هذه الأوحال[2] الفكرية .

---

1 - أما تشكله بصورة البشر كما في قصة جبريل مع النبي محمد، و مريم و إبراهيم -عليهم الصلاة و السلام- فهي أحوال خاصة ثابتة بدليل قطعي من الشرع و هذا شان كل أمر غيبي.

2 - الوحل: الطين الرقيق وجمعه أوحال

ومن الأقوال الضعيفة عن ليلة القدر، رواية بعضهم أن سورة القدر ثلاثون كلمة وقوله تعالى (هي) السابعة والعشرون، والواقع أن كلمات السورة حسب قواعد اللغة العربية ست وثلاثون كلمة وعليه فكلمة (هي) تعد الثالثة والثلاثين.

ومن الأقوال الخرافية التي حيكت حول ليلة القدر : قلة نبح الكلاب فيها، وقلة نهيق الحمير وعذوبة الماء الملح، ورؤية كل مخلوق ساجداً لله تعالى، وسماع كل شيء يذكر الله بلسان المقال .

وهل يصدق بهذا الهراء إلا المأفونون [1]؟!

اكتفي بهذا المقدار من الأمثلة ، وأنا واثق أنها تسهم في تنوير العقول المستعدة لقبول النور.

ومما ألزم به الناس أنفسهم في بعض المناطق، وهو غير لازم شرعا، ختم القرآن كله في ليلة واحدة، قالت أم المؤمنين عائشة ﵂ ضمن حديث مطول رواه قتادة عن زرارة (ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة واحدة، ولا صلى ليلة إلى الصبح ولا صام شهرا كاملا غير رمضان). مسلم بشرح النووي 6/ 27.

وماذا نتج عن لزوم ما لا يلزم في هذه الليلة ؟

1- المأفون: ضعيف العقل و جمعه المأفونون.

- السرعة الخارقة في قراءة الإمام للقرآن العظيم حتى يتم ختمه في هذه الليلة ولا تسأل عن قدرة المأمومين على متابعة القراءة وفهمها، فشيء يقال له الفهم أو الاتعاظ ليس له أثر.

- كثرة الأخطاء وقفز اللسان من سورة إلى سورة والارتباك عند الآيات المتشابهة، ذلك أن بعض المحاريب يتقدم إليها من تنقصه الكفاءة في هذا المقام.

- إن بعض المساجد يستمر أهلها في صلاة النافلة إلى ما بعد طلوع الفجر، وفعلها بعده مكروه في الفقه الإسلامي، كل ذلك ليختموا القرآن الذي ألزموا أنفسهم بختمه في ليلة واحدة. والأدهى من ذلك أن تؤخر صلاة الصبح وهي فرض إلى آخر وقتها الضروري رغم أنف الفقه والفقهاء .

هذا وقد بدأنا نشاهد مؤخرا في منطقتنا وغيرها أن المفاهيم أخذت تتغير والحمد لله فبعد أن كانت الأفضلية للهذرمة[1] في القراءة صارت للنوع المعروف في القراءة بالحدر[2] أو الترتيل، وبعد أن كانت الطمأنينة في الصلاة مهضوما حقها أصبحت تسترجعه، وبعد أن كان الاستحسان للكمية أمسى يتحول إلى النوعية وهو ما تدعو إليه النصوص الشرعية في كتاب الله وسنة رسوله، وهي من الوضوح بحيث لا أجدني في حاجة إلى عرضها في هذا المختصر. والله أعلم.

---

1 - الهذرمة: السرعة في القراءة و الكلام.

2- الحدر: السرعة في القراءة مع مراعاة أحكام التلاوة

سورة البينة

سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ
حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾
فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا
جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ
لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

هكذا سميت في المصاحف التي عندنا، وذلك لورود هذا اللفظ فيها، ووضعت لها أسماء أخر، منها: (لم يكن) و (القيمة) و (البرية) و (أهل الكتاب) و(الانفكاك) و(المنفكين) و(لم يكن الذين كفروا).

وهذه التسمية الأخيرة هي التي وردت في صحيحي البخاري ومسلم، فعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: (إن الله أمرني أن أقرأ عليك" **لم يكن الذين كفروا**") قال: وسماني لك؟ قال: (نعم)، فبكى وقرأها عليه.

وإدراك أبيّ ﷺ لمعنى هذا التشريف الإلهي العظيم الذي خصه به ربه هو الذي جعله ينفجر بالبكـاء، جعلنا الله من المكرمين عنده، آمين .

وهل هي مكية أو مدنية ؟ الراجح من الروايات أنها مدنية، وموضوعها يؤيد مدنيتها.

عدد آياتها ثمان.

ومناسبتها لما قبلها: أن سورة القدر أخبرت بنزول القرآن في ليلة القدر وهذه أخبرت عن رسول يتلو على الناس مضمون صحف مطهرة هي القرآن العظيم .

﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾

"من" في قوله ﷻ: **﴿من أهل الكتاب﴾** بيانية؛ لأنها بينت أن الذين كفروا فريقان هما أهل الكتاب والمشركون.

وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والكتاب المعني هو التوراة المنزلة على موسى عليه السلام لهداية بني إسرائيل المؤيدة بالإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام لتجديد العهد القديم (التوراة).

والمشركون هم الذين أشركوا مع الله غيره في عبادتهم إياه، والمراد بهم هنا العرب المتمسكون بأصنامهم و بمعتقداتهم الباطلة.

والشرك نوع من الكفر، كما أن إنكار رسالة محمد ﷺ نوع من الكفر، فالجامع بين أهل الكتاب والمشركين هو الكفر .

وقد يتساءل القارئ المتأمل فيقول: إن عطف المشركين على أهل الكتاب يدل على المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذه المغايرة يفهم منها نفي الشرك عن أهل الكتاب، بينما القرآن الكريم يثبت لهم الشرك في موضع آخر منه، قال الله -تعالى- في سورة براءة: ﴿...**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون** ﴾ . الآية 31 .

والجواب - والله أعلم - أن أهل الكتاب قد اشتهروا بهذا الاسم الذي يشير إلى أن لهم كتابا سماويا دون غيرهم، على أن شركهم أخف من شرك غيرهم، والكفر يتفاوت كما أن الإيمان يتفاوت .

﴿ منفكين ﴾ اسم فاعل (في صيغة جمع المذكر السالم المنصوب) لأنه خبر "يكن" وهو مصوغ من فعله الذي هو (انفك) أو (ينفك)، وصيغة الفعل الموزون بـ (انفعل) يدل على المطاوعة؛ فـ " انفك" مطاوع(فك) يقال في العربية فك الشيء عن الشيء إذا فصله عنه فـــ " انفك " أي انفصل، ويقال أيضا : فك الغلاف : إذا فتحه فانفك أي انفتح، ويقال انفك الناس عن معتقداتهم : إي تركوها وابتعدوا عنها، فهم منفكون عنها .

وما هذا الشيء الذي لم يكن الكفار منفكين عنه ؟ ..

هو ما كانوا عليه، فالجار والمجرور المتعلقان بـ " منفكين " محذوفان تقديرهما: منفكين عما هم عليه .

وما كانوا عليه يشمل تفسيرين :

أ. الدِّين المشوب بالكفر (بالنسبة لأهل الكتاب)، والوثنية (بالنسبة للعرب).

ب.الإيمان بالرسول الموعود به، وتصديقه واتباعه عند ظهوره.

و"حتى" لإنشاء الغاية؛ فغاية (أي نهاية) عدم انفكاكهم عما هم عليه هو: مجيء البينة.

و (**البينة**) هي الحجة الواضحة التي يتبين بها الحق، ويتميز عن الباطل، وبما أن محمداً ﷺ قد تبين به الحق لكل ذي لب، وتميز به الباطل صار هو نفسه بينة (على سبيل المجاز).

والإتيان بـ (**البينة**) هكذا بالتعريف يدل على أنهم كانوا يعرفونه جيدا وينتظرون مجيئه ليؤمنوا برسالته ويتبعوه.

أما أهل الكتاب فقد عرفوه باسمه وصفته وصفة أتباعه في التوراة ثم في الإنجيل، وأما المشركون فبسماعهم من أهل الكتاب .

روي أن بني إسرائيل كانوا يستفتحون ويقولون " اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان، ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، وكان في قريش من يعي هذا الخبر جيدا حتى إن زيدا بن عمرو بن نفيل قد كان يتطلب نبيا من العرب، يقول: قد أظل زمانه، وإنه من قريش، بل من بني هاشم، بل من عبد المطلب.

ولعل ما يشهد لذاك أنهم قبيل بعثته سمى منهم غير واحد ولده محمدا رجاء أن يكون النبي المبعوث .

ولكن هل آمن به هؤلاء الذين كانوا ينتظرونه ويتباشرون بمقدمه ؟

اختلف كل من أهل الكتاب و المشركين فيما بينهم وتفرقوا :

أما أهل الكتاب فكفر به أكثرهم، وجحدوا رسالته السماوية ولو أنهم قد استيقنوها في أنفسهم، استنكافا منهم أن تكون الرسالة في غير بني إسرائيل، وأن يأتيهم هذا الرسول بما لا تهوى أنفسهم، ولم تؤمن منهم إلا قلة قليلة لم تستسغ كتمان الحق، ولا التلاعب بما ورد في التوراة والإنجيل من صفات كلها تنطبق على سيدنا محمد ﷺ ولو أنكر ذلك المتعصبون من إخوانهم.

وأما المشركون فقد سارع بعضهم إلى الإيمان، وتلكأ بعضهم ثم آمن، واستمر بعضهم على الكفر ومناوأة أهل الإسلام إلى الممات -والعياذ بالله- وذاك لأسباب تتعلق بأحقية السيادة في مكة، أو بالمحافظة على مصالح مادية يعارضها الإسلام.

وقد قص علينا القرآن العظيم الكثير من مواقف أهل الكتاب وأهل الشرك من النبي ﷺ والدين الذي جاء به.

فمن ذلك ما نقرؤه في سورة البقرة: ﴿... **الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾ الآية 146. وفي سورة الصف: ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل: إني رسول الله إليكم، مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** ﴾ الآية 6، وفي سورة الأعراف -في معرض الحديث عمن يستحقون رحمة الله من بني إسرائيل-: ﴿**الذين يتبعون**

الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، والأغلال التي كانت عليهم؛ فالذين ءامنوا به، وعزروه، ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ الآية 157.

وفي سورة البقرة أيضا: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم - وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . فلعنة الله على الكافرين ، بئس ما اشتروا به أنفسهم : أن يكفروا بما أنزل الله ، بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين ﴾ الآيتان 89-90.

وفي سورة الفتح: ﴿ محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل : كزرع أخرج شطأه فئازره، فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع، ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾ الآية 29.

هذا ما يتعلق بأهل الكتاب بشأن إنكارهم لرسالة محمد ﷺ ، أما ما يتعلق بأهل الشرك فهو الكثير، من ذلك ما نقرؤه في سورة الفرقان: ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون -فقد جاءوا ظلما وزورا- وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا، قل أنزله الذي يعلم

السر في السموات والأرض، إنه كان غفورا رحيما، وقالوا مَا ل[1] هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة يأكل منها، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ الآيات 4-9. وتابع إن شئت في سورة الفرقان.

وحاصل معنى الآية: أن كلا من أهل الكتاب، وأهل الشرك كانوا يقولون: لا نترك ما نحن عليه، ولا ننفك عنه إلى أن يأتينا الرسول الذي بشرت به الأنبياء قبلا، فالآية تتضمن حكاية - بالمعنى- لأقوالهم التي كانوا يطلقونها قبل بعثة محمد ﷺ وذلك على سبيل التوبيخ والتعيير، ولذلك جاء التعبير بصيغة المضارع الدال على المستقبل في قوله تعالى: ﴿ .. **حتى تأتيهم البينة** ﴾ ولكن لما جاءتهم البينة رفضوها وحاربوا من أتى بها، ففي الآية وقف لهم على إخلاف وعدهم.

وجار الله محمود الزمخشري -رحمه الله- يقرب هذا المعنى للفهم بقوله: "..ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست منفكا مما أنا فيه حتى يرزقني الله الغنى، فيرزقه الله الغنى، فيزداد فسقا، فيقول واعظه: لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر (تستغني) وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار (الغنى) يذكره ما كان يقوله، توبيخا وإلزاما".

1- هكذا كتبت اللام في الرسم، و حسب القواعد الحديثة تكتب متصلة بـــ (هذا) لأنها حرف جر.

﴿ رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة فيها كتب قيمة ﴾

لفظ "**البينة** " مبهم ، يصدق على مدلولات مختلفة، فجاء بعده لفظ " **رسول** " ليعين المقصود منه ، وهو رسول الله ﷺ ، والمعنيُّ هو سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.

فلفظ " **رسول** " إما بدل مطابق، وإما خبر لمبتدأ محذوف تقديره: "هي" فيكون تركيب الجملة هكذا "هي رسول من الله " وهي جملة مستأنفة استئنافا بيانيا؛ لأنها بينت المراد من اسم قبلها، والجار والمجرور (وهو لفظ الجلالة) متعلقان بمحذوف تقديره: "مرسل" أي رسول مرسل من الله، والاسم المقدر نعت أول لـ "رسول " .

وجملة " **يتلوا صحفا مطهرة** " نعت ثان .

و"**يتلوا**" بمعنى يقرأ، والصحف: الأوراق وهي جمع تكسير مفرده صحيفة ومعلوم أن سيدنا محمدا ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب فكيف يخبر الله عنه بأنه يتلو صحفا؟

والجواب: أنه يقرأ عن ظهر قلب ما هو مكتوب في الصحف، والنبي ﷺ كان يأمر بكتابة ما ينزل عليه من قرآن في الصحف، ومن كتاب الوحي الذين اختارهم النبي ﷺ لهذا الغرض الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين.

وبما أن صناعة الورق لم تكن موجودة آنئذ فقد كانوا يكتبونه على عظام الحيوانات العريضة، وعلى الرَّقِّ (الجلد) وعلى عسب النخل (جريده المكشوط من خوصه أي سعفه) وألواح الحجر .

وقد وصفت الصحف بأنها مطهرة من الخبث المعنوي الذي هو الشرك والزور وخلط الباطل بالحق، كما قال الله تعالى في سورة فصلت يصف القرآن الكريم: ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾ الآية 42.

وفي الآية تعريض بأهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا في كل من التوراة والإنجيل وحرفوا الكلم عن مواضعه، وفي ذلك تزوير على الله ﷻ، وأي تزوير!

﴿ **فيها كتب قيمة** ﴾

الجملة نعت ثان لـ" **صحفا** "، والضمير "ها " يعود إلى الصحف، والكتب جمع تكسير مفرده كتاب .

و لا يراد بها الكتب التي اصطلح الناس عليها الآن، وهي مجموعة من الأوراق المكتوبة مضموما بعضها إلى بعض بالطريقة المعهودة ولكن يراد بها – والله أعلم –: إما المكتوبات نفسها؛ وهي ما أوحاه الله تعالى إلى الرسول ﷺ من توجيهات وأحكام ومواعظ، وإما سور القرآن المشتملة على ذلك، على عادة

المؤلفين الذي يقسمون ما ألفوه إلى أبواب يسمونها كتبا، فيقولون - مثلا - كتاب الصلاة - كتاب الصيام - كتاب البيوع ..الخ

و" **قيمة** " بمعنى مستقيمة : تقوم بها مصالح العباد في دينهم ودنياهم تشبيها لمعاني الشريعة التي ندركها بعقولنا بالأشياء التي ندركها بحواسنا، وذلك من قبيل قول العرب : قام الدليل على كذا أي استقام وظهر، وبهذا المعنى وصف الله كتابه المنزل على عبده محمد ﷺ بأنه قيم بعد أن نفى عنه العوج، وذلك قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجا، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ...**﴾ الآيتان 1-2.

كما وصف دين الفطرة التي فطر الناس عليها بقوله-تعالى- في سورة الروم: ﴿ **ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ الآية 30.

واعلم أيها الحريص على الفهم أن الجمل من " **رسول من الله ...إلى كتب قيمة** " معترضة بين ما قبلها وما بعدها إذ الأصل: ﴿**...حتى تأتيهم البينة ... وما تفرق الذين أوتوا الكتاب...**﴾ والغرض من هذا الاعتراض مفهوم ، وهو بيان من هو المقصود بالبينة وطبيعة الرسالة التي بعث بها.

﴿ **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة** ﴾

الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، وتفرقهم كناية عن اختلافهم، واختلافهم إنما وقع بعد ظهور البينة.

وما المراد بهذه البينة ؟

هل هي " البينة " الأولى نفسها وهي محمد رسول الله ﷺ ؟ وإنما كررت لمزيد التشنيع عليهم ، وهذا المعنى يؤيده سياق الكلام.

أو هي عيسى بن مريم الذي بشرت به أنبياؤهم فكانوا ينتظرونه فلما جاءهم تفرقوا فكفر به أكثرهم وآمن به بعضهم؟

أو هي البينة التي جاءتهم على لسان كل نبي من أنبيائهم ؟

وبناء على هذين التأويلين الأخيرين يكون في الآية تسلية لنبينا محمد ﷺ، فهي تكشف له أن إنكار الحق بعد ظهوره ، وإرهاق الأنبياء بالمطالب ، والمجابهة بالتكذيب، وسوء الأدب شِنشِنة[1] قديمة في بني إسرائيل فلا تكترث لهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ومثل هذه الآية قوله -تعالى- في سورة آل عمران ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم** ﴾ الآية 19.

1 – شنشنة: عادة

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة﴾

الواو: يصح أن تكون للعطف :عطفت هذه الجملة على جملة "**وما تفرق...**"، كما يصح أن تكون للحال؛ أي رفضوا الإيمان بخاتم الأنبياء الذي كانوا يتشوقون إليه، والحال أن محمدا ﷺ لم يأمرهم-تبليغا عن الله تعالى – إلا بإخلاص العبادة لله، و إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهذا عين ما أمروا به على لسان أنبيائهم السابقين، فشريعة الله في أصولها واحدة مهما تعدد الرسل، قال – تعالى- في سورة الشورى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾ الآية 13

و " اللام " الداخلة على الفعل المسند إلى واو الجماعة " **يعبدوا** " هي اللام التي تزاد -عادة- بعد الفعل الدال على الإرادة أو الأمر، وتنوب عن " **أن** " كقوله -تعالى- في سورة النساء: ﴿ **يريد الله ليبين لكم** ﴾ الآية 26، والأصل "يريد الله أن يبين لكم "، وكقوله -تعالى- في سورة الأنعام: ﴿**وأمرنا لنسلم لرب العالمين**﴾ الآية 71، أي أمرنا أن نسلم لرب العالمين .

وكذلك هنا؛ فالأصل (وما أمروا إلا أن يعبدوا ..)

والمصدر المسبوك من "يعبد " مجرور بالباء المقدرة أي (وما أمروا إلا بعبادة الله مخلصين له الدين).

"**مخلصين**" اسم فاعل مشتق من فعله (أخلص)، وهو منصوب بالياء على أنه حال.

و" **الدين** " العبادة أو التعبد وهو منصوب باسم الفاعل " **مخلصين** ".

وإخلاص الدين : تصفيته وتنقيته من شوائب الشرك.

فمعنى " **مخلصين له الدين** " جاعلين الدين خالصا لله -تعالى- لا يخالطه شرك، ومن هذا الوادي قوله -تعالى- في سورة الزمر يخاطب نبيه ﷺ : ﴿ **قل الله أعبد مخلصا له ديني ، فاعبدوا ما شئتم من دونه...**﴾ الآيتان 14-15.

" **حنفاء** " جمع تكسير مفرده حنيف أي مائل من العوج إلى الاستقامة أي من العوج المعنوي وهو الضلال إلى الاستقامة المعنوية وهي الهدى ، ومنه قوله -تعالى- في سورة الحج: ﴿...**واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به...**﴾ الآيتان 30-31، وقوله -تعالى- في سورة النحل: ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين**﴾ الآية 120.

وضد " الحَنَف " - بفتحتين- : "الجَنَف" - بفتحتين أيضا- وهو الميل من الاستقامة إلى العوج أو من الهدى إلى الضلال والانحراف.

ووصفهم بـ "**حنفاء**" تأكيد لوصفهم بـ "**مخلصين**"، لأن كل مخلص حنيف، وكل حنيف مخلص.

"**ويقيموا الصلاة**": يأتوا بها على الوجه الأكمل بالمحافظة على أوقاتها والطهارة الواجبة لها، وما تقتضيه من استحضار عظمة الله فيها، والطمأنينة والاعتدال في أداء أركانها والقراءة الصحيحة فيها... .الخ.

"**ويؤتوا الزكاة**":يعطوا نصيبا من أموالهم لذوي الحاجات المستحقين لها.

"**وذلك دين القيمة**": الإشارة بـ " **ذلك** " إلى ما ذكر بعد أداة الاستثناء " إلا " وهو إخلاص العبادة لله، وإقام الصلاة، و إيتاء الزكاة .

و " **القيمة** " المستقيمة وهي صفة لموصوف محذوف تقديره (دين الأمة القيمة) أو(دين الملة القيمة)، وتقدير الموصوف بـ (الأمة) يعني الأمة المستقيمة على الصراط السوي، وتقديره بـ (الملة) يعني الملة التي تقوم بها مصالح العباد في دينهم ودنياهم وأخراهم.

﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية﴾

هذا شروع في ذكر حال الفريقين في الآخرة بعد ذكر حالهم في الدنيا .

والجملة مستأنفة، استئنافا ابتدائيا لأنها مستقلة عما قبلها.

و " **من**" بيانية كالتي في أول السورة لأنها بينت فريقي الذين كفروا.

والملاحظ أن الله جمع بين أهل الكتاب والمشركين في أول السورة وآخرها، وفي وسطها خص بالذكر أهل الكتاب ، فما السر في ذلك ؟ السر – والله أعلم – أن الله ﷻ ابتعث إلى بني إسرائيل رسلا منهم بشروهم برسول سوف يبعثه الله إلى البشر ويختم به الرسالات السماوية، ووصاهم أن يؤمنوا به ويتبعوا النور الذي ينزل معه وينصروه ويحترموه ، فكانوا على ذلك حتى إذا ظهر لهم كفر به أكثرهم ونكصوا على أعقابهم ، وأنكروا وصايا أنبيائهم، فتفرقهم واختلافهم بعد البينات التي جاءتهم على لسان رسلهم أشد قبحا من تفرق المشركين الذين لم يأتهم ولا رسول واحد يبشرهم بمثل ما بشر به بنو إسرائيل، قال الله تعالى في سورة يس: ﴿**...لتنذر قوما ما أنذر ءاباؤهم فهم غافلون**﴾ الآية6، وقال في سورة السجدة: ﴿ **أم يقولون افتراه ؟ بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون** ﴾ الآية 3.

وفي الآية رد على أهل الكتاب الذين يقولون : ﴿**لن تمسنا النار إلا أياما معدودة**﴾ البقرة 80، وهي الأيام التي عبدوا فيها العجل ثم يخرجون منها إلى الجنة، فهم- على عكس ما يتوهمون- يدخلونها ولا يخرجون منها، وهو معنى الخلود فيها، وما خلودهم في نار جهنم إلا بكفرهم بخاتم الأنبياء واستمرارهم عليه إلى الممات.

وفيها - أيضا - رد على المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وجنة ونار.

"أولئك هم شر البرية": الإشارة بـ**"أولئك"** إلى فريقي أهل الكتاب والمشركين.

و **"البرية "**: المخلوقات من برأ الله الخلق أي صورهم و أوجدهم من العدم و" **شر**" أصله أشر: فهو اسم تفضيل وضده خير الذي أصله : أخير.

والمعنى أن الذين كفروا من الفريقين هم أقبح المخلوقات، فهم أقبح من قطاع الطرق والسراق والجهال...وذلك من حيث اختيارهم التمسك بالباطل وعدم إذعانهم للحق بعد ظهوره متبوعا بالأدلة القاطعة الصريحة.

وإثبات الهمزة بعد الياء في **"البريئة"** هي قراءة نافع وابن ذِكوان وهي لغة لبعض أهل الحجاز، وقلب الهمزة ياء للتخفيف، وإدغامها في الياء الأولى هي قراءة الباقين.

﴿ إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾

بعد أن بين الله - تعالى - جزاء الكافرين ، وما يستحقونه من ذم أعقبه بمدح المؤمنين فجعلهم خير الخلق ، ثم بين جزاءهم بقوله :

﴿ **جزاؤهم - عند ربهم - جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾.

العندية المفهومة من " عند ربهم " تدل على الحظوة العظيمة.

و " عدن " مصدر : عدن بالمكان - يعدن - عدنا وعدونا : إذا أقام فيه.

والعُدون في الجنة يعني الخلود فيها : فذكر حالهم المفهوم من " **خالدين فيها أبدا**" تأكيد لعدونهم وإقامتهم الدائمة فيها .

وجري الأنهار من تحتها : مسيلها من تحت أشجارها، وقد ذكر الله في سورة القتال أربعة أنهار في الجنة أعدها للمتقين: ﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير ءاسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم، كمن هو خالد في النار، وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ؟** ﴾ الآية 15

ورضاء الله عن المؤمنين بسبب طاعتهم إياه في الدنيا، ورضاؤهم عنه بسبب إكرامه إياهم في جنة الخلد.

﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾

الإشارة بـ" ذلك " إلى جزاء المؤمنين الذي أعده الله لهم في الآخرة وهو جنات عدن التي تجري الأنهار من تحت أشجارها ، وخلودهم فيها ، ورضاء الله عنهم ورضاؤهم عنه.

وهذا الجزاء ضمنه الله لمن خاف مقامه كما قال في سورة الرحمان: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ الآية46.

فاللهم اجعلنا من الذين يخافون مقامك وينالون رضاك، آمين .

تذيـــيـــل : أسباب إنكار الحق:

قد ينكر بعض الناس ما هو حق لا مرية فيه ، وذلك بسبب الجهل به، والغالب في هؤلاء أن يعودوا إليه إذا وجدوا من يرشدهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن المعضلة هي في إنكار الناس لما هو حق، مع علمهم أنه حق !

وما السبب في ذلك ؟

ليس هناك سبب واحد، ولكنها أسباب :

أ- **مرارة الحق**، لأنه يدعو إلى القيام بالتكاليف التي تراها النفوس الضعيفة ثقيلة عليها ، كما يدعو إلى الامتناع عن الشهوات المغرية، والإقلاع عن العادات المألوفة، والتضحية بالمصالح الخاصة إذا تعارضت مع المصالح العامة والحرمان من الامتيازات المكتسبة ... الخ .

وهذا ما تكرهه النفوس طبعا، وهذا ما جعل مشركي مكة وغيرهم يعرضون عن دعوة محمد ﷺ إياهم إلى الإسلام، قال الله -تعالى- في سورة المؤمنون: ﴿ **أفلم يدبروا القول ؟ أم جاءهم ما لم يأت ءاباءهم الأولين؟ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون**﴾ الآيات 68-70.

وهذه الكراهية للحق هي التي أوردتهم النار و بئس الورد المورود، قال الله -تعالى-في حقهم وحق أمثالهم: ﴿ **إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم ، وهم فيه مبلسون، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادَوْا: يا مالك ليقض علينا ربك، قال : إنكم ماكثون، لقد جئناكم بالحق، ولكن أكثركم للحق كارهون** ﴾ . الزخرف 74-78.

ب- **الهوى المتبع**: الذي يميع شخصية الإنسان، ويجعله مستهترا، لا يبالي بما يفعل ولا بما يترك، ولاتهمه التفرقة بين الفضيلة والرذيلة، ولا بين الجد والهزل، ولا بين الحق والباطل فهو كسائمة الأنعام، بل هو - في اتباع ما تزينه له نفسه الأمارة بالسوء - أسوأ منها، لأنها سائرة فيما خلقت له بخلافه هو: خلقه الله ليعبده وحده فإذا هو عبد لآلهة ما أنزل الله بها من سلطان، ومن هؤلاء الآلهة هواه قال الله - تعالى- في سورة الفرقان: ﴿ **أرايت من اتخذ إلهه هواه؟ أفأنت تكون**

عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ الآيتان 43 -44.

ج- **الاستكبار والاستعلاء، واحتقار الداعي إلى الحق** ابتداء من إبليس الذي استكبر وكان من الكافرين، إلى يومنا هذا مرورا بالنمروذ، وفرعون، والملأ من عاد وثمود، وأكابر مجرمي مكة في عصر الدعوة المحمدية- على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، هؤلاء الذين توعدهم الله -عز وجل- بالويل والعذاب الأليم في سورة الجاثية حيث يقول: ﴿**ويل لكل أفاك أثيم يسمع ءايات الله تتلى عليه، ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها، فبشره بعذاب أليم ﴾** الآيتان7-8.

وفي سورة لقمان حيث يقول: ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزؤا أولئك لهم عذاب مهين، و إذا تتلى عليه ءاياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾** الآيتان 6-7.

وقد سجل الله - تعالى - بعض أقوالهم في محكم تنزيله حيث يقول في سورة الأنعام: ﴿ **و إذا جاءتهم ءاية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾** الآية 124.

وفي سورة الزخرف: ﴿**وقالوا : لولا نزل هذا القرءان على رجل من القريتين عظيم ﴾** الآية 31.

د- **التعصب** لأفكار وتقاليد توارثها الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد، وجمدوا عليها، فاستغلقت عقولهم، ورفضوا مجرد النظر فيما عرض عليهم مدعماً بالأدلة والبراهين .

ومثل هؤلاء ينسحب عليهم ما انسحب على من قال الله فيهم في سور ة العقود: ﴿ **وإذا قيل لهم: تعالَوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه ءاباءنا، أو لو كان ءاباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون** ﴾ الآية 104 .

هـ - **التعصب لقومية ما** وهو ما جعل بني إسرائيل يرفضون دعوة الحق التي جاءهم بها سيدنا محمد ﷺ لأنه ليس إسرائيليا !! قال الله -تعالى- في سورة البقرة: ﴿... **بئس ما اشتروا به أنفسهم: أن يكفروا بما أنزل الله ، بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين**﴾ الآية 90

و- **التعصب لقبيلة ما** وسمعتها ومفاخرها، وهو ما منع أبا جهل ومن لف لفه من اتباع محمد ﷺ لأنه ليس مخزوميا، ومما يشهد لذلك ما قاله للأخنس بن شريق، وقد جاء يختبر رأيه في محمد ﷺ فقال له: كنا وبني هاشم كفرسي رهان، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، و أعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب قالوا : منا نبي ينزل عليه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به ولا نتبعه .

ز- وإن ننس فلا ننسى **المال الذي يهز الضمائر الضعيفة** هزا، والمناصب والوظائف التي تدر على أصحابها متع الحياة الدنيا درا، فتنسيهم أنفسهم ومآلهم.

هذه الأمراض النفسية من هوى غالب، واستكبار عن قبول الحق واستخذاء للمال وتعصب لفكرة أو قومية أو قبيلة أو حزب أو مذهب هي التي فعلت أفاعيلها فينا - معشر المسلمين - ففرقتنا شيعا وأحزاباً، وجعلت بأسنا بيننا شديدا حتى صرنا طعما للطاعمين، ومرعى مباحا للطامعين، وأصبح شرفنا مبذولا للحاقدين، وقيمنا مدوسة تحت أقدام الخبثاء العابثين.

وقاصمة الظهر في هذا البلاء المبين أن بعضنا لم يتحرجوا - في محاربة إخوانهم في الدين - أن يستعينوا عليهم بأعداء عقيدتهم وألد خصومهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

و بعْدُ : **فهل من علاج وأدوية** ؟ نعم، إذا صدقت النية، وحسنت الطوية.

إنها مبذولة لنا في كل وقت، ومحمولة في الآيات الكريمة التي يكرر المسلمون تلاوتها آناء الليل وأطراف النهار و في الأحاديث الشريفة الصحيحة.

قال الله -تعالى- في سورة الشورى: ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله** ﴾ الآية 10،وفي سورة الأنفال: ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾ الآية 46

وفي سورة النساء: ﴿...**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾. الآية 59، وفي سورة آل عمران: ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾. الآية 105. وفي سورة النحل: ﴿**ما عندكم ينفد وما عند الله باق**﴾ الآية 96. وقال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به).

فهل من إجابة عامة تنصاع لها القلوب كافة ؟

والله الموفق .

سورة الزلزلة

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

تسمى سورة الزلزلة ، باعتبار المعنى، وسورة الزلزال بحكاية اللفظ الوارد فيها " **زلزالها** ".

هي مدنية في بعض الروايات و في المصحف الإمام، و مكية في روايات أخرى. وعدد آياتها ثمان.

و مناسبتها لما قبلها أن سورة البينة ذكرت جزاء المؤمنين و الكافرين وأن هذه السورة ذكرت وقت هذا الجزاء و أحوال الناس و الأرض في ذلك الوقت.

﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾

زلزلت الأرض : حركت حركة شديدة مع اضطراب، و فاعل الزلزال هو الله ﷻ، ولما كان معلوماً في الأذهان بني الفعل لما لم يسم فاعله، و المراد بهذا

الزلزال: زلزال البعث و النشور (كما سيعلم فيما يأتي)، و ما يحدث الآن من زلازل في الأرض يعطينا صورة مصغرة جدا عن الزلزال العظيم الذي يحدث عند ابتداء اليوم الآخر.

و أضيف المصدر (زلزال) إلى ضمير الأرض (ها) لِحِكَم منها:

أ- **بيان أن هذا الزلزال معلوم** مقدر وقته في علم الله تعالى، وقد أخبر بوقوعه البشر على لسان أنبيائهم فهو واقع لا محالة.

ب- **أن هذا الزلزال عظيم** يناسب ضخامة الأرض، و يشمل أجزاءها، وذلك للإشعار بهوله، وقد صور لنا الله -تعالى- بعض هذا الهول في أول سورة الحج حيث يقول: ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كلُّ مرضعة عما أرضعت و تضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى و ما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**﴾.

ج- **موافقة أواخر الآيات بعدها**، فهي مختومة بـ "ها " وفي ذلك من الحسن ما لا يخفى، ومثل الآية قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿ **إذا رجت الأرض رجاً** ﴾ الآية4 .

﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾

الأثقال : جمع مفرده ثقل (بكسر الثاء و سكون القاف، أو بفتح الثاء والقاف)، ويطلق على متاع البيت لغلبة الثقل عليه، ومن ذلك قوله -تعالى- في سورة النحل: ﴿ **وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس**﴾ الآية 7. وأثقال الأرض هنا يراد بها - والله أعلم- الأموات المدفونون في بطنها وكنوزها ومعادنها، وعلماء اللغة يقولون: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها و إذا كان فوقها فهو ثقل عليها، ومثل الآية قوله -تعالى-:﴿**و إذا الأرض مدت و ألقت ما فيها وتخلت**﴾ الانشقاق الآيتان 3-4 .

﴿ **وقال الإنسان مالها ؟**﴾

قد يكون المراد بـ "**الإنسان** " الجنس العام الذي يستغرق كل أ فراده مؤمنهم وكافرهم، يقولون في أنفسهم، أو يقول بعضهم لبعض: مالها ؟ أي ما حدث للأرض حتى زلزلت هذا الزلزال؟ وأخرجت هذه الأثقال؟ و ذلك على سبيل التعجب والانبهار، وقد يكون المراد بـ"**الإنسان**" الجنس الخاص وهم الكفار الذين ينكرون بعث الموتى من قبورهم ولا يؤمنون بتجدد الحياة مرة ثانية.

وقد حكى الله لنا مقالتهم يومئذ في سورة يس: ﴿ **قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا**﴾ ؟ فيجابون: ﴿ **هذا ما وعد الرحمن و صدق المرسلون** ﴾ الآية 52.

وفي سورة الصافات أيضا ﴿..**و قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين**﴾الآية 20، يعنون يوم الجزاء على أعمال الدنيا فيجابون ﴿ **هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون**﴾.الآية 21.

﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾

هذه الجملة مع جملة " **يصدر الناس** " هما جواب " **إذا** " في أول السورة ، و" **يومئذ** " ظرف زمان وهو بدل من إذا ،أضيف إلى " **إذ** " التي نونت ليكون التنوين عوضا عن إعادة الجمل السابقة، وذلك من أ جل الاختصار، فتقدير الكلام: يوم إذ تزلزل الأرض زلزالها وتخرج أثقالها و يقول الإنسان مالها ؟ تحدث أخبارها، و الفعل "**تحدث** " ينصب مفعولين مباشرة كما ههنا: المفعول الأول محذوف والمفعول الثاني:"**أخبارها**"، و التقدير : تحدث الناس أخبارها، و قد يتعدى هذا الفعل إلى مفعوله الثاني بواسطة حرف الجر (الباء) فيقال فلانة تحدث الناس بخبرها.

وتحديث الأرض بأخبارها يصدق بأن يودع الله فيها قوة النطق فتشهد على كل إنسان بما عمل على ظهرها، وذلك مصداق ما رواه أحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة ﷺ قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها**﴾ قال:(أتدرون ما أخبارها) ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: (فإن أخبارها أن تشهد

على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها؛ أن تقول: عمل كذا و كذا يوم كذا و كذا فهذه أخبارها).

وخلق النطق في الأرض و هي جماد من جنس إنطاق الله كل شيء كما قال -تعالى- في سورة فصلت: ﴿**ويوم نحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون[1] حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا؟ قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء و هو خلقكم أول مرة و إليه ترجعون**﴾ الآيات 19-21.

و من هذا الباب قوله ﷺ في شأن المؤذن: (إذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولاشيء إلا شهد له يوم القيامة) . رواه مالك و مسلم.

على أن تحديث الأرض بأخبارها يمكن أن يكون تمثيلا لحالها الذي يكاد ينطق بأن أمر الدنيا قد انقضى و أن أمر الآخرة قد أتى، و هذا كقولك: إن هذه الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة، أو هذا الحيوان يحدثنا بأنه جائع ...الخ.

الباء في "**بأن** " سببية، أي أن الأرض تحدث أحاديثها بسبب أن ربك أوحى لها، يقال في اللغة: أوحى له وأوحى إليه -يوحي - إيحاء (في الفعل الرباعي) و وحى -يحي- و حيا (في الثلاثي) أي كلمه كلاماً يخفى عن غيره.

---

1 - يوزعون : يحبس أولهم على آخر هم حتى يجتمعوا كلهم.

فحقيقة (الوحي أو : الإيحاء) إعلام في خفاء بحيث لا يعلمه إلا المخاطب، ولذلك يسمى ما ينزله الله على الأنبياء (وحيا) لأنه يسره إليهم، فلا يطلع عليه غيرهم إلا بواسطتهم .

قال الله -تعالى- في سورة النساء: ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيئين من بعده...**﴾. الآية 163.

و منه ما يلقيه شيطان الجن إلى شيطان الإنس من زخرف القول ، كما قال -تعالى -في سورة الأنعام ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبئ عدوا : شياطين الإنس و الجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا** ﴾ الآية 112.

و منه ما يلهم الله به بعض عباده كقوله -تعالى- في سورة القصص: ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه...**﴾ الآية 7.

و منه إلهام الله لبعض الحيوانات كقوله -تعالى- في سورة النحل: ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا، و من الشجر و مما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذُلُلاً** ﴾. الآيتان 68-69 .

ومنه ما أشار به النبي زكرياء عليه السلام إلى قومه كما قال -تعالى- في سورة مريم: ﴿**فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا**﴾ الآية 11.

أما الإيحاء في هذه السورة المفهوم من مادة أوحى فهو الأمر التكويني الذي يتمثل في قوله -تعالى- للشيء كن، فيكون، و فحواه أن تتعلق الإرادة الإلهية بإيجاد الشيء أو إعدامه ، فيتحقق ما أراده الله حتما، و بخصوص الأرض هنا : شاء الله لها إن تحدث فحدثت ..

﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتا ﴾

"يومئذ" : في ذلك اليوم.

"يصدر الناس" : ينصرفون من قبورهم (و هم أحياء) إلى المحشر؛ وأصل معنى الصادر : الراجع من الماء . و ضده الوارد و هو الآتي إليه و منه البريد الصادر والوارد، و الصادرات من البضائع و الواردات.

و**"أشتاتا"**: جمع تكسير مفرده: شَتٌّ بمعنى متفرق، يقال:جاء القوم أشتاتا أو شَتَاتَ بمعنى: متفرقين، وهذا الشتات قد يكون على حسب الانتماء فتأتي كل أمة على حدة، وقد يكون على حسب السعادة والشقاوة فيكون المؤمنون وحدهم والكافرون كذلك، كقوله -تعالى- في سورة يونس:﴿**ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم** ﴾ الآية28، وقوله تعالى في سورة يس: ﴿**وامتازوا اليوم أيها المجرمون**﴾ الآية59.

و قد يكون الشتات بمعنى أن كل واحد يسير وحده لا يهمه إلا أمر نفسه لشدة الهول في ذلك اليوم ، و الله أعلم .

﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾

اللام : لام التعليل، و (يروا) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل و (واو الجماعة) نائب فاعل لفعل (يرى) المبني للمجهول، وحذف الفاعل لأنه معلوم بالضرورة و هو الله ﷻ.

و المعنى : في يوم القيامة يصدر الناس عن قبورهم وهم أشتات يستجيبون للمنادي الذي يناديهم لموقف الحساب ؛ حيث يطلع كل واحد منهم على عمله الذي سجل له أو عليه في الدنيا ، و يرى الجزاء المترتب عليه.

﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره و من يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾

الفاء : تفريعية ، لأنها فرعت الآيتين بعدها ، و ما فيهما من ترغيب وترهيب على رؤية الناس أعمالهم التي عملوها.

و"من " اسم شرط يجزم فعلين . فعله الأول " **يعمل** " و فعله الثاني " **ير** ".

و المثقال : ما يوزن به الشيء، و الذرة : يطلقها العرب على النملة الصغيرة ، وعلى الهباءة التي تتراءى في ضوء الشمس عندما تدخل من نافذة أو كوة أو باب، و روي عن ابن عباس ﷺ تفسير الذرة بأن تضع كفك على التراب ، ثم ترفعه فما بقي ملتصقا به كل واحدة منه ذرة، والعرب يضربون المثل بالذرة في الصغر والضآلة.

و " **خيرا** " و " **شرا** " كل منهما تمييز. و المميز هو " **مثقال ذرة** " والمعنى أن الذي يفعل الخير – مهما كان ضئيلا فإن الله ﷻ يسجله له و يريه إياه يوم القيامة، و يتلقى جزاءه عليه، و أن الذي يفعل الشر – مهما كان صغيرا فإن الله ﷻ يسجله عليه ، و يريه إياه ، و يتلقى جزاءه عليه.

و مثل الآيتين قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة و إن تك حسنة يضاعفها** ...﴾. الآية 40.

و في الآيتين تحريض على فعل الخير و لو كان قليلا كالثمرة يتصدق بها أو الجوزة ، لأن القليل مع القليل كثير، و فيهما تحذير من فعل الشر و إن كان ضئيلا كالكذبة العابرة و الغيبة الخفيفة ، و تتابع النظر إلى مالا يحل، فصغائر الذنوب إذا تمادى عليها المذنب و لم يحدث لها توبة نصوحا قد تهلكه.

و الجزاء على الخير و الشر بالنسبة للمؤمنين واضح .

و بالنسبة للكافرين : **فهل يجازَون على الخير الذي فعلوه في الدنيا ؟**.

و الجواب: أن الكافر مهما فعل من خير فهو غير مقبول منه ، لأن قبول الأعمال مشروط بوجود الإيمان في القلب، وذلك مصداق قوله –تعالى– في سورة النور: ﴿ **و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمئان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، و وجد الله عنده فوفاه حسابه ، و الله سريع الحساب**﴾. الآية 39.

ولكن هذا لا يمنع تخفيف العذاب عن بعض الكافرين لبعض خصالهم الحميدة، فقد ورد أن أبا طالب يخفف عنه لحمايته النبي من اعتداء قريش عليه.

و في الآيتين تخطئة لمن كانوا يستحيون من الشيء القليل يحسنون به إلى من يستحق الإحسان، و يرون أنه لا ثواب فيه، ولمن كانوا - أيضا - يأتون صغائر الذنوب و يرون أنه لا عقوبة فيها ، إنما العقوبة في كبائر الذنوب.

قال الإمام ابن كثير في تفسيره :روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قول الله-تعالى-: ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾ وذلك لما نزلت هذه الآية ﴿ **و يطعمون الطعام على حبه مسكينا و يتيما وأسيرا** ﴾ الإنسان 8، كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم، فيستقلون أن يعطوه التمرة و الجوزة والكسرة ونحو ذلك فيردونه و يقولون: ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة والنظرة و الغيبة و أشباه ذلك ؛ يقولون:إنما وعد الله النار على الكبائر ، فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر و حذرهم اليسير من الشر ، فإنه يوشك أن يكثر، وذلك قوله:﴿**فمن يعمل مثقال ذرة...**﴾.

واجتهادا من النبي ﷺ في ترسيخ هذا التوجيه الإلهي في القلوب كان يقول: (اتقوا النار و لو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة) رواه البخاري، وكان يقول: (لا

تحقرن من المعروف شيئا و لو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط) رواه البخاري. و يقول: (يا معشر نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة) يعني ظلفها رواه البخاري، و يقول : (ردوا السائل و لو بظلف محرق) رواه البخاري. و عن عائشة-رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: (يا عائشة استتري من النار و لو بشق تمرة ؛ فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان) رواه أحمد، وروى كذلك عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :(إياكم و محقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه)، و أن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، و الرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سوادا ، و أججوا نارا ، وأنضجوا ما قذفوه فيها) .

و تجاوبا مع هذا التوجيه الإلهي الموضح بالتوجيه النبوي صار سلفنا الصالح لا يبالي أن يحسن بما تيسر له قليلا كان أو كثيرا، ولا يتجرأ على الذنب ولو كان صغيرا.

فمما يروى في هذا المقام أن عائشة أم المؤمنين- رضي الله عنها- كان بين يديها عنب فقدمته إلى نسوة بحضرتها ، فجاء سائل فأمرت له بحبة من ذلك العنب فضحك بعض من كان عندها ، فقالت : إن فيما ترون مثاقيل الذرة ، وتلت هذه الآية، قال الإمام الفخر الرازي في تفسيره ، معلقا على تصدق أم المؤمنين بحبة عنب: (و لعلها كان غرضها التعليم، و إلا فهي كانت في غاية

السخاوة ؛ روي أن ابن الزبير بعث إليها بمائة ألف و ثمانين ألف درهم في غرارتين، فدعت بطبق، وجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت : يا جارية فطوري هلمي، فجاءت بخبز و زيت فقيل لها : أما أمسكت لنا درهما نشتري به لحما نفطر عليه؟ فقالت : لو ذكرتني لفعلت .

و روي عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه تصدق بتمرتين ، فقبض السائل يده فقال للسائل : و يقبل الله منا مثاقيل الذر، التمرتان مثاقيل ذر كثيرة.

وكان النبي ﷺ يسمي هذه الآية : الآية الجامعة الفاذة أو الفاذة الجامعة. ومعنى الفاذة : المتفردة -أي في بلاغتها- فليس لها نظير، و معنى الجامعة : الحاوية لمعان كثيرة مع إيجازها -أي قلة ألفاظها- قال ﷺ ذلك لما ذكر ما في الخيل من الأجر الدائم و الثواب المستمر فسئل عن الحمر فأجاب: (ما أنزل الله فيها شيئا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة): ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره و من يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ . و الحديث الشريف وارد في صحيح البخاري.

تـذيـيــلان:

أ. **إنكار البعث**: كان مشركو العرب ينكرون بعث الموتى من قبورهم ويستبعدون إحياءهم مرة ثانية من أجل محاسبتهم على أعمالهم التي كانوا يعملونها في حياتهم الأولى، ومساءلتهم عن مدى استجابتهم لرسوله إليهم من أجل تصحيح معتقداتهم وبشأن إنكار البعث كانوا يقولون: ﴿ **إن هي إلا حياتنا الدنيا**

و ما نحن بمبعوثين﴾ الأنعام 29، و بشأن الرسول ﷺ كانوا يقولون عنه: ﴿ **إن هذا إلا إفك افتراه، و أعانه عليه قوم آخرون**﴾ . الفرقان 4.

وكانوا يسألون خاتم الأنبياء ﷺ والمؤمنين معه عن تعيين وقت قيام الساعة، ولكن سؤالهم لم يكن لطلب العلم بالشيء ثم اعتقاده إنما كان للتهكم والتندر.

و الله –تعالى– كان تارة يحكي مقالتهم في القرآن الكريم و يجيبهم عنها كقوله –تعالى– في سورة النازعات: ﴿**يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها ؟ إلى ربك منتهاها، إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها**﴾ الآيات 42–46.

وبديهي أن إجابتهم هنا كما في سور أخرى لم توافق غرضهم في معرفة وقتها، إنما كانت لإظهار اختصاص علم الله بها.

وكان تارة أخرى يخبر الناس جميعا مؤمنهم و كافرهم عن أمارات تحدث بين يدي الساعة دون ذكر السؤال ، كشأنه تعالى في سورة التكوير والانفطار والانشقاق و غيرهن، ومنها هذه السورة الكريمة سورة الزلزلة .

وكان –أحيانا – يأتي بالأدلة القاطعة على وقوع الحياة الثانية، من ذلك قوله تعالى من سورة فصلت ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير** ﴾ الآية 39.

ب. **عدل الله المطلق**: أثبت الله في هذه السورة عدله المطلق بين الناس في يوم القيامة: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره و من يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ كما أثبته في القرآن الكريم في غير ما سورة .

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ الآية 47.

و لو أننا – معشر المسلمين – طبقنا في مجتمعنا هذا المبدأ العظيم وهو العدل الشامل بحيث ينال كل واحد ما يستحقه من إكرام و تشجيع و حسن جزاء إذا أحسن عمله، و من إهانة و عقوبة و حرمان إن هو أساء عمله دون التفات إلى الروابط النسبية أو المصلحية، إذن لاستقامت الحياة، و ازدهرت الحضارة الروحية و العقلية و المادية، و تدرج الناس في مراقي الكمال المقدر لهم.

ولكنها الأهواء العفنة المنتجة للظلم الاجتماعي الذي يقتل في الإنسان روح المبادرة و الابتكار و يزهد في بذل الجهد في سبيل التطوير و التحسين في كل مجالات الحياة.

وأقرب شاهد على ذلك ما وصل إليه الجانب المادي من الحضارة الإنسانية لدى الأمم الراقية في عصرنا هذا و ذلك بفضل احترام الإنسان وتشجيعه وضمان حقوقه، ولو أن هذه الحضارة ازيَّنت بالدِّين القويم والخلق الكريم لكانت مثالا رائعا للعالمين يجدر بهم احتذاؤه واقتفاؤه في كل مجالاته واتجاهاته.

سورة العاديات

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

هي مكية في رأي بعض الصحابة كابن مسعود وجابر بن زيد وعكرمة (وهو المثبت في المصاحف التي بين أيدينا)،ومدنية عند بعضهم كأنس بن مالك وقتادة وابن عباس، ويؤيد مدنيتها ما روي أنه ﷺ بعث خيلا فمضى شهر لم يأته منهم خبر فنزلت إعلاما له بما حصل منهم.

﴿ والعاديات ضبحا ﴾

الواو: للقسم ، و المقسم هو الله تعالى.

العاديات: جمع مؤنث سالم مفرده: العادية، وهو من العدو بمعنى الجري يقال: عدت الخيل تعدو عدوا فهي عادية أو عاديات أي جاريات. و(**العاديات**) نعت لمنعوت محذوف تقديره: الخيل العاديات. و(**ضبحا**) مفعول مطلق لفعل

محذوف تقديره: تضبح ضبحا، والجملة حالية. والضبح صوت أنفاس الخيل عند عدوها، وهو بخلاف الصهيل والحمحمة. والمعنى أن الله -تعالى- أقسم بالخيل العاديات وهي تضبح ضبحا. والمراد بها الخيل التي يغزو بها المجاهدون في سبيل الله أعداءهم لكسر شوكتهم والدفاع عن دينهم ووطنهم.

وإقسام الله -تعالى- بالخيل العاديات تشريف لها ولفرسانها الذين يغزون بها، وتعظيم لأمر الجهاد في سبيل الله، وحث على اكتساب وسائله، وتوجيه إلى التدريب على الفروسية والمهارة فيها.

﴿ فالموريات قدحا ﴾

الفاء: عاطفة ما بعدها على ما قبلها.

الموريات: جمع مؤنث سالم مفرده المورية وهي اسم فاعل من الإيراء، أي استخراج النار من الحجر الصَوَّان أو غيره، يقال أورى الزند- يوريه - إيراء، فهو مور، وهي مورية، وهن موريات. ولفظ الموريات داخل في حيز القسم.

قدحا: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: تقدح قدحا، والجملة حالية، و(**القدح**) حك جسم على آخر لتشتعل النار؛ كحك عود الكبريت على علبته، وكحك حجر الصَوان على نظيره، والخيل -أيضا- توري النار في عدوها حين تضرب الحجر بحوافرها، وخصوصا إذا كانت منتعلة بالحديد.

﴿ فالمغيرات صبحا ﴾

الفاء: عاطفة و (المغيرات) جمع مؤنث سالم مفرده: المغيرة، وهي اسم فاعل من الإغارة بمعنى الهجوم على قوم ما، يقال: أغارت الخيل -تغير- فهي مغيرة أو مغيرات، ووصف الخيل بالإغارة على سبيل المجاز،و إلا فالإغارة على سبيل الحقيقة يوصف بها الفرسان، وإنما توسعوا في وصف الخيل بالإغارة لأنهم اتخذوها سبباً ووسيلة.

صبحاً: منصوب على الظرفية الزمانية أي في الصبح.

وخصصت الإغارة بالصبح لأن الغزاة كانوا يعدون عدتهم ويسيرون ليلاً حتى لا يشعر بهم العدو، فإذا أقبل الصباح بنوره، بدءوا الهجوم وذلك ليروا ما يفعلون وما يتركون.

﴿ فأثرن به نقعا ﴾

الفاء: عاطفة و **أثرن** فعل ماض، مسند إلى نون الإناث الدالة -هنا- على الخيل العاديات، والفعل هو: أثار بمعنى هيج، يقال: أثارت الريح الغبار.

النقع: الغبار المتصاعد من الأرض.

والضمير في (به) يصح أن يعود إلى (الصبح)، وحينئذ تكون الباء ظرفية بمعنى (في) أي أثارت الخيل العاديات نقعا في وقت الصبح، كما يصح أن يعود إلى (العدو) المفهوم من لفظ (العاديات)، وحينئذ تكون الباء سببية، أي أثارت

العاديات نقعا بسبب عدوها، وقد يعود إلى المكان - وإن لم يسبق له ذكر- لأن العدو لابد أن يكون في مكان.

وقد يقال:لم عُطف الفعل (أثرن) على الاسم (المغيرات) والأصل أن يعطف الاسم على الاسم والفعل على الفعل؟ - والجواب أن (المغيرات) اسم فاعل مشتق من فعله الذي هو (أغار)، والمشتقات تعامل معاملة الأفعال التي اشتقت منها، و (الـ) في (المغيرات) تحمل معنى اسم الموصول، و ما بعدها صلته، فكأنه قيل: أقسم بالخيل اللائي عدون فأورين فأغرن فأثرن فوسطن.

وقد يقال: لم كان العطف بالفاء؟ والجواب أن العطف بالفاء يفيد الترتيب والتعقيب بين المعطوفات وكذلك هنا؛ فتوسط الجمع مرتب على إثارة النقع، وهو مرتب على الإغارة، وهي مرتبة على الإيراء، وهو مرتب على العدو.

﴿ فوسطن به جمعا ﴾

الفاء: عاطفة، **وسطن** : فعل ماض، مسند إلى نون الإناث الدالة على العاديات، يقال: وسط القوم - يسطهم- سطة: إذا توسطهم أي دخل بينهم.

جمعا: جماعة المغزوين، والضمير في (به) يعود إلى العدو المفهوم من العاديات أو إلى الصبح، أو إلى النقع، والمعنى: أن الغزاة اقتحموا بخيلهم وسط أعدائهم.

وتفسير (**العاديات**) بالخيل الغازية و(**جمعا**) بالمغزوين هو التفسير الأصح، أما تفسير (**العاديات**) بالإبل الراجعة من عرفة وهي تحمل الحجيج إلى المزدلفة،

ومنها إلى منى، وتفسير (جمعا) بالمزدلفة فهو تفسير فيه من التكلف ما لا يخفى ونسبته إلى سيدنا علي ﷺ مشكوك فيها ولذلك أعرضت عن الخوض فيه.

وإذا صح أن السورة مكية، فالغرض من ذكر العاديات وما بعدها من صفات هو ترويع قريش المشركة بحيث يجعلها هذا القسم تتخيل غارة من المسلمين تُذل كبرياءهم في يوم ماّ، بتأييد الله الواحد القهار، وقد حصل ذلك يوم فتح مكة.

﴿ إن الإنسان لربه لكنود﴾

هذه الآية و الآيتان بعدها هي جواب القسم، و(الـ) في (**الإنسان**) للجنس الذي يفيد العموم، والمراد به هنا الإنسان الذي لم يخالط الإيمان قلبه، ولم تهذب الشريعة طبعه، فهو من العام الذي أريد به الخاص.

و(**كَنود**) صيغة من صيغ المبالغة، جاءت على وزن (فَعول)، وهي وصف للإنسان الذي يكند نعمة الله عليه، أي يكفرها و يجحدها، ولا يريد أن يعترف بها، ويطلق هذا الوصف أيضا على البخيل الذي لا خير فيه، إطلاقه على الأرض التي لا تنبت شيئاً (و العلاقة بينهما ظاهرة).

واللام في (**لربه**) لام التقوية التي تفيد أن الكنود (بضم الكاف مصدر كند) متمكن في قلب هذا الإنسان، وتقديم الجار والمجرور (**لربه**) على خبر إن (**كنود**) لمراعاة الفواصل، ولزيادة الاهتمام بتقبيح الكُنود، فالإنسان حينما يَكنُد نعمة مثله من البشر يُستقبح ذلك منه، ولكن كنوده لنعمة خالقه أشد قبحا وأعظم إثما.

وكُنود الإنسان لربه يظهر في الكفر بوجوده وفي إشراك غيره معه في عبادته مع أنه هو الذي خلقه ورزقه ورباه، ولا قدرة لغيره من المعبودات الباطلة على هذه الخصال، قال الله -تعالى- في سورة الروم: ﴿ **الله الذي خلقكم، ثم رزقكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء؟ سبحانه و-تعالى- عما يشركون** ﴾ الآية 40.

كما يظهر كنود الإنسان أيضاً في البخل على عباد الله بما رزقه الله؛ فقد عرف رسول الله ﷺ الكنود ببعض صفاته القبيحة ومنها البخل وذلك بقوله ﷺ: (الكَنود هو الذي يأكل وحده ويمنع رفده (أي عطاءه) ويجلد عبده). رواه الترمذي. وكل ما سبق ذكره يرجع إلى الكفر بنعمة الله.

وفائدة تذكير الله للإنسان بهذه الحقيقة الكامنة في نفسه، هي دفعه لمقاومتها والتخلص منها، والتخلق بضدها، وهو شكر أنعم الله عليه قولا وفعلا بتوحيده في ألوهيته و ربوبيته وبالإحسان إلى مخلوقاته.

فاللهم اجعلنا من الشاكرين لأنعمك، عائذين بك من نقمك.

﴿ **وإنه على ذلك لشهيد** ﴾

الضمير في (**إنه**) يعود إلى الإنسان، والإشارة بـ (**ذلك**) إلى الكُنود المفهوم من صيغة (**كَنود**). و(**شهيد**) بمعنى: شاهد ومقر، والمعنى: أن هذا الإنسان شاهد -بأقواله وأفعاله وسائر أحواله- على نفسه بجحود أنعم الله عليه؛ فمن أقواله ما حكاه الله عنه في سورة الزمر حيث يقول: ﴿ **والذين اتخذوا من دونه**

أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ الآية 3، بتقدير (يقولون) قبل (**ما نعبدهم...**).

ومن أقواله ما كان ينطق به في التلبية أثناء أداء مناسك الحج والعمرة (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك)، ومنها إهلاله -عند الذبح أو النحر- لغير الله كقوله (باسم هبل) أو (باسم الآلهة).

ومن أفعاله سجوده للأصنام بعد كل طوفة.

وأحواله وسائر تصرفاته في الدنيا تشهد على كفرانه لفضل الله عليه، وقد أخبرنا الله ﷻ في القرآن الكريم أنه يشهد على نفسه في الآخرة أيضاً بالكفر حيث يقول في سورة الأنعام:﴿ **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين**﴾ الآية 130.

﴿ **وإنه لحب الخير لشديد** ﴾

الضمير في (**إنه**) للإنسان أيضا .

ومن معاني (**الخير**) المال الكثير كما قال --تعالى-- في سورة البقرة:﴿**كتب عليكم - إذا حضر أحدكم الموت: إن ترك خيرًا - الوصية للوالدين والأقربين...**﴾ الآية 180. وحب الإنسان للخير نابع من حبه لنفسه.

و(**شديد**) قد يراد به البخيل، ومثله: المتشدد، وعليه تكون اللام الجارة في (**لحب الخير**) للتعليل، والمعنى: أن الإنسان بخيل لا يكاد ينفق على غيره لأنه يحب المال حباً جماً: يتلذذ بكثرته و رؤيته، ولا يتحرج من قبض يده، وأغلب أغنياء العرب -في جاهليتهم- كانوا ينفقون الكثير، ولكن من أجل السمعة، وفي مجالس

الخمر والقمار، أما الإنفاق على الفقراء والمساكين و الأيتام فقد سجل القرآن العظيم بخلهم به، قال الله -تعالى- في سورة الفجر: ﴿ **كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين، وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حباً جماً** ﴾. الآيات 17-20.

ويصح أن تكون اللام الجارة لام التقوية، والمعنى على هذا: أن الإنسان قوي الحب للمال، أما الفضائل النفسية و الاهتمامات العالية والتجاوب مع الحاجات الإنسانية العامة فهو ضعيف فيها، وتقديم الجار والمجرور في (**لحب الخير**) على خبر إن (**شديد**) للاهتمام ومراعاة الفواصل.

﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور و حصل ما في الصدور** ﴾

الهمزة للاستفهام وهو استفهام إنكاري.

والفاء: تفريعية لأنها فرعت ما بعدها على ما قبلها، أي فرعت عدم علم الإنسان بما يلقاه بعد البعث والنشور على كنوده وشحه، وهي أيضا عاطفة الجملة التي بعدها (**لا يعلم**) على جملة قبلها محذوفة تقديرها مثلا (أيبقى هذا الإنسان على كنوده وشحه فلا يعلم...)؟ ويعلم بمعنى : يعرف و(إذا) ظرف زمان بمعنى وقت لا تقتضي شرطاً و جوابًا.

بعثر ما في القبور : أخرج ما في القبور من أموات وهم أحياء، وهو ما نسميه البعث والنشور، وذلك من أجل الحساب والجزاء المترتب عليه، وأصل البعثرة أو البحثرة (بالحاء) قلب الأشياء بعضها على بعض ونثرها، وهو ما يحصل للقبور

ومن فيها يوم القيامة،ومثل الآية قوله -تعالى- في سورة الانفطار: ﴿ **وإذا القبور بعثرت** ﴾الآية4. وقوله -تعالى- في سورة القمر: ﴿ **يخرجون من الأجداث** (القبور) **كأنهم جراد منتشر**﴾. الآية 7.

وتحصيل ما في الصدور: إحصاء الأسرار التي كان الإنسان يخفيها في داخله وإظهارها له ولغيره حتى لا يسعه إنكارها ولا التملص من خزيها.

واعلم -أيها اللبيب- أن مفعول (**يعلم**) محذوف يسهل تقديره في الذهن، ويمكن توضيح المعنى على هذا النحو: أيستمر الإنسان على فعله القبيح في الدنيا، فلا يعرف مجازاتنا إياه يوم يخرج الناس من قبورهم وتفضح نواياهم ويكشف سوء عملهم؟، فلفظ (مُجَازاة) المقدر هو مفعول (يعلم).

﴿ **إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾

و الضمير في (**ربهم**) و(**بهم**) يعود إلى المبعوثين من قبورهم.

و الجار والمجرور في (**بهم**) والظرف في (**يومئذ**) يتعلقان بخبر إن (**خبير**)، وخبير بمعني عليم.

وأصل التركيب: إن ربهم لخبير بهم يومئذ، وإنما قدم الجار والمجرور والظرف على عاملهما للاهتمام بهما، ومراعاة الفواصل.

وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال مؤداه: **وهل كان الله غير خبير بهم قبل يوم القيامة؟** والجواب: أن الله خبير بعباده دائما وفي أية لحظة من لحظات الدنيا والآخرة، ولكن خبرته بهم في الآخرة يراد بها الخبرة التي يترتب عليها الجزاء

العادل، فكأنه قيل: إن ربهم سوف يجازيهم في يوم القيامة الجزاء الذي يستحقه كل واحد منهم بمقتضى خبرته الدقيقة التي لا يند عنها شيء . والله أعلم.

حقـائـق في الإنـسـان:

من الحقائق التي لا جدال فيها أن حب المال، والشح به، والحرص على جمعه، والتعلق به، والاستجابة لمتع الحياة التي تنال به من الفطر التي فطر عليها الإنسان منذ وجد على وجه الأرض؛ فهو لا ينال نصيبا منه حتى يتشوق إلى الزيادة عليه، وصدق الله العظيم في قوله في هذه السورة ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود و إنه على ذلك لشهيد، وإنه لحب الخير لشديد** }، وقوله في سورة آل عمران: ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبَنينَ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب**﴾ الآية 14،وصدق رسوله الكريم في قوله:(لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى أن يكون له ثالث). رواه الشيخان.

وكسب المال، والتمتع بما يوفره من رغبات ليس عيبا في حد ذاته إذا كانت وسائل كسبه مشروعة، وكان إنفاقه في الوجوه المشروعة بل تواترت النصوص الشرعية في تحسين كسبه، والترغيب في تحصيله، قال -تعالى- في سورة المزمل: ﴿...**وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله** ﴾ الآية 20.

والذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله هم : المسافرون التجار الذين يرغبون في تنمية مالهم بواسطة التجارة، خفف الله عنهم التهجد (العبادة

ليلا) ليكونوا أكثر قوة في النهار على التصرف، شأنهم في ذلك شأن الذين يقاتلون في سبيل الله وقال ﷺ : (ما أكل أحد طعاما - قط- خيراً من أن يأكل من عمل يده، و إن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده). رواه البخاري.

والإسلام قد حث المسلمين كثيرا على بذل المال في سبيل الله، ومن أين يكون البذل إذا لم يكن هناك مال محصل؟

إنما العيب في أن يُحَولَ هذا المال إلى غاية مقصودة في حد ذاتها بدلا من بقائه وسيلة إلى تحقيق المقاصد الشريفة، لأن المال إذا علق حبه بشغاف القلب أعماه عن إدراك الفرق بين وجوه الحلال و وجوه الحرام، وأنساه أنعم الله عليه فيبخل بأداء حقوق الخالق العظيم، وحقوق المخلوق الضعيف وحقوق نفسه وحقوق من تجب عليه مئونتهم شرعا وحقوق إخوانه المحتاجين من المؤمنين والمؤمنات، ثم حقوق الوطن وما يقتضيه من مشاريع نافعة للكل، وقد تجمح بهذا الإنسان وفرة المال إلى الطغيان والظلم والتسلط والاستعلاء والاستغلال والانحراف والرغبة في استعباد عباد الله وشراء ضمائرهم وتسخيرهم، وإلحاق الضرر البالغ بمن يأنف من السير في ركابه، أو لم يخضع لسلطانه، وإذا تكاثر هذا النموذج البشري في مجتمع ما فعلى الوطن والمواطنين السلام إذ الأكثرية الساحقة تصبح قطيعا سائرا إلى حيث تريد الأقلية الضاغطة بيالها، شعرت أم لم تشعر، أرادت أم لم ترد،وذلك بفعل السيطرة على موارد الرزق والاستحواذ على مصادر القوة المادية الجبارة، وحينئذ تنقلب الأحوال والأوضاع، فتكون قيمتك أيها الإنسان العادي على

حسب ما تبذله من شرفك، ويزداد قربك أو بعدك وفق ما تتنازل عنه من مبادئك الدينية والخلقية والعياذ بالله.

أما شيء يقال له التملق فلا شأن له بالتقريب و لا بالتبعيد ولا بالرفع ولا بالخفض، لأن أفاضل الناس وأدنياءهم متفقون على أن المتملق كلب بشري يبصبص بلسانه كما يبصبص الكلب الحيواني بذنَبه يرضيه النزر من الطعام أوالقليل من الابتسام ولا يطمع في أي شيء من الإكرام.

ومن الحكم الربانية في تحبيب المال إلى النفوس، أن يختبر الله به ما فيها من شكران أو كفران، ومن إنفاق في وجوه الخير أو إمساك، ومن تعمير أو تدمير، ومن استخدامه في الطاعات أو الموبقات وعلى نوعية الاتجاه يكون الجزاء، وبما أن المال قد يكون لك أيها المسلم وقد يكون عليك، فإن أنجع دواء يساعدك على أن يكون لك لا عليك أن تتأمل في قوله -تعالى- ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق**﴾ سورة النحل 96،وفي قوله ﷺ : (إن روح القدس قد نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب). رواه ابن ماجه.

والإجمال في طلب الدنيا يعني الاعتدال فيه والله أعلم.

سورة القارعة

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

هي مكية اتفاقاً، وعدد آيتها إحدى عشرة.

﴿ القارعة ﴾

القارعة : اسم فاعل من قرع، يقال قَرَع الشيء بالشيء إذا ضربه به فأحدث صوتا مدويا، وتطلق أيضا على الحادثة العظيمة، يقول العرب في لسانهم: قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفاقرة: إذا نزل بهم أمر فظيع، ومن ذلك قوله -تعالى- في سورة الرعد: ﴿**ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة...**﴾ الآية31، وقوله في سورة القيامة: ﴿**ووجوه يومئذ باسرة**[1] **تظن أن يفعل بها فاقرة**[2]﴾ الآيتان 24-25. والمراد بـ(**القارعة**) هنا يوم القيامة كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية والواقعة والآزفة والساعة.

---

1 - باسرة: كالحة شديدة العبوس.

2 - فاقرة: داهية عظيمة كأنها تكسر فقار الظهر.

ووجه تسميتها بـ(القارعة)، أنها تقرع القلوب والأسماع بهولها، وهي إما مبتدأ خبره محذوف تقديره-مثلا- القارعة قريبة، وإما فاعل محذوف الفعل الذي عمل فيه الرفع، تقديره -مثلاً- أتت القارعة.

والإتيان بها -هكذا- مفردة "بدون تركيب في جملة" لتعجيل التنبيه إلى خطرها، كما يحذر أحدنا غيره بقوله: "الأسد، الأسد" أو "الثعبان، الثعبان"، والقارعة التي تنشق لها السماء، وتتبدل الأرض، وتتفتت الجبال، وتنتثر الكواكب، وتكور الشمس، وتسجر البحار، وتحشر الوحوش، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، ويظهر الناس عندها كأنهم سكارى وما هم بسكارى، خليقة بأن ترهب وأن يفكر في النجاة مما يعقبها.

﴿ما القارعة﴾

ما: اسم استفهام يقصد به الترويع بالقارعة، والتشويق إلى معرفتها، أي ما هي؟ والجملة مركبة من مبتدأ وخبر.

﴿وما أدراك ما القارعة﴾

ما: في الموضعين من الآية استفهامية تصدق على شيء ما.

أدراك: أعلمك، والخطاب موجه لكل من يصلح للخطاب، والمعنى: وأي شيء أعلمك ما هي القارعة؟ فأنت أيها المخاطب لا تستطيع تصورها وأنَّى لك أدراك حقيقتها؟

ويراد بالآية المزيد من تهويل القارعة، ومثلها في ذلك ﴿**الحاقة، ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة**﴾.

﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث** ﴾

هذه الآية بيان للإبهام الواقع في آيتي ﴿**ما القارعة**﴾ و﴿ **ما أدراك ما القارعة**﴾، لأن تقدير الكلام: تقرع القارعة، أو تحصل حين يكون الناس كالفراش المبثوث...وهو بيان لبعض أحوالها وليس بيانا لحقيقتها.

الفَراش: ما يطير من الحشرات التي نراها ليلا تحوم حول السرج،ويضرب به المثل في الطيش، يقال: هو أطيش من فراشة.

المبثوث: المتفرق المنتشر،"شبه الناس-عند خروجهم من قبورهم- بالفرَاش" ووجه الشبه بينهم وبين الفراش الانتشار والذهاب والمجيء والاضطراب والضعف؛ فالناس في ذلك اليوم يكونون هائمين لا يدرون أين يتجهون، ولا يعلمون ماذا يصنعون، ولا ماذا يصنع بهم.

وقد شبههم الله -تعالى- في سورة القمر بالجراد المنتشر، حيث قال:﴿**يوم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع، يقول الكافرون هذا يوم عسر**﴾ الآيتان 7-8، وذلك حين يُدْعون إلى المحشر من أجل الحساب، الذي يترتب عليه الجزاء على أعمال الدنيا، ووجه الشبه بين الناس والجراد في ذلك اليوم الكثرة والتتابع. ومما يجب الاتعاظ به في هذا المقام ما رواه مسلم-رحمه الله- عن جابر ﷺ عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل

الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحُجَزِكم[1] عن النار، وأنتم تفلتون من يدي).

﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾

العهن: الصوف ذو الألوان، والتعبير به يتناسب مع الجبال المختلفة الألوان، قال الله -تعالى- في سورة فاطر ﴿...**ومن الجبال جُدَدٌ**[2] **بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب**[3] **سود...**﴾. الآية27.

المنفوش: المندوف، أي المضروب بالمنداف لتتفرق أجزاؤه وبذلك يكون خفيفا جداً، ووجه الشبه بين الجبال والعهن خفة الوزن واختلاف الألوان، وقد تكرر في القرآن الكريم وصف الجبال يوم القيامة، من ذلك قوله-تعالى- في سورة الواقعة: ﴿ **وبست**[4] **الجبال بساً فكانت هباء منبثاً**[5] ﴾ الآيتان 5-6، وقوله في سورة النبأ: ﴿**وسيرت الجبال فكانت سرابا**﴾ الآية 20، وقوله في سورة المزمل:﴿**يوم ترجف الأرض والجبال، وكانت الجبال كثيبا مهيلا** ﴾ الآية 14.

ووجه الجمع بين حال الناس وحال الجبال أن الجبال -على صلابتها وضخامتها- تتأثر بالقارعة، **فما بال الناس على ضعفهم وضآلتهم؟**

---

1 - حجزكم: الحجزة هي معقد الإزار

2 - جدد: جمع جده و هي الطريقة والخطة في الشيء تكون واضحة فيه.

3 - غرابيب: شديدة السواد

4 - بمعنى فتتت.

5 - منبثا: متفرقاً.

﴿ **فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية** ﴾

لفظ (**الناس**) في الآية السابقة عام يشمل السعداء منهم والأشقياء، فجاءت الآيات بعده تفصل وتبين أن هؤلاء الناس في يوم القيامة **فريقان**: فريق حسنت أعمالهم في الدنيا فهم في الآخرة سعداء، وفريق ساءت أعمالهم فهم أشقياء، كقوله -تعالى- في سورة الروم: ﴿**ويوم تقوم الساعة -يومئذ- يتفرقون: فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون**﴾ الآيات 14-16.

وثقل الموازين كناية عن كثرة الحسنات، وخفتها كناية عن التجرد منها أو قلتها، والعرب يقولون عمن كثرت فضائله، واشتهرت خصاله،وعظم قدره، فلان له وزن، أو له وزنه، أو يقام له وزن، وفيمن خلا من ذلك، لا وزن له أو لا يقام له وزن، ومن ذلك قوله -تعالى- في سورة الكهف:﴿ ...**فحبطت أعمالهم، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا**﴾ الآية 105.

ويمكن أن يراد بالموازين الموزونات أي من ثقلت موزوناته، ومن خفت موزوناته، أما كيفية الوزن وماهية الميزان فلا يعلمها إلا الله ﷻ، ولا ينبغي أن نضيع الوقت في البحث عن تصورات لم يرد بتوضيحها قرآن كريم ولا حديث شريف صحيح، وليس لنا من القدرة الذهنية ما يمكننا من تخيل حقائق هي في عالم الغيب، وقصارى ما يجب أن نعلمه أن الله ﷻ يقدر لكل عمل في الدنيا جزاء وفاقا له في الآخرة بمقتضى علمه الواسع الذي لا يند عنه شيء لا يحابي أحداً ولا

يبخس له حقاً، قال -تعالى-:﴿**والوزن -يومئذ الحقّ؛ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون**﴾ الأعراف 8-9،وقوله أيضاً: ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾ الكهف 49.

ومما يؤيد هذا المذهب أن الناس قد اخترعوا لأنفسهم في دنياهم هذه موازين لا عهد للأولين بها، ولا علم لهم بكيفياتها؛ فهذا ميزان للحرارة، وهذا لضغط الدم وهذا لغير ذلك، على أن الحسنات والسيئات أمور معنوية توزن بموازين من جنسها لا مطمع لنا في إدراكها بعقولنا، بله حواسَّنا.

عيشة : اسم مصدر من العيش الذي هو الحياة، و **راضية**: صفة لـ **عيشة**.

و وصف العيشة بالرضا على سبيل المجاز، و إلا فإن العيشة لا توصف بالرضا ولا بعدمه، وإنما الذي يوصف بذلك صاحبها؛ فالمعنى أن الذي ثقلت موازينه يكون راضياً بجزائه عند الله -تعالى- في الجنة (جعلنا الله من أهلها).

﴿**و أما من خفت موازينه فأمه هاوية**﴾

هاوية: اسم لنار جهنم سميت به لبعد مهواها، لأن الهاوية في اللغة الوهدة[1] العميقة، والنار دركات (إلى أسفل) والجنة درجات (إلى الأعلى).

أمه: يراد بها -والله أعلم- المعنى المجازي أي: هو يأوي إلى الهاوية كما كان يأوي إلى أمه التي ولدته وهذا على سبيل التهكم به.

---

1 - الوهدة: الهوة

﴿ وما أدراك ما هيه نار حاميه﴾

ما أدراك ما هيه: فيها تهويل كما سبق، والضمير، (**هي**) عائد على (**هاوية**)، والهاء هاء السكت التي تجلب لتخفيف اللفظ عند الوقف عليه وتلحق الأسماء المبنية والحروف مثل: هُوَهْ -ثـمَّهْ- كَيْفَهْ-لـمَـهْ-عَلاَمَه...الخ.

نار حاميه : هي بيان للجملة التي قبلها، وجواب عن الاستفهام فيها، و(**حامية**) حارة و وصفها بالحَمي مع أن نار الدنيا كذلك حامية للإيحاء بأن نار الدنيا كأنها ليست حامية بالنسبة إلى نار الآخرة.

اللهم وفقنا إلى ما يثقل عندك موازيننا، وأنعم علينا بالعيشة الراضية، واعصمنا مما يخفف عندك موازيننا، واحمنا من النار-آمين-.

والمستفاد من ذكر مشاهد القيامة و موازينها في هذه السورة أن الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية الجديرة بالسعي إليها للفوز بالسعادة الأبدية، قال -تعالى- في سورة العنكبوت : ﴿ **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**﴾ **الآية**64، والحيوان معناه الحياة العظمى.

وقال -تعالى- في سورة الإسراء: ﴿...**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً**﴾ الآية 19.

فالميزان الحق هو ما قرره الشرع ،وجعله ميزاناً لحقّية الاعتبار في الدنيا والآخرة دون ما اخترعه الناس لأنفسهم من موازين في هذه الحياة، كميزان الحسب، والنسب والجاه والمنصب والثروة واللون، أو ما توهمه الجهال من اعتبار

الاعتزال وادعاء الكرامات للبُلْه ورثاثة اللباس والتمسكن المزيف؛ مظنة الصلاح والتقوى والولاية ولو انتهكت حرمات الدين وضيعت فروضه، كترك صلاة الجمعة والجماعة والاختلاء بالنساء.

ورحم الله الإمام الأخضري حين يقول:

و إن رأيت رجلا يطـــــير وفوق ماء البحر قد يســـير

ولم يقف عند حدود الشرع فإنه مستدرج أو بدعـــي

سورة التكاثر

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

هي سورة مكية عند جميع المفسرين، وروى البخاري أنها مدنية، وعدد آياتها ثمان.

﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾

ألهاكم: شغلكم، يقال لهي عن كذا يلهى لهيانا إذا اشتغل بغيره وغفل عنه وألهاه غيره: إذا جعله يغفل عنه، و الخطاب للمشركين.

التكاثر: بزنة التفاعل معناه التفاخر والتباهي بالكثرة أي كثرة الأموال والأولاد والمناقب[1] ومباهج الحياة، كأن يقول كل للآخر: أنا أكثر منك مالا، أوولدا أو مناقب، و قبيلتنا مآثرها أكثر من قبيلتكم، إلى آخر ما هنالك من الشئون

1- المناقب: جمع تكسير مفرده المنقبة، وهي كل فعل حميد.

التي لا يليق بالعقلاء التلهي بها، لأنها لا تغنى عن صاحبها شيئا يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ومن أقوال المشركين ما حكاه الله -تعالى- في القرآن الكريم حيث يقول في سورة سبأ : ﴿**و قالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين**﴾. الآية 35.

و في قصة الرجلين اللذين ضربهما الله لنا مثلا، في سورة الكهف- عبرة لمن أراد أن يعتبر: ﴿... **قال لصاحبه و هو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا** ...﴾ الآية 34. اقرأ القصة كاملة إن أردت.

وعن أي شيء ألهاهم التكاثر؟ عن دعوة الحق التي جاءهم بها النبي محمد بن عبد الله عليه الصلاة و السلام، وعن التفكير في مصيرهم بعد الموت.

المقابر: جمع المقبرة - بفتح الباء و ضمها- و هي الأماكن المخصصة للقبور، وزيارتها: كناية عن حمل الأموات إليها ليدفنوا فيها.

واختيار التعبير عن الموت بزيارة القبور يوحي بأن الأموات لا يبقون في قبورهم إلى ما لا نهاية له: فكما أن الزائر لا يلبث عند مزوره إلا مدة قصيرة يعود بعدها إلى منزله، كذلك الميت يبقى في قبره مدة يعلمها الله، ثم يبعث منه فيصير إلى منزله المعد له في الجنة أو في النار على حسب قربه من الله، بطاعته إياه في الدنيا، أو بعده منه بعصيانه فيها.

والكناية عن الموت بزيارة القبور شائعة في لسان العرب.

قال الشاعر جرير:

زار القبور أبو مالك فأصبح الأم زوارها[1]

وذُكر أن بعض الأعراب سمع رجلا يتلو هذه الآية فقال: " بُعثوا ورب الكعبة" فقيل له في ذلك، فقال: "لأن الزائر لا بد أن يرحل".

وجاء في صحيح البخاري أن الرسول ﷺ دخل على رجل من الأعراب يزوره فقال: (**لا بأس، طهور أن شاء الله**) فقال : قلت: طهور ! بل هي حمى تفور على شيخ كبير، تُزيره القبور، قال ﷺ: (**فنعم إذن**).

و في الآيتين توبيخ للمشركين وتحذير لهم من مغبة افتتانهم بالدنيا، فكأنه يناديهم قائلا لهم: أيها المخدوعون قد شغلكم التفاخر بأعراض الحياة الدنيا، وألهاكم الفاني عن الباقي، حتى فنيت أعماركم، و حملتم إلى قبوركم.

والتحذير في السورة – وإن كان للمشركين- فإن المؤمنين لا يعفون منه إذا فعلوا فعلهم، وتخلقوا بأخلاقهم، وعلماؤنا يقولون: كل آية وردت في حق الكفار تسحب بذيلها على عصاه المؤمنين، قال الله -تعالى- في سورة المنافقون: ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون**﴾ الآية 09.

1- الأم زوارها: أقبح زائريها

وقال ﷺ فيما يرويه مسلم عن أبي هريرة ﷺ: (**يقول العبد: مالي، مالي، و إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب و تاركه للناس**).

و يصور لنا رسول الله ﷺ طبيعة الإنسان في تعامله مع المال -إن لم يكن له وازع ديني- و ذلك فيما يرويه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ: (**لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، و يتوب الله على من تاب**).

ويفهم من الآية الكريمة، ومن الأحاديث الشريفة أن للتكاثر معنى آخر مذموماً و هو أن يحرص الإنسان حرصا شديداً على جمع المال، و تقوية الأنصار، و اتساع الجاه، ليكون في ذلك أكثر من غيره، بدلا من الاستباق إلى الخيرات، والمسارعة إلى فضائل الأعمال، كما قال ﷻ في سورة البقرة: ﴿ **ولكل وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات**﴾ الآية 148. وفي سورة آل عمران: ﴿**سارعوا إلى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها السموات و الأرض، أعدت للمتقين**﴾ الآية 133

و من البداهة أن مصب الذم في الآية الكريمة إنما هو على الكثرة التي تلهي عن ذكر الله، و تثبط عن القيام بالواجبات الشرعية، والتفكير في المصير الذي يصبو إليه البشر، أما طلب الدنيا باعتدال وتنمية المال من الوجوه الشرعية، وتكثير الأولاد والأنصار لخدمة الأغراض السامية، ونصرة الحق، والتمتع بكل

ذلك في حدود الحلال فهو من المطالب الدينية التي لا يتنازع فيها عاقلان، والنصوص الشرعية التي وردت في هذا الشأن كثيرة منها قوله ﷺ: **(تزوجوا الودود[1] الولود، فإني مكاثر بكم الأمم)**. رواه أبوداود و النسائي و الحاكم.

وقوله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد: **(لا بأس بالغنى لمن اتقى الله)**؛ قال ذلك عندما خاض الناس في ذكر الغنى، ومنها قوله -تعالى- في سورة الأعراف: ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾ الآية32، إلى آخر ما هنالك من نصوص متضافرة...

بعد الحديث عن زيارة الأموات للمقابر، وذلك كناية عن الموت، كأني بالقارئ الكريم يتساءل عن حكم الشريعة الإسلامية في زيارة الأحياء للقبور، والجواب: أن النبي ﷺ نهى المسلمين - في أول الأمر- عن زيارة القبور، ثم أذن فيها. وما السر في منعهم أولا، ثم الإذن لهم ثانيا ؟

لعل السبب في ذلك - و الله أعلم- أن القوم كانوا حديثي عهد بالإسلام فخاف رسول الله ﷺ على المسلمين أن يشوب عقيدتهم شيء من شرك الجاهلية إن هم زاروا المقابر وسمعوا وشاهدوا ما يفعله الجاهلون هناك من تصرفات ينبذها

1 - الودود: كثيرة المحبة لزوجها.

الإسلام نبذا ويحصن المسلمين من تسرب آثارها المنتنة إلى نفوسهم، فلما رسخت عقيدة التوحيد فيهم واطمأن إلى عمق إيمانهم أذن لهم فيها.

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال:قال رسول الله ﷺ : **(إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة)**.

والظاهر أن العبرة المذكورة في هذا الحديث الشريف يراد بها التزهيد في الدنيا و تذكير الآخرة كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه ابن ماجة عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد في الدنيا و تذكر الآخرة)**.

والأحاديث الشريفة متضافرة على الترخيص للرجال في زيارة القبور والترغيب فيها.

و لكن هل يشمل هذا الترخيص النساء؟

الراجح أنه يشملهن بدليل ما روي عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وقد ذكر لها رسول الله ﷺ السلام على أهل البقيع فقالت : و ماذا أقول يا رسول الله إن أنا زرت القبور ؟ قال: (قولي : السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم لنا فرط[1]، و إنا بكم لاحقون، اللهم لا تحرمنا أجرهم، و لا تفتنا بعدهم).

---

1 - فرط: سابقون

فتعليمها ما تقول أثناء زيارة القبور إقرار لها، و للنساء بعدها على زيارة القبور، وكذلك ما روي من مرور رسول الله ﷺ على امرأة وهي تبكي على قبر فكلمها، فقالت: إليك عني -وهي لا تعلم من هو- فلما ذهب عنها قيل لها: إنه رسول الله ﷺ ! فجاءته تعتذر فقال لها: (**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**)، ولم ينهها عن زيارة القبور لا قبلا و لا بعدا، و إنما كان نهيها عن النياحة لا غير.

و ما ورد من الأحاديث الشريفة التي ترهب النساء من زيارة القبور يحمل على الزيارة التي لا تتفق مع آداب الإسلام؛ كاختلاط النساء بالرجال، سواء أفي تشييع الجنازة أم في المقبرة، روي عن علي ﷺ قال: **خرج رسول الله ﷺ فإذا نسوة جلوس، قال: ما يجلسكن؟ قلن: ننتظر الجنازة، قال: هل تُغَسِّلْنَ؟ قلن: لا، قال هل تحملن ؟ قلن:لا، قال: هل تدلين فيمن يدلي ؟ قلن:لا، قال: فارجعن مأزورات غير مأجورات**). رواه ابن ماجة. ومثل ذلك تعطر النساء وتطيبهن في خروجهن وسفورهن، لأن ذلك أدعى إلى الفتنة التي يحذر منها الإسلام، و من ذلك تعطير القبور وتبخيرها وكسوتها لأن ذلك من الإسراف المنهي عنه شرعا والميت -قطعا- لا ينتفع بهذا التصرف الأحمق.

ومن ذلك كثرة التردد على المقبرة، و تفويت مصالح محققة للأزواج بهذه الزيارات، و من ذلك عكوف النساء عند بعض الأضرحة، والتمسح بمواد البناء فيها بقصد التبرك بها، و هو قصد سخيف لا يتناسب مع فحوى الشريعة، ومن

ذلك اتخاذ السُرج على القبور، فقد لعن رسول الله ﷺ زوّارات القبور والمتخذات عليهن السُرج.

وأخيرا النياحة على الميت، و لا يختص منعها بالمقبرة...

ومما له علاقة بزيارة الجاهليين تقديم القرابين لبعض الأموات، وإقامة الولائم والحفلات عند القبور، و في ذلك مخالفة شرعية ظاهرة لكل مبصر، على أن هناك آدابا إسلامية عامة يطالب بمراعاتها الرجال و النساء على حد سواء، منها :

- تجنب اللهو و العبث في المقبرة.
- الامتناع عن الأكل فيها.
- احترام القبور بعدم الجلوس عليها والمشي فوقها.
- الترحم على الأموات والاستغفار لهم.
- عدم التوسل بالميت لقضاء الحاجات، فلا قدرة له على ذلك، لأنه في مقام عجز واحتياج لغيره.
- و عدم الطواف ببعض القبور كما يفعله الجهال، وهو صنيع يخدش عقيدة التوحيد، و يشوبها بالشرك والعياذ بالله! على أنه من المبتدعات المنكرة في الدين!

﴿كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون﴾

كلا: حرف زجر وردع، أي انزجروا وكفوا عن التلهي بمتاع الدنيا، وفكروا فيما ينجيكم من تبعات أعمالكم.

سوف: تدخل على الفعل المضارع فتمحضه للدلالة على المستقبل البعيد، وهذا التسويف الذي تفيده (سوف) يتفق مع إمهال الله المجرمين علهم يتوبون، حتى إذا لم يكفوا عن عبثهم إلى أن زاروا القبور -أي ماتوا- حاق بهم سوء العذاب، ثم يذوقون يوم القيامة أشد العقاب، وحذف مفعول (تعلمون) في الآيتين لسهولة تقديره في ذهن القارئ المتأمل، كأن يقدره مثلا: تعلمون عاقبة اشتغالكم بالتكاثر.

والآيتان تحملان تهديدا على تهديد من أجل التغليظ عليهم و إيقاظ ضمائرهم.

﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾

علم اليقين : هو العلم المطابق للواقع الذي لا يشوبه شك، يقال في اللغة: يَقِن الشيءَ، وأيقنه، وتيقنه، واستيقنه: إذا تحققه وجزم به، فهو يقِن ، ومُوقن، ومتيقن، ومستيقن.

وقد تكرر استعمال مشتقات (يقن) في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى في سورة النمل: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً و علواً**..﴾ الآية14، وفي

سورة الذاريات: ﴿ **و في الأرض آيات للموقنين**﴾ الآية 20، وفي سورة النساء: ﴿**وما قتلوه يقينا**﴾ الآية 157.

وإضافة (علم) إلى (اليقين) من إضافة الموصوف إلى صفته، أي تعلمون (علماً يقينياً).

لو: أداة شرط، فعل شرطها (تعلمون)، وجواب شرطها محذوف.

و ما الحكمة في حذفه؟

هي تهويل الأمر على المخاطبين؛ وذلك لتذهب نفوسهم في تقديره كل مذهب ممكن، وعلى سبيل المثال يمكن أن نقدره هكذا لو تعلمون-في حاضركم- عاقبة ما أنتم عليه لتبين لكم هول ما ينتظركم في مستقبلكم)، ففعل (تبين) المحذوف هو جواب (لو)، وحذف جواب (لو) معهود في القرآن الكريم، من ذلك قوله -تعالى- في سورة الأنعام: ﴿**ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا و نكون من المؤمنين**﴾ الآية 27، ويمكن أن يكون في استعمال (لو) إشارة إلى أنهم لا يريدون أن يعلموا، ولو أرادوا لوجدوا في كتاب الله ما يحصل لهم به اليقين.

﴿ لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين﴾

اللام في (لترون) واقعة في جواب قسم محذوف، تقديره: أُقسم لترون...

والنون في آخر الفعل نون التوكيد الثقيلة، وهي نونان أدغمت إحداهما في الأخرى، وأصل الفعل ترون (بنون الرفع)، فلما أكد التقى ثلاث نونات، فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، فالتقى ساكنان : الواو ونون التوكيد، فحركت الواو بالضمة لتجنب التقاء الساكنين.

الجحيم: من أسماء النار - أعاذنا الله وإياكم منها- ورؤيتها كناية عن الوقوع فيها.

عين اليقين: العلم الثابت الذي يرى بالعين بحيث لا يبقى معه شك.

ولفظ (عين) صفة لمصدر محذوف، تقديره : لترونها رؤية هي عين اليقين وجعلت الرؤية عين اليقين، أي اليقين نفسه على سبيل المبالغة.

ومما يلاحظه متتبع القرآن الكريم أن ثلاثة ألفاظ فيه أضيفت إلى لفظ اليقين، هي: (علم) و(عين) وهما في هذه السورة، و(حق) وهو في سورة الواقعة، عند قوله -تعالى-: ﴿ إن هذا لهو حق اليقين﴾ الأية95، و الفرق بينها، أن علم اليقين هو إدراك الشيء بالعقل دون مشاهدة، وأن عين اليقين هو إدراك الشيء بالمعاينة، وهو أبلغ من الأول في الإدراك، وأن حق اليقين هو إدراك الشيء

بالممازجة والملامسة؛ كالموت يحس الإنسان سريانه في جسمه، أو كوجوده في مكان ما، وهو أبلغ من الثاني في الإحساس، فجاءت كل لفظة في مقامها المناسب.

والآية الثانية توكيد للآية الأولى، و هما جواب عن سؤال يثيره في النفس ما في الآيات السابقة من زجر وتهديد، فكأن السامع يتساءل عما يترتب على هذا التهديد الشديد، فأجيب بأنه الجحيم يعاني حرها الشديد أولئك المجرمون.

﴿ **ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم** ﴾

هذه الآية معطوفة على ما قبلها، تحمل تهديدا بعد تهديد و (**يومئذ**) يعني يوم القيامة، و(**النعيم**): كل ما يتنعم به الإنسان و يتلذذ -من مأكول ومشروب وملبوس ومفروش ومركوب ومال وولد وصحة وأمن-

والسؤال سؤال محاسبة، و السائل هو الله ﷻ ، والمسئولون هنا هم المشركون حسبما يدل عليه السياق، يسألون هل شكروا النعم التي أنعم الله بها عليهم أو كفروها؟ وهل تمتعوا بها في حدود ما أحله الله أو تجاوزوها إلى المحرمات؟ وهل أدوا منها حقوق الله وحقوق عباده أو شحوا بذلك.

والآية لا تنفي سؤال المؤمنين أيضا؛ فقد ثبت في السنة أنهم يسألون، بيد أن سؤالهم سؤال تشريف وإكرام يترتب عليه الثواب بينما سؤال الكافرين سؤال إهانة وتوبيخ يترتب عليه العقاب.

فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: (ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟)، قالا : الجوع يا رسول الله، قال : (وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما)، فقاما معه، فأتى رجلا من الأنصار (هو أبو الهيثم مالك ابن التيهان) فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبا وأهلا، فقال لها رسول الله ﷺ: (أين فلان؟) قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء[1] ، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله! ما أحدٌ اليوم أكرم مني أضيافا، قال: فانطلق فجاءهم بعذق[2] فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذه، فقال النبي ﷺ : (ألا كنت اجتنيت[3] ؟) فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ المُديَةَ، فقال رسول الله ﷺ : (إياك والحلوب). فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، وشربوا. فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ : (لأبي بكر وعمر: (والذي نفسي بيده لتسئلن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة؛ أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم).

وروى الترمذي عن الزبير بن العوام أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم** ﴾، قال الناس يا رسول الله: عن أي النعيم نسأل، وإنما هما الأسودان، و العدو حاضر، وسيوفنا على عواتقنا؟ قال :(أما إنه سيكون).

---

1 – يستعذب لنا من الماء: يأتينا بالماء العذب

2 – العذق: العذق من التمر كالعنقود من العنب

3 – اجتنيت: اقتطفت

و روي عن عمر ﷺ انه قال: أي نعيم نسأل عنه يا رسول الله، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال رسول الله ﷺ :(**ظلال المساكن والأشجار والأخبية التي تقيكم الحر والبرد والماء البارد في اليوم الحار**).

اللهم ارفع هِممنا عن المكاثرة بزخارف الدنيا، واشغلنا بما يبقى عما يفنى، ويسر حسابنا يوم لقائك، واجعلنا من الذين يحظون برضائك. آمين.

سورة العصر

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

هي مكية - على الراجح من الأقوال- آياتها ثلاث، و قد استقصت -على إيجازها- ما تكون به سعادة الإنسان، ونجاته من الخسران الأبدي، ولهذا قال الإمام الشافعي -رحمه الله- لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس.

ومناسبتها لما قبلها أنها كالتعليل لما ذكر في سورة التكاثر حيث أخبرنا الله- تعالى- أن الناس قد ألهاهم و شغلهم التكاثر والتفاخر بكل ما يلهي عن ذكر الله ، من أموال وأولاد و شئون دنيوية حتى ماتوا على ذلك، فحق عليهم عقاب الله، وبين في هذه السورة أنهم -بسبب تجاهلهم لما هم مقبلون عليه في الدار الآخرة- قد أوقعوا أنفسهم في الخسران العظيم، و أنه لا نجاة للإنسان من هذا الخسران إلا إذا اتصف بأربعة أوصاف، و هي: الإيمان، و العمل الصالح، والتواصي بالحق، و التواصي بالصبر.

﴿والعصر﴾

الواو: واو القسم، أي أقسم بالعصر.

وقد جرت سنة الله في القرآن الكريم أن يقسم ببعض مخلوقاته لينبهنا إلى ما فيها من دلائل قدرته، ووحدانيته، و حكمته، و رحمته بعباده، وإكباره، وإجلاله، وتعظيمه، فقد أقسم بالشمس والقمر و النهار والليل والفجر والضحى والسماء والأرض والنفس إلى آخر ما هنالك من أقسام عُدَّتْ بالعشرات.

و هل لنا - معشر البشر- أن نقسم بغير الله؟ لا يجوز ذلك، لقوله ﷺ : **(من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)**. رواه أحمد و الترمذي.

وقد أقسم في هذه السورة بالعصر، وما العصر؟ إنه لفظ يحتمل معاني مختلفة، منها: الفترة التي تقع فيها صلاة العصر، ومنها آخر النهار، ومنها عصر الإسلام الأول على عهد رسول الله ﷺ، ومنها عصر الإسلام كله، ومنها الزمان كله، أي الدهر وهذا هو الأقرب هنا، و قد أقسم الله به ليلفت أنظارنا إلى ما فيه من تبدل الأحوال، وظهور العجائب التي تدل على قدرته و وحدانيته وحكمته في خلقه وإحسانه إلى عباده لينزهوه عما لا يليق بجلاله، ويشكروه على عظيم أنعمه.

ومن هذه العجائب اختلاف الليل، والنهار، قال - تعالى- في سورة فصلت: ﴿**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس، ولا**

للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾ الآية 37، وقال في سورة الإسراء: ﴿**وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل، وجعلنا آية النهار مبصرة، لتبتغوا فضلا من ربكم، ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾** الآية 12، وفي سورة إبراهيم: ﴿**وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار﴾** الآيتان 33-34، ومن العجائب التي أظهرها الله في العصر ما يحدث فيه من تطورات للإنسان والحيوان والأشجار وثمارها، والمزروعات وغلالها وما يقع للدول والشعوب من قيام وسقوط وارتفاع وانخفاض ونباهة و خمول، وكلها آيات تدل على كمال صفاته ﷻ.

و في كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وهل للعصر تأثير ذاتي فيما يقع فيه من أحداث ؟ كلا! فالعصر ما هو إلا ظرف زماني يجلي فيه ربنا مقتضيات مشيئته، ويظهر للناس بديع صنعه، وينبغي لهم أن ينشطوا فيه، ومن ثم لا تصح نسبة الأحداث إلى الدهر، و إنما تنسب إلى خالق الدهر.

و قد شنع الله على أهل الجاهلية الذين يعتقدون و يصرحون بأن الدهر وحده هو المؤثر في الأشياء فقال في سورة الجاثية: ﴿ **و قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلا الدهر، و ما لهم بذلك من علم، إن هم إلا يظنون..﴾** الآية 24.

وليس من الصواب أن نسند الحسن أو القبح للعصر - إلا على سبيل المجاز- فلا نقول هذا عصر حسن، أو عصر قبيح، و إنما الإنسان هو الذي يجعله حسنا أو قبيحا بحسب أعماله و تصرفاته فيه، فمن زرع فيه الشر حصد الندامة والشقاوة و الخسران، و من زرع فيها الخير حصد الغبطة والسعادة والربح المبين، وصدق الله العظيم حين يقول في سورة الشورى: ﴿**من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها، و ما له في الآخرة من نصيب**﴾ الآية 20.

و صدق الشاعر حين يقول:

نعيب زماننا والعيب فينا و ما لزماننا عيب سوانا

هذه الحقيقة - وهي مسئولية الإنسان عن نفسه وعدم أي دخل للعصر في ذلك- هي التي أكدها الله ﷻ في هذه السورة بواسطة القسم والتأكيد بحرف (إن) فقال: ﴿**والعصر إن الإنسان لفي خسر**﴾؛ فالإنسان هو الذي يوقع نفسه في الخسر، و ليس العصر ﴿ **إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون** ﴾ سورة الأنعام الآية 120.

و(الـ) في لفظ (**الإنسان**) للاستغراق العهدي -أي المعهود عند الناس- وهو كل إنسان بلغ التكليف، فلا مؤاخذة قبل هذه السن، فاللفظ مفرد ولكن يدل بمعناه المتعارف على العموم و لهذا جاء المستثنى في صيغة الجمع، فقيل: ﴿ **إلا**

الذين ءامنوا وعملوا الصالحات...﴾ ولم يقل (إلا الذي آمن و عمل صالحا) إلخ فكأنه قال: والعصر إن الناس لفي خسر الخ ...

الخسر أو الخسران : هو انتقاص رأس المال أو ذهابه كله، و هو ضد الربح الذي هو زيادة رأس المال، (في المصطلح التجاري)، يقال خسر فلان أو خسرت تجارته كما يقال: ربح فلان أو ربحت تجارته.

والخسر والربح المستعملان في القرآن الكريم يراد بهما الخسر والربح المعنويان، وهما ضياع السعادة الأبدية أو حصولها،ومن ذلك قوله -تعالى- في سورة الزمر: ﴿ **قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، لهم من فوقهم ظلل من النار و من تحتهم ظلل** ﴾ الآيتان 15-16، وقوله-تعالى- في سورة الكهف: ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا...**﴾ الآيتان 103-104، وقوله-تعالى- في سورة البقرة: ﴿... **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين**﴾ الآية 16.

في: في الآية تدل على الظرفية المجازية، فكأن الخسر يحيط بالخاسر من كل الجهات فلا نجاة منه.

و من أين يأتي الخسر للإنسان ؟يأتي من إنكاره الحق، واتباعه الشهوات، وتفضيله العاجلة على الآجلة، واختياره الفاني الخسيس بدلا من الباقي النفيس،

قال -تعالى- في سورة الأنعام يحدثنا عن منكري الحق، ﴿ **ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيدهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾ الآيات7-9. وقال تعالى في سورة مريم -يحدثنا عن متبعي الشهوات-: ﴿**فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا**﴾ الآية 59، وقال أيضا في سورة القيامة: ﴿**... بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة...**﴾ الآيتان 20-21.

والمعنى أن الله ﷻ يؤكد لنا أن الإنسان إذا استرسل في الشهوات وآثر الباطل على الحق يحيط به الخسران، و لا ينجيه من هذا الخسران إلا أن يتصف بأربعة أوصاف و هي الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهي المفهومة من قوله تعالى:

﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾.

الإيمان: معناه التصديق القلبي بوجود الله، و ماله من صفات عليا، والإذعان لكل ما جاءنا به رسل الله وأنبياؤه.

الصالحات: نعت لمنعوت محذوف، تقديره: الأعمال الصالحات، وهي كل ما أمر الله به عباده مما تصلح به نفوسهم وعقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم، وما

يستقيم به نظام حياتهم أفرادا و جماعات، وبَدَهيٌّ أن عمل الصالحات يقتضي اجتناب المنكرات.

ومفهوم الصالحات والفاسدات يختلف باختلاف الأمم، ومالها من عقائد وتقاليد، ومفهومنا لها -نحن معشر المسلمين- أن كل ما أمرنا به الله أو رسوله، فهو عمل صالح، وكل ما نهانا عنه الله أو رسوله فهو عملٌ فاسد، وإذا كان للعقل الإنساني أن يحسن أو يقبح فلا مندوحة له عن التقيد بشرع الله تعالى، لأن مفهوم الصلاح والفساد في عصرنا قد انحرف حتى عند المسلمين؛ فقد يحكم على عمل مّا بالصلاح وهو معصية أو بدعة، أو يحكم عليه بالفساد وهو طاعة أو سنة، وكم من جاهل مبتدع يحكم له بالصلاح ويتبرك به ويقدم، وكم من مطيع لربه متبع لسنة نبيه ﷺ يحكم عليه بالانحراف و يهمش، و صدق الله العظيم إذ يقول في سورة البقرة: ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون و لكن لا يشعرون، و إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء و لكن لا يعلمون**﴾ الآيات 11-13. وقال أيضا في سورة الأنعام: ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾ الآية 38، وقال-تعالى- في سورة الإسراء: ﴿**وكل شيء فصلناه تفصيلا** ﴾ الآية 12.

الحق: هو الشيء الثابت؛ بمشاهدة أو بدليل قاطع كالنجوم في السماء، والأشجار في الأرض، وكوجود الله بدليل إبداع صنعه، وكرسالة محمد بن عبد الله ﷺ من عند الله إلى البشر بدليل التواتر الحاصل، من أجيال سابقة إلى أجيال

لاحقة، وكل ما ورد في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الشريفة الصحيحة فهو حق.

الصبر: هو حبس النفس عما تتوق إليه من فعل أو ترك، والنفس عادة إن أرخي عنانها تتوق إلى الكسل، والتفريط في الواجبات، أو تميل إلى غشيان المحظورات، وتهلع عند نزول المصائب والمطلوب شرعا عكس ذلك، و رحم الله البوصيري إذ يقول :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حُب الرضاع و إن تفطمه ينفطم

التواصي بالحق و بالصبر: أن يوصي المؤمنون بعضهم بعضا بالإلتزام بهما، كما تقتضيه صيغة التواصي الواردة على وزن التفاعل الذي يدل على المشاركة، وهو -أي التواصي- بمعنى التناصح الذي ترغب فيه الشريعة الإسلامية، ويكفي في ذلك قوله ﷺ : (**الدين النصيحة**). رواه البخاري ومسلم.

والتواصي بالحق و بالصبر من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لآن الموصي بالحق مطالب بالنهي عن الباطل ،و الموصي بالصبر مطالب بالنهي عن الهلع وعدم التحكم في النفس.

والتواصي بين المؤمنين ليس له وقت محدد، ولا مكان معين فيصح أن يتواصوا في أي وقت مناسب وفي أي مكان ملائم سواء أكان في مساجدهم، أم في منتدياتهم، أم في مجالسهم، أم في أسواقهم، أم في طرقاتهم، كما كان الرسول ﷺ

يفعل ، غير أنه لا مندوحة لأي ناصح عن مراعاة الشروط التي توفر له النجاح في مسعاه وأهمها :

1. أن يكون النصح بالحكمة واللين قال-تعالى- في سورة النحل: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ...**﴾ الآية 125، وقال ﷺ : (**إنَّ منكم منفِّرين**). متفق عليه.

2. أن يتأكد الناصح من حقية ما يدعو إليه، حتى لا يدعو إلى باطل يظنه حقا، فيضل غيره بعد أن ضل هو في نفسه، نعوذ بالله من ذلك.

3. أن يكون هو ملتزماً بما يوصي به غيره حتى لا يكون من الذين قال الله فيهم في سورة الصف : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾ الآية 02.

وصدق الشاعر إذ يقول :

لا تنه عن خلق و تأتي مثلـــه عار عليك إذا فعلت عظيـــم

تصف الدواء لذي السقام و ذي الضنى كيما يصح به و أنت سقيـــم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيـهـــا فإذا انتهت عنه فأنت حكيـــم

وكما يجب على المؤمن أن يوصي غيره بالحق فعلى هذا الغير أن يستمع إليه استماع قبول، لأن الله -تعالى- نهانا أن نتشبه بالذين يسمعون بآذانهم ولا يسمعون بقلوبهم، قال -تعالى- في سورة الأنفال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله**

ورسوله، ولا تولوا عنه و أنتم تسمعون، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ الآيتان20-21.

وإهمال التواصي بالحق يؤدي إلى الجهل، وكفى به عدوا، ويوقع في الباطل، وكفى به مقتا، وما انتشر الباطل في أمة إلا عمتها الفتنة التي تهلك العباد والبلاد، و أتت على الأخضر و اليابس قال -تعالى- في سورة الأنفال: ﴿**و اتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ الآية 25.

فهي تصيب بنارها الظالمين وغير الظالمين، ولا يتميز الفريقان إلا يوم الفرقان يوم يقال للمجرمين﴿**وامتازوا اليوم أيها المجرمون** سورة يس 59.

ماذا يستفاد من السورة ؟

يستفاد منها أن الناس صنفان: قوم واقعون في الخسران لا محالة، وقوم ناجون منه، فأما الناجون فهم المؤمنون الذين يعملون الصالحات، و يتناصحون بالحق، و يتواصون بالصبر عليه، و أما الخاسرون فهم عكس ذلك.

و يستفاد من السورة أيضا أن هذه الصفات -مجتمعة- هي التي تضمن النجاة لأصحابها من الهلاك، فإذا اقتصر الناس على بعضها فلا نجاة لهم من عقاب الله، ولا راحة لهم في هذه الحياة، كما هو مشاهد الآن، ودليل ذلك:

- بالنسبة لفقد الإيمان أو ضعفه قوله-تعالى-في سورة إبراهيم: ﴿**مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف، لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد**﴾ الآية 18، ومعلوم أن أي حركة في هذا الكون تكون على حسب المحرك من حيث القوة والضعف، والمحرك هنا هو الإيمان، و الحركة ما ينتج عنه من عمل، والله تعالى يحب أن يكون إيمان عباده قويا لتصدر عنه أعمال قوية، و إلى ذلك الإشارة بقوله -تعالى- مخاطبا بني إسرائيل: ﴿**خذوا ما آتيناكم بقوة و اذكروا ما فيه لعلكم تتقون**﴾ الأعراف171، ويخاطب يحي عليه السلام فيقول: ﴿ **يا يحي خذ الكتاب بقوة** ﴾ مريم 12.

- وبالنسبة لفقد العمل الصالح قوله-تعالى-سورة النساء: ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به و لا يجد له من دون الله وليا و لا نصيرا، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** ﴾ الآيتان 123-124. وقوله ﷺ : (**الإيمان ما وقر في القلب و صدقه العمل**).

- وبالنسبة لإهمال التواصي بالحق قوله-تعالى-في سورة المائدة: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود و عيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون**﴾ الآيتان 78-79.

- وبالنسبة لترك الصبر قوله - تعالى- في سورة آل عمران: ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ الآية143.

ويستنتج من السورة أيضا أن الإنسان مطالب -شرعا- بأن يكمل نفسه، أولا وأن يكمل غيره ثانيا، أما تكميل نفسه فيتجلى في قوله تعالى: ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾، وأما تكميل غيره فيفهم من قوله-تعالى: ﴿**وتواصوا بالحق و تواصوا بالصبر**﴾.

ومما يلاحظ في قرن التواصي بالحق بالتواصي بالصبر، أن الداعي إلى الحق كثيرا ما يتعرض للإيذاء من المدعوين؛ كالشتم، وإظهار الاحتقار، والوشاية، والاتهامات الباطلة، وخدش العرض، وقد يجلد، وقد يسجن، وقد يقتل، لأن الحق مرٌّ عند أكثر الناس ومكروه للنفس، كما قال-تعالى-في سورة الزخرف وهو يخاطب -الرافضين للحق وهم في جهنم-: ﴿**لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون**﴾ الآية 78، ويحدثنا عنهم في سورة المؤمنون بقوله:﴿**ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾ الآية 71، ولا يستطيع الداعي إلى الحق أن يستمر في دعوته جاهرا بها إلا إذا تخلق بهذا الخلق العظيم وهو الصبر، فالإيصاء بالحق و الصبر على الأذى صنوان لا يفترقان.

عن أبى حذيفة ﷺ قال: (**كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر**). أخرجه البيهقي.

ما معنى ذلك ؟ إنه التعاهد على حماية الدستور الإسلامي الملخص في هذه الآيات الكريمات المختصرات.

و الخلاصة أن الأمة لا تقوم لها قائمة، ولا يستقيم لها أمر إلا بما يهيئها للسعادة الأبدية الناتجة عن الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وعدم الاقتصار على المقياس المادي في الربح و الخسارة.

أبني إن من الرجال بهيمـــة في صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة في مالـــه فـــإذا أصيب بدينـــه لم يشعر

اللهم حُلْ بيننا و بين مسببات الخسران، وأسلكنا في زمرة المؤمنين العاملين الملتزمين بالحق الداعين إليه، الصابرين على ما ينالنا في سبيله. أمين.

سورة الهمزة

سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

هي مكية بإجماع، و آياتها تسع

ومناسبتها لما قبلها أنها جاءت لتكشف عن مثال من أمثلة الذين أحاط بهم الخسر المذكور في أول سورة العصر.

سبب نزولها: روي أنها نزلت في جماعة من الطغاة المشركين في مكة كانوا يؤذون النبي ﷺ والمؤمنين بالاستهزاء بهم وتحقيرهم، و الطعن فيهم، لتضعف معنوياتهم، وتنهار أعصابهم، فيرتدوا عن دينهم، ويرجعوا إلى الشرك بالله، ومن هؤلاء الطغاة: الوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، و أبي بن خلف، وجميل بن معمر، والعاص بن وائل والأخنس بن شريق.

و معاني السورة عامة تشمل كل من كان على شاكلتهم، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿ ويل لكل همزة لمزة﴾

ويل: تدل على التهديد بالعقاب الشديد كما في هذه السورة و كما في قوله -تعالى-:﴿**ويل لكل أفاك أثيم**... ﴾الجاثية 07.

وقد تدل على التحسر والتندم، كما في قوله -تعالى-:﴿ ... **قالوا: يا ويلنا، من بعثنا من مرقدنا؟**﴾ يس 59، وفي قوله-تعالى-حكاية لقول الظالم الذي يعض على يديه يوم القيامة من شدة الندم على ما فرط في جنب الله-:﴿**يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا**﴾. الفرقان28.

وقد يفهم منها معنى التخويف، كما في قوله -تعالى-: ﴿... **و هما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق...**﴾ الاحقاف17، أو كما يقول الأب لابنه المفرط في الصلاة مثلا (ويلك صلّ).

﴿ همزة لمزة ﴾

هما وصفان مشتقان من همز و لمز، و أصل الهمز الضغط على الشيء لكسره، وأصل اللمز الطعن، يقال: همز اللوز ونحوه: إذا ضغط عليه ببعض أصابعه أو ببعض الأدوات لينكسر ويقال لمزه بالرمح ونحوه إذا طعنه به.

واسما الفاعل منهما: هامز ولامز فإذا كان الشخص كثير الهمز واللمز حتى صارا عادة له أتي بصيغة المبالغة منهما على وزن فعَّال أو فُعَلة (والتاء للمبالغة بالنسبة للمذكر)، فقيل: همَّاز لَمَّاز أو هُمزة لُمزة، وليس المراد بالهمز واللمز في الآية معناهما الحقيقي في اللغة، وإنما المجازي وهو إظهار عيوب الناس، والاستهزاء بهم، و إيذاؤهم بالهمز، والغمز، والهمس، وليّ الرأس، و تعويج الفم، و استعمال اليد و التحدث في أعراضهم بما لا ينبغي، ومحاكاة أقوالهم وأفعالهم وأصواتهم، سواء أكان ذلك في حضرتهم أم في غيبتهم، فإذا كانوا حاضرين، فهي الوقاحة وسوء الأدب، وإذا كانوا غائبين فهي الغيبة التي لا يتصف بها فضلاء الناس إذ هي من كبائر الذنوب.

وهذا المعنى المجازي لكلمتي (همزة) و(لمزة) يتناسب مع معناهما اللغوي؛ فالذين يهمزون الناس ويلمزونهم بإظهار عيوبهم والسخرية منهم كأنهم يطعنون الناس بالأدوات الحادة، ويكسرون أعراضهم بالآلات المادية.

وقد نهى الله- تعالى- المؤمنين عن هذين الوصفين الذميمين في غير هذه السورة فقال -تعالى- في سورة "ن": ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم** ...﴾ الآية 11، وفي سورة الحجرات:﴿ **و لا تلمزوا أنفسكم**﴾ الآية 11.

وقد شنع الله على المنافقين الذين يلمزون النبي ﷺ وأصحابه -رضوان الله عليهم- فقال في سورة التوبة: ﴿**و منهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها**

رضوا و إن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ الآية 58، وفيها أيضا: ﴿... **الذين يلمزون المطّوعين من المؤمنين في الصدقات، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم، سخر الله منهم، ولهم عذاب اليم﴾** . الآية 79.

وقد عدّ النبي ﷺ هؤلاء العيابين على الناس من أقبح عباد الله فقال: (خيار عباد الله الذين إذا رُؤُوا ذُكِر الله، وشرار عباد الله المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب) رواه أحمد، وفي رواية: " العنت" بدل "العيب". والمعنى متقارب.

﴿ الذي جمع مالا وعدده﴾

الذي: نعت ثان لـ (همزة) لزيادة التشنيع على (الهمزة اللمزة)؛ فهو يضيف إلى هاتين الصفتين الذميمتين حرصه الشديد على جمع المال واقتنائه والشح به على وجوه الخير.

المال:كل ما يكسبه الإنسان لينتفع به في مؤونته، كالدراهم والدنانير والأنعام وما تولد منها.

عَدَّدَهُ :كرر عده، أي حسبه مرة بعد مرة ليتلذذ به، ويفاخر غيره به، و ليزيد عليه، ولينفق منه في الصد عن سبيل الله، كما في قوله تعالى:﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم**

يغلبون﴾ الأنفال الآية 36، وليستهوي به قلوب الضعفاء إشباعا لنزواته وشهواته أو تسخيرا لهم في نصرة باطل، استغلالا لحاجاتهم و ميولهم.

وتخفيف الميم في (جمع)، هو قراءة الجمهور، ومن القراء من شددها مثل الدال في (عدّده)، كقراءة ابن عامر وحمزة والكسائي، مبالغة في (جمع) ومثل الآية قوله -تعالى-في سورة المعارج: ﴿**وجمع فأوعى**﴾ الآية 18،

و اعلم أن جمع المال إنما يذم إذا لم تؤد منه حقوق الله ،أو كان مكتسبا من وجوه غير مشروعة، أو اتخذ وسيلة لإلحاق الضرر بالناس، أو كان سببا في طغيان صاحبه، كما جاء في قوله -تعالى-مشنعا على أبي جهل وأمثاله:﴿**كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾ العلق 6-7.

﴿**يحسب أن ماله أخلده**﴾

يحسب: يظن[1].

أخلده: جعله خالدا في هذه الدنيا كأنه لا يموت، والأصل في استعمال مادة (**أخلد**)أن يؤتى بها في صيغة المضارع، لأن الإخلاد إنما يقع في المستقبل وهو ما يفيده المضارع، ولكن أوثر استعمال الماضي ليفيد أن جامع المال كأنه تيقن أن ، وهكذا كل من أعمى الله بصيرته بكثرة المال وانعدام العقيدة الصحيحة يخيل إليه

1 - يقال في اللغة حسب بكسر السين يحسب بكسرها و فتحها بمعنى ظن، و حسب بفتح السين يحسب بضمها بمعنى عد.

أنه يقدر أن يملك كل شيء بماله حتى الخلود في الدنيا، فهو يركض و يلهث وراء الدنيا ويطيل الأمل حتى يفاجأ بما كان يستبعده وهو هاذم اللذات[1]،ومما يؤسف له أن مناهج الحياة عند أغلب الأمم في الوقت الحاضر مبنية على مبدأ الإخلاد إلى الأرض، و العمل للدنيا لا غير.

وجملة (يحسب) يصح أن تكون حالية، أي جمع المال وعدده والحال أنه بحسب أن ماله قد ضمن له الخلود في الدنيا، كما يصح أن تكون مستأنفة دالة على الإنكار.

﴿كلا لينبذن في الحطمة﴾

كلا:حرف زجر، يدل على إبطال الاعتقاد بأن المال يخلد صاحبه في الدنيا، أي ليس الأمر كما يحسب هذا الجاهل الذي يتفانى في جمع المال والاغترار به.

واللام في (**لينبذن**) داخلة على جواب قسم محذوف تقديره: والله لينبذن .

والنبذ: الرمي، و يستعمل غالبا في رمي الشيء الحقير.

فالإنسان الهمزة الذي أشرب في قلبه حب المال ينبذ في الحطمة كما ينبذ الشيء الذي لا قيمة له.

---

1 – هادم اللذات هو الموت لأنه يهدم أي يقطع اللذات بسرعة

الحطمة: اسم من أسماء جهنم جاءت على صيغة المبالغة لكثرة تحطيمها لكل ما يلقى فيها، و اختيار هذا الاسم من أسماء جهنم هنا يوحي بأنها كما تحطم جسمه تحطم كبرياءه الذي كان يعلو به على الناس، فالعذاب هناك بدني ونفسي كما جاء في سورة الدخان: ﴿**ذق إنك أنت العزيز الكريم**﴾ الآية49، إهانة له وتهكما به أعاذنا الله من ذلك.

﴿ **وما أدراك ما الحطمة**﴾

ما: اسم استفهام؛ **أدراك**: أعلمك وأخبرك و(ما) الثانية كذلك اسم استفهام، وهذه الصيغة تستعمل للتهويل، والمعنى: أي شيء استطاع أن يصور لك حقيقة الحطمة ويجعلك تدرك كنهها، فهي تجل عن الإدراك الذهني.

﴿ **نار الله الموقدة**﴾

نار الله:خبر لمبتدأ محذوف ومضاف إليه، والتقدير:هي نار الله، **والموقدة**: اسم مفعول من (أوقد النار): أشعلها و ألهبها فهي موقدة أبدا. حفظنا الله منها. وإضافة (نار) إلى اسم الجلالة يوحي بأنها نار فذة في طبيعتها، وجملة (نار الله الموقدة) بيان للحطمة.

﴿**التي تطلع على الأفئدة**﴾

تطّلع: مضارع اطّلع، وهو مبالغة في طلع، بمعنى: أتى، والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب يعني أن النار تأتي القلوب و تستولي عليها لتحرقها،كما تحرق

الأبدان، وذكر الأفئدة يشير إلى أنها هي مصدر كل شر، وما تتحرك الأعضاء إلا بأمرها، لذلك يحق إيلامها.

﴿إنها عليهم موصدة﴾

موصدة: (بدون همز)، اسم مفعول مصوغ من أوصد الباب، بمعنى: أغلقه، وهي قراءة نافع، وفي قراءة عاصم مؤصدة (بالهمز) مأخوذة من آصد الباب، ومعناهما واحد، والضمير في (إنها) عائد إلى نار الله، فهي مغلقة على أهلها لا يجدون منها خلاصا،عياذا بالله.

﴿في عمد ممددة﴾

عمد: اسم جمع واحده عمود، وأصله:ما يقوم عليه البيت، سواء أكان من خشب أم من حديد.

ممددة: طويلة .

والجملة حالية، و صاحب الحال إما الضمير في "عليهم"، فيكون المعنى: أن أهل النار موثقون في أعمدة النار، وهو شبيه بقوله -تعالى- في سورة الحاقة: ﴿**ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه**﴾ الآية 32. وقد يكون صاحب الحال الضمير في (إنها)، فيكون المعنى: أن النار مشتعلة في العمد وهم مربوطون فيها والنار من تحتهم تشوي أبدانهم -أعاذنا الله- من كل ذلك. والله أعلم.

و العبرة التي نستخلصها من السورة - نحن المؤمنين- ألا نسمح للمال بأن يطغينا حتى نحتقر الآخرين، وننطلق في إيذائهم بصنوف الأذى، ونحن غافلون عما ينتظر الظالمين من الجزاء الأسوأ في نار جهنم.

و ليحذر المؤمن أن يقع في حبائل أرباب المال الذين لا يخافون الله -تعالى- فيكون عبدا ذليلا لهم يسخرونه فيما يغضب الله ﷻ فيخسر دنياه وآخرته.

سورة الفيل

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

هي مكية اتفاقا، وآياتها خمس.

تشتمل على قصة قوم أرادوا أن يهدموا الكعبة المشرفة حجرا حجرا، وأن يمحوها من الأرض، فمحاهم الله منها، وجعل ذلك عبرة لكل من أراد أن يعتبر على مر العصور مادام كتاب الله يتلوه الناس ويتلى عليهم، إذ هي سورة من سوره الكريمة الباقية ما بقى القرآن في الصدور والسطور، وسبحان من أوحى إلى نبيه بقوله:﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾. الحجر09.

وقد اشتهر هؤلاء القوم عند العرب بأصحاب الفيل،وخلاصة قصتهم: أن الأحباش كانوا قد احتلوا أرض اليمن بعد حادثة الأخدود التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة البروج، ولما رأى حاكم اليمن (أبرهة الأشرم) من قبل

النجاشي[1] ما عليه العرب من تعلقهم بالكعبة المشرفة في مكة المكرمة، غاظه ذلك وقرر أن يبني في صنعاء كنيسة عظيمة يصرف إليها حج العرب ليتم خضوعهم إلى حكمه، وبعد أن استشار النجاشي في ذلك وأذن له، شرع في بنائها، وكانت من الضخامة والارتفاع بحيث اعتقد أن العرب ينجذبون إليها بسهولة[2] ويزهدون في كعبتهم القديمة، وبذلك يتحقق له ما أراد، وكان مخطئا في اعتقاده ذلك، فما إن أمر الناس بالحج إليها وترك الكعبة، وهدد من يخالف أمره حتى جاء أحد العرب من قبيلة بني كنانة وأحدث فيها، ولطخ جدار قبلتها بالنجاسة، وذلك ليعبر لبانيها عن كراهية العرب الشديدة لها.

ويعلم أبرهة بما وقع و يسأل عمن فعل هذا، ويجاب بأن بعض العرب المتعلقين بكعبتهم هو الذي فعل هذه الفعلة الشنيعة، ويشتد غيظه، ويحلف ليسيرن إلى مكة لهدم الكعبة ونقضها حجَرا حجَرا.

وهاهو يهيئ جنده، ويجمع أفياله لاستعمالها في الحرب على عادة القدماء، ثم يتوجه إلى مكة في جيش جرار (بعد موافقة النجاشي له في ذلك)، اعترضه بعض القبائل العربية التي كانت ترى أن الدفاع عن الكعبة لزامٌ عليها، ولكنه سرعان ما هزمهم، و استمر في طريقه لتنفيذ ما عزم عليه حتى وصل إلى مكان قريب من

1- النجاشي: لقب لكل من ملك الحبشة، كما أن القيصر لقب لكل من ملك الروم، و كسرى لكل من ملك الفرس، و فرعون لكل من ملك مصر.

2 – و كانت تسمى بالقليس (بضم القاف و فتح الآم المشددة).

مكة يقال له المُغَمَّسُ، فعسكر فيه، و بعث إلى مكة من يخبر رئيسها أنه لا يريد حربهم، وإنما جاء لهدم الكعبة، ثم يعود من حيث أتى، فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له بدمائهم.

وقد كان رئيس مكة حينذاك عبد المطلب جد النبي ﷺ، وقد أوصى أبرهة رسوله أن يصحب معه رئيس مكة إن لم تكن له رغبة في الدفاع عن البيت، وصرح عبد المطلب لرسول أبرهة أنه لا قبل لهم بحربه، فصحبه معه ليتحدث إلى رئيسه في معسكره، وكان عبد المطلب قد أمر أهل مكة بالصعود إلى شعف الجبال (رؤوسها العالية) ليتجنبوا مَعَرَّةْ الجيش (أي أذاه).

ويدخل عبد المطلب على أبرهة فيؤخذ هذا بوسامته، وحسن هيئته، ويكبره في نفسه، و يعز عليه أن يأمره بالجلوس على البساط، بينما هو فوقه على سرير الملك ويصعب عليه أيضا أن يجلسه إلى جانبه على السرير حتى لا يغضب قادة جنده، فما كان منه إلا أن جلس مع ضيفه على البساط، ثم أمر ترجمانه أن يسأله عن حاجته فقال له: قل للملك إن جيشه قد اغتصب إبلا لي (وكان عددها مائتين) وإني أطلب منه ردها إلي، فأمر أبرهة ترجمانه بأن يقول له عنه:إني قد أعظمتك حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في إبل لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك لا تكلمني فيه؟عندها قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه ويحميه. و يجيب أبرهة: ما كان ليمنعه مني. فقال له

عبد المطلب: أنت وذاك؛ و قد أمر أبرهة برد الإبل إلى صاحبها، فانطلق هذا إلى مكة وأمسك بحلقة باب الكعبة وطفق يدعو الله مع جماعة من قريش ليرد كيد هذا العدو...

و مما أثر عن عبد المطلب هذا الدعاء الذي صبه في قالب شعري:

اللهم إن العبد يمنع حلـــــه فامنع حـــــلالك

و انصر على آل الصليـــــب و عابديـه اليـوم آلك

لا يغلبن صليبهم و مـــحـا لهم أبدا محـــــالك

إن كنت تاركهم وكعبتنـــا فأمر مَّا بـــــدا لك

والمقصود بالحِلال في قول عبد المطلب: الناس الذين يحلون بمكان مَّا أي ينزلونه، والمحال:القوة، ومما أثر عنه قوله :

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماك

إن عدو البيت من عـاداك إنهم لن يقهروا قـــواك

وقد منع الله بيته من أبرهة وجنوده بأن سلط عليهم طيوراً تحمل في مناقيرها ومخالبها نوعا من الحجارة أسقطتها عليهم، فأصيبوا من جرائها بمرض خطير انتشر في الجيش؛ كانت لحومهم وأعضاؤهم تنفصل عن أجسادهم، وتتساقط على الأرض من جرائه، وذعروا لذلك، وسرعان ما أمرهم قائدهم بالرحيل والعودة من حيث أتوا، ولكن المرض كان يفتك بهم فتكا ذريعا، أثناء

سيرهم إلى اليمن حتى إن أبرهة نفسه لم يكد يصل إلى صنعاء حتى انصدع صدره ومات.

و قد تبين للعرب والعجم ما يفعله الله بمن أراد بيته بسوء، وقصد إلى أهله بأذى، وبذلك اشتد تعلق العرب ببيت الله الحرام وتوطد احترام قريش في نفوسهم بصفتهم جيران الله.

ولغرابة هذا الحادث العظيم الذي لم يشاهدوا مثله من قبل صار العرب يؤرخون به الحوادث، فيقولون وقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين، أو قبله بكذا، أو وقع عام الفيل.

وقد ثبت في الروايات أن نبينا محمدا ﷺ ولد عام الفيل سنة (570م).

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾

الهمزة للاستفهام التقريري الذي يقصد به تقرير المخاطب وحمله على الاعتراف الصريح بما تضمنته الجملة.

ومن هو المخاطب الأول هنا؟ هو سيدنا محمد ﷺ ، والخطاب -بعده-عام يشمل كل من يصلح للخطاب.

والاستفهام التقريري -هنا- يحمل معنى التعجيب من الكيفية الغريبة التي أهلك الله بها أصحاب الفيل.

والرؤية المفهومة من الفعل (تر) الأصل فيها أن تكون بصرية؛ يدرك مرئيها بحاسة البصر، وقد تكون قلبية - على سبيل المجاز- ويراد بها حينئذ العلم الذي يدرك بقوة القلب أي العقل .

والرؤية في هذه السورة قلبية قطعا لأن النبي ﷺ لم ير بعينه ما وقع لأصحاب الفيل، ضرورة أنه لم يولد إلا في هذا العام أي عام الفيل، ولكنه علم القصة بعد أن عقل بواسطة الأخبار المتواترة التي كان كبار مكة يروونها للأجيال.

والأخبار المتواترة تفيد العلم القطعي، والعلم القطعي بالشيء لا يقل عن الإدراك بحاسة البصر، ولإفادة هذا المعنى اختير التعبير بـ (تر) بدل (تعلم) لأن الصورة الذهنية التي تكونت للنبي ﷺ عن الحادث جعلته يشعر كأنه كان حاضرا يرى بعينيه ما كان يحدث.

تـــر: فعل مضارع مجزوم بـ (لم) وعلامة جزمه حذف حرف العلة.

كيف: اسم مبني على الفتح منصوب على الحال وهو معمول (فَعَلَ).

وقد سد الاستفهام مسد مفعولي (تر) وإضافة كـاف المخاطب إلى(رب) لتشريف النبي ﷺ.

ومعنى الآية: **ألم تعلم -يا أيها الرسول- الكيفية العجيبة التي عاقب الله بها أصحاب الفيل؟.**

والمقصود من هذا الاستفهام التقريري أنك علمتها، وتيقنت حدوثها، فاعجب لقدرة الله، ولْتعلم قريش أن الذي دمر أصحاب الفيل قادر على تدميرهم إن لم يشكروا نعمته عليهم، ولم يذعنوا لرسالة التوحيد التي بُعِثتَ بها إليهم.

﴿ **ألم يجعل كيدهم في تضليل؟**﴾

الاستفهام للتقرير -كسابقه- **والكيد**: المكر، وهو استعمال الحيلة لإلحاق الضرر بالغير، ومن ذلك قوله -تعالى- في سورة الطارق: ﴿**إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا**﴾ الآيتان 15-16.

وكيد أبرهة، يتمثل في أنه أعلن إرادته الانتقام لكنيسته -بهدم الكعبة- والحقيقة أنه أضمر في نفسه تنصير العرب بعد تحويل قبلتهم إلى القليس بدلا من الكعبة.

التضليل: جعل الشيء ضالا، أي ضائعا، والمراد أن الله -تعالى- جعل كيد أصحاب الفيل ضائعا باطلا بحيث لم ينالوا ما كانوا يؤملونه وهو هدم الكعبة وتنصير العرب، وذلك بأن محقهم، و أفسد تدبيرهم، و حمى بيته من شرهم...

﴿ **و أرسل عليهم طيرا أبابيل**﴾.

هي جملة معطوفة على الجملة الاستفهامية قبلها، فهي داخلة في حيز الاستفهام التقريري، أي: ألم يجعل كيدهم ...؟ وألم يرسل عليهم...

وإنما كانت الجملة الثانية المعطوفة مصدرة بالفعل الماضي الدال على حصول الفعل في زمن مضى مع أن الجملة الأولى المعطوف عليها مصدرة بالفعل المضارع الدال على حصول الفعل في الزمن الحاضر أو المستقبل، لآن المضارع إذا دخلت عليه (لم) قلبت زمانه إلى الماضي، فكأنه قال: أليس الله جعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل؟

ومثل هذا الأسلوب عهدناه في القرآن الكريم في غير ما موضع منه، قال – تعالى- في سورة الضحى مخاطبا صفيه محمدا ﷺ : ﴿ **ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى**﴾ أي أليس وجدك يتيما فآواك و وجدك ضالا فهداك ...الخ.

و قال في سورة القيامة: ﴿ **ألم يك نطفة من مني تمنى ثم كان علقة فخلق فسوى؟**﴾ الآيتان 37 –38، أي: أليس كان نطفة ... ثم كان علقة ...؟

و إذا كانت الجملة الأولى أفادت إبطال كيدهم، فإن الجملة الثانية أفادت أن هذا الإبطال كان مصحوبا بإهلاكهم الشديد بواسطة الطيور.

الطير: اسم جمع واحده طائر، وهو كل ما يطير في السماء، ويروى أنها تشبه الوطواط أو الخطاطيف –والله أعلم-.

أبابيل: جماعات متلاحقة، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، يقال :جاءت إبله أبابيل، و قيل إن له واحدا من لفظة وهو إبَّالة، ومن ذلك قول العرب في المثل السائر (ضغث على إبَّالة) أي حزمة صغيرة من الحشيش أو

العيدان أو نحوهما فوق حمل كبير من الحطب يضرب مثلا لـهَمٍ صغير يضاف إلى هم كبير.

ترميهم: جملة حالية، وبما أن الرمي وقع في زمن مضى قبل نزول القرآن كان حق الفعل أن يؤتى به في صيغة الماضي، ولكن أُتي بالمضارع الدال على الحاضر لاستحضار صورة الرمي في الذهن.

الحجارة: أو الحجر اسم جمع واحده حجرة وهي معروفة.

سجيل: طين متحجر أي يشبه الحجارة في صلابته.

روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: (**كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده، فكان ذلك أول الجدري**).

العصف: اسم جمع واحده عصفة، وهو ورق الزرع اليابس كالتبن ونحوه وسمي بذلك لأن الريح تعصف به، أي تحمله -لخفته- و ترميه في مكان بعيد.

مأكول: هو الذي أكلت الدواب أطرافه ثم طرحته على الأرض وذلك تمثيل لأصحاب الفيل المتساقطين على الأرض من جراء المرض الذي فتك بهم...

تأملات من وحي سورة الفيل:

أصحاب الفيل هم أصحاب الصليب، تجمعهم ملة واحدة هي النصرانية المحرفة عن تعاليم السيد المسيح عليه السلام، ومن مظاهر هذا التحريف الكيد

للمسلمين بإظهار الشعارات البراقة والزائفة كالرغبة في تطوير حياة المسلمين وتمدينهم، والحقيقة أنهم يريدون استعمار أرضهم، واستغلال مصادر الرزق في بلادهم، والسيطرة على عقولهم وعواطفهم، وتنفيرهم عن عقيدتهم ومقتضيات إيمانهم، وتزهيدهم في حضارتهم وتاريخهم، واستدراجهم لاعتناق النصرانية وتحبيبهم في أنماط حياتهم العابثة.

وإذا كانت السيطرة العسكرية قد غابت من أكثر بلاد العالم الإسلامي فقد ترسخ فيها وأفرخ ما هو أقبح وأفظع ألا وهو السيطرة الفكرية والاقتصادية.

وما نراه اليوم في المجتمعات الإسلامية من تشويش في العقيدة الأصيلة، وانحراف في التفكير والأخلاق والسلوك، وتشتت في القوى، وجوع في البطون، وإقبال على التوافه، وإحجام عن المهمات، وولوع بالدخيل، وعزوف عن الأصيل، وتخلف في كل ميادين الحياة... إن هو إلا ثمار مرة أنتجها الكيد النصراني.

أما الكيد الشيوعي للمسلمين فحدث عن البحر ولا حرج، فقد كان الهدف من أول مرة القضاء على الإسلام نهائيا في البلاد التي احتلوها، وقد نجحوا في تحقيق هدفهم إلى حد بعيد؛ حتى إن منع الشعائر الإسلامية وما صاحبه من تجهيل وطمس لمعالم الإسلام جعل الأجيال اللاحقة لا تعرف من التعبد إلا تقبيل المصحف الشريف عند الدخول إلى المنزل أو الخروج منه ونحو ذلك.

و لا نعرف أمة في الأرض أجمع النصارى واليهود والشيوعيون على تدميرها معنويا وماديا كما أجمعوا على الأمة الإسلامية.

ولإحكام قبضتهم على هذه الأمة تراهم حريصين كل الحرص على احتكار مصادر الرزق فيها والتسرب إلى المناهج التربوية، والدراسات التاريخية، والتأثير في وسائل الإعلام المحلية و العالمية، إما مباشرة، و إما بواسطة المسوخ الذين سلخوهم من قومهم لتنفيذ أغراضهم.

ومن أراد أن يتصور شيئا من أفاعيل الصليبيين والشيوعيين واليهود فليقرأ تاريخ الحروب الصليبية، وليعرج على الاستعمار الرأسمالي والشيوعي قديما وحديثا، وليذكر ما فعله ويفعله الصرب بالمسلمين في البلقان، وليرحل بفكره إلى فلسطين التي اغتصبها اليهود الصهاينة اغتصابا من أهلها الشرعيين، وأذاقوهم - ومازالوا- سوء العذاب واعتدوا على مقدسات المسلمين فيها، و على رأسها القدس الشريف، وليطلع على الاضطهاد الذي يعانيه المسلمون في شتى أقطار إفريقيا وآسيا..

و إن ننس فلا ننس أن أكبر مؤلِّب لأعداء الإسلام على المسلمين هم اليهود، ابتداء من تأليب المشركين في مكة وأنحاء الجزيرة العربية على المسلمين في المدينة المنورة وإلى يوم الناس هذا في مختلف بقاع العالم.

ومن أساليب كيدهم لتخريب الأمم عامة، والمسلمين خاصة، إنشاء الأحزاب والجمعيات المضللة، كالشيوعية والعلمانية، والمنظمات السرية كالماسونية.

ومن هذا القبيل تشجيع بعض الدول الأوروبية للفرق المتقمصة للإسلام وهو بريء منها، كالقاديانية والبابية...إلخ

وربنا ﷻ قادر على أن يجعل كيد هؤلاء وأولئك في تضليل، كما جعل كيد أصحاب الفيل، ولكن لا يصح أن نطمع في ذلك ما دمنا نعرض عنه ونقبل على ما يزينه لنا الماكرون بنا من فسوق عن أمره واستنكاف عن العمل بشريعته، وتخط لحدود الفضيلة للانبطاح في أحضان الرذيلة التي اتخذت جنودا لها من الأفلام الساقطة والأغاني الخليعة، والعري الذي يهبط بالإنسان إلى البهيمية والاختلاط المثير بين الرجال والنساء إلى آخر ما هنالك من معاول الهدم الخلقي.

وإذا أصيب الناس في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا.

ولا يستساغ أن نستنيم إلى مقولة عبد المطلب لأبرهة (للبيت رب يحميه)، فنقتدي به قائلين: إن لمقدساتنا ربا يحميها وذلك كالقدس مثلا وعامة القضايا الإسلامية لأننا مكلفون شرعا بالدفاع عن حرمات ديننا، ولأن قدرة الله -تعالى- إنما تتدخل بالنصر حين يقوم المؤمنون بواجبهم نحو دينهم، قال-تعالى- في سورة محمد:﴿**إن تنصروا الله ينصركم**﴾ الآية 07. والتاريخ شاهد بأن المسلمين كلما

قاموا بواجب الدفاع عن دينهم أمدهم الله بعونه ورد كيد أعدائهم في نحورهم وإن أمهلهم إلى حين﴿...**ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض**﴾. محمد الآية04.

ولعل القدرة الإلهية تدخلت مباشرة في حماية البيت العتيق وإهلاك أبرهة وجنوده، ولم يجمع الله قلوب العرب للتصدي لهم حتى لا يحصل للعرب-وهم وثنيون آنذاك- هذا الشرف العظيم وهو حماية البيت، كما صرف الله قلوب قريش عن حل مشكلة وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة المشرفة حتى ييسر الله لنبيه محمد ﷺ أن يضعه في مكانه ليكون له هذا الشرف دونهم.

سورة قريش

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

سميت بذلك لذكر اسم قريش فيها، ولم يذكر في غيرها من السور.

و قريش اسم لأولاد فهر بن مالك أو النضر بن كنانة، و هما من أجداد النبي محمد ﷺ الذي روي عنه أنه قال: (**إن الله اصطفى من ولد إسماعيل كنانة، ومن كنانة قريشا، ومن قريش بني هاشم، واصطفاني من بي هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار**) . رواه مسلم.

وموضوعها: تذكير قريش بما أنعم الله به عليهم من النعم التي لم يقدروها حق قدرها، ولو قدروها لشكروا مُسديها[1]، و أمارة شكرهم أن يعبدوه وحده لا يشركون معه شيئا.

ومناسبتها لما قبلها، أن سورة الفيل ذكرتهم بدفع الضر الذي كان سيصيبهم لو لم يهلك أصحاب الفيل،ولم يصرفهم عن هدم البيت الحرام الذي كان به عزهم

1 – مسديها : المنعم بها.

وأمنهم، وهذه ذكرتهم بجلب النفع لهم بما يسره لهم من الربح التجاري الوفير والثمار المتدفقة عليهم من كل الأصناف،مع أنهم في واد ليس فيه زرع ولا ضرع.

وهي مكية عند جمهور العلماء، و عدد آياتها أربع.

﴿ لإيلاف قريش﴾

الإيلاف: مصدر آلف يؤلف، كآمن يؤمن، ومثله في المعنى : أَلِفَ يألف إلفا أو إلافا، كعلم يعلم علما، و يصح أن يتعدى (آلف) إلى مفعولين على تقدير أن غيره جعله يألف، والإلف أو الإيلاف: أن يتعود الإنسان شيئا ما ويأنس به، يقال ألفت النهوض بكرة أو آلفته بنفسي أو جعلت غيري يألفه.

وأصل الإيلاف : الإئلاف فخففت الهمزة الثانية بقلبها ياء.

﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾

إيلافهم: عطف بيان من إيلاف قريش.

ذكر الإيلاف أولا مجملا لم يتبين المراد منه ثم بُيّن ووضّحَ فيما بعد بـ ﴿**إيلافهم رحلة الشتاء والصيف**﴾ وذلك من أجل التشويق إلى التفصيل.

وهذا الأسلوب وهو الإجمال ثم التفصيل من الأساليب البلاغية الواردة في القرآن الكريم و من ذلك قوله -تعالى- في سورة غافر- حكاية لقول

فرعون:﴿ **و قال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب**﴾ هكذا بإجمال الأسباب، ثم بينها بقوله ﴿**أسباب السموات**﴾ الآيتان 36-37.

﴿**رحلة الشتاء والصيف**﴾

الرحلة: الانتقال من مكان إلى أخر، و هي اسم من الارتحال.

وأصل الكلام: رحلة الشتاء و رحلة الصيف، ولكن لما أمن اللبس حسن عدم تكرار كلمة "رحلة" لتضاف إلى كلمة الصيف كما أضيفت إلى كلمة "الشتاء وهما رحلتان كانت قريش تقوم بهما: إحداهما في الشتاء تتوجه بها إلى اليمن، والأخرى في الصيف تتوجه بها إلى الشام.

واختيار اليمن في زمن الشتاء للتمتع بدفئه بخلاف الشام، واختيار الشام في زمن الصيف للتمتع ببرودة جوه بخلاف اليمن.

و الغرض من الرحلتين: الامتيار (وهو جلب الميرة أي المؤنة إلى مكة) والاتجار، وذلك بنقل البضائع من البلاد المتوفرة فيها إلى الأخرى التي تقل فيها، وكان من وراء ذلك الربح المضاعف.

و أول من أنشأ هاتين الرحلتين هو هاشم بن عبد مناف ليخلص قريشا من عادة اعتادوها تسمى عندهم الاعتفار، و معناه أن أهل مكة كانت تصيب بعض أسرهم فاقة شديدة ومجاعة مضنية، فيعجز رب الأسرة عن إطعام أفرادها

فيحملهم و يذهب بهم إلى مكان معلوم حيث يبني عليهم خيمة هناك و يتركهم حتى يموتوا جوعا.

وحدث أن أهل بيت من بني مخزوم أصابتهم مجاعة كادت تودي بهم، فهموا بالاعتفار فبلغ خبرهم هاشما عن طريق ابنه أسد الذي كان تِربا لأحد أبنائهم يلعبان معا ويلهوان، فجمع قبائل قريش، وقام فيهم خطيبا ...ومما قاله لهم: إنكم بهذا الحدث الذي أحدثتموه (الاعتفار) تقلون، وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله، والناس لكم تبع[1]، ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم ثم نَدَبَ[2] من كل عشيرة من عشائر قريش بعض أبنائها ليقدم لكل فريق منهم راحلتين يستعينون بهما على السفر إلى اليمن و إلى الشام من أجل التجارة، وما ربحه كل واحد منهم يقسمه بينه و بين أحد الفقراء من عشيرته، و قد استمروا على ذلك بتيسير الله وعونه حتى صار فقيرهم كغنيهم كما جاء في الروايات...

وهكذا إذا أراد الله شيئا هيأ له أسبابه؛ أراد الخير لقريش فأرشدهم إلى أسباب تحصيله.

---

1 - تبع: تابعون

2 - ندب: طلب

و قد آلفت قريش هاتين الرحلتين إلى أن جاء الإسلام وهم على ذلك، فأراد الله تبارك وتعالى أن ينبههم إلى تفضله عليهم بتهيئة هاتين الرحلتين، وما انجر لهم بهما من غنى وراحة بال و تخلص من الجوع و سوء المآل.

و ما الذي جعلهم يألفون هاتين الرحلتين؟

هو الأمن الذي وفره الله لهم في إقامتهم وفي أسفارهم؛ فهم في بلدهم آمنون وفي بلاد غيرهم آمنون لا يخافون مما يخافه الآخرون، فقد كانوا يجوبون مضارب العرب شمالا وجنوبا وشرقا وغربا دون أن يفكر أحد في الاعتداء عليهم أو الإغارة على قافلتهم، و ذلك بما زرعه الله -تعالى- في نفوس العرب من احترامهم بوصفهم جيران بيت الله و سكان حرمه، بينما لا يأمن الناس على أنفسهم القتل أو الاختطاف ولا على أموالهم السلب والاغتصاب و صدق الله -تعالى- في قوله: ﴿**أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا، ويتخطف الناس من حولهم؟ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون**﴾ العنكبوت 67.

وفي قوله: ﴿**أولم نمكن لهم حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ القصص57.

والجار و المجرور في قوله -تعالى-: ﴿**لإيلاف قريش**﴾ متعلقان بالفعل "يعبد" من قوله-تعالى-﴿ **ليعبدوا**﴾ واللام في(لإيلاف) للتعليل وحق الجار والمجرور أن يتأخرا عن عاملهما وهو هنا " يعبد" ولكنهما قدما من أجل الاهتمام

بمضمونها وهو الإيلاف الذي يسره الله لقريش، و(اللام) في قوله - تعالى-" فليعبدوا" لام الأمر، والأمر هنا للوجوب، و المعنى:يجب على قريش أن يتوجهوا بعبادتهم لله وحده لأنه هو الذي جعلهم يألفون رحلتي الشتاء و الصيف وذلك بصرف الناس عن إيذائهم.

وماذا صنعت لهم أصنامهم حتى يشركوها مع الله ﷻ في عبادته؟

والفاء في قوله -تعالى- ﴿ **فليعبدوا** ﴾ مؤذنة بأن ما قبلها في قوة الشرط، ومعلوم أن الشرط يقتضي جوابا، والجواب يقتضي أن يكون مصدرا بهذه الفاء، وتقدير الكلام "على هذا التأويل": إن لم تعبد قريش رب هذا البيت لسائر نعمه عليهم، فليعبدوه لهذه النعمة وحدها الجديرة بالشكر وهي إيلافهم هاتين الرحلتين؛ وغني عن البيان أن المراد بهذا البيت الكعبة المشرفة، وفائدة ذكره لهم تنبيههم إلى أن هذا البيت هو السبب في رفعة شأنهم بين العرب، ولولاه ما استحقوا هذا الفضل وما احترمهم الناس، ولذلك يجب عليهم أن يستحيوا منه حين يعبدون غيره.

﴿ **الذي أطعمهم من جوع** ﴾

إطعامهم من جوع هو علة ثانية لأمرهم بعبادته وحده بعد العلة الأولى وهي الإيلاف. و إطعامهم إشارة إلى ما أغدقه الله عليهم من الأرزاق التي كانت

تترى عليهم من اليمن والشام والحبشة، وإلى ما يسره الله لهم من الأسواق التجارية كسوق عكاظ، ومِجَنَّة وذي المجاز.

﴿ وءامنهم من خوف﴾

تأمينهم من خوف علة ثالثة لأمره إياهم بتوحيده في العبادة، وهو إشارة إلى ما ألقى الله في نفوس العرب من حرمة مكة وأهلها فلا يروعهم أحد، وخصوصا بعد حادث الفيل، و ما أعقبه من عبرة بالغة لكل من حدثته نفسه بالاعتداء على البيت و مجاوريه.

وتوفير الله لقريش الأمن والإطعام هو استجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام، وقد وردت في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿**و إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر**﴾ الآية 126.

ولم يذقهم الله الجوع إلا حين دعا عليهم نبينا محمد ﷺ في أول هجرته إلى المدينة المنورة فقال: (اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف)رواه الشيخان، فأصابهم القحط وأجدبت الأرض وفقدت الأطعمة حتى أكلوا الجيف.

و رأوا أن ذلك حصل لهم بسبب دعوة محمد عليهم، فبعثوا إليه يرجون أن يدعو الله لهم ووعدوه أن يسلموا إذا رفع الله عنهم هذا الضر ولكنهم لم يفعلوا بعد رفع البلاء عنهم.

ما يستنبط من السورة :

يستنبط من السورة الكريمة أن ما يتمتع به الإنسان في هذه الحياة من قوت يبني به جسمه ويحافظ عليه وأن ما يشعر به من أمن على نفسه وماله وأولاده، هو نعمة من ربنا تستوجب شكرا يظهر في تخصيصنا إياه بالعبادة، أي الإذعان له وحده في كل ما به أمر واجتناب ما عنه نهي.

ومعلوم لدى كل مسلم أن شكر النعمة يؤدي إلى المزيد منها، و أن كفرانها (أي جحودها و عدم الاعتراف لمسديها) يؤدي إلى سلبها و العقوبة عليها . قال -تعالى- في سورة إبراهيم: ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد**﴾ الآية 07، وقال -تعالى- في سورة النحل: ﴿**وضرب الله مثلا قرية كانت ءامنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾الآية 112 .

فاللهم ألهمنا شكر نعمتك وأعنا على طاعتك، آمين.

سورة الماعون

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

هي مكية في بعض الروايات، ومدنية في روايات أخرى، أو نصفها الأول مكي، والثاني مدني، و هي بالقرآن المدني أشبه من حيث موضوعها، فالحديث عن النفاق والرياء و من اتصف بهما لم يظهر إلا في المدينة المنورة، أما في مكة المكرمة فلم يكن إلا كافر صريح الكفر، أو مؤمن صريح الإيمان.

وآياتها سبع.

﴿ أرءيت الذي يكذب بالدين؟﴾

الجملة استفهامية، ومن القراء من حقق الهمزتين، همزة الاستفهام وهمزة الفعل، التي هي عين الكلمة، و منهم من سهل همزة الفعل بالألف، ومنهم من أبدلها ألفا.

رأيت: بمعنى أبصرت أو عرفت؛ **الدين**: (هنا) الحساب والجزاء على أعمال الدنيا في يوم القيامة، والخطاب موجه إلى كل من يصلح له، و معنى الآية: هل

عرفت أيها السامع الشخص الذي يكذب بالجزاء في الدار الآخرة؟.والغرض من الاستفهام تعجيب السامع من حال المكذب وتوقيفه ليجول بفكره حول من يراه متصفا بهذه الصفة وهي التكذيب بالدين وفي ذلك من التشويق إلى معرفة الجواب مالا يخفى.

﴿ فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين﴾

الفاء: رابطة لجواب شرط محذوف تقديره: إن لم تعرفه (أي المكذب بالدين) فهو ذلك الشخص الذي يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين.

اليتيم: من فقد أباه. و **الدَّعُّ** : الدفع الشديد، ومنه قوله -تعالى- في سورة الطور:﴿ **يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعا**﴾ الآية13، والمراد هنا دفع اليتيم عن حقه، ونهره إذا طلب الإحسان، كما كان الأوصياء على اليتامى وغلاظ القلوب من غيرهم يفعلون في جاهليتهم، وكان العرب قبل الإسلام لا يورثون الصبيان والنساء ويقولون إنما يحوز المال من يطعن بالسنان، و يضرب بالحسام.

والآية صريحة في أن دفع اليتيم عن حقه ومعاملته بعنف من أمارات التكذيب بيوم الدين وما فيه من جزاء على الأعمال، والعكس صحيح، وهو أن الإحسان إلى اليتيم ومعاملته بلين دليل الإيمان بيوم الدين.

وليس من الإساءة التي يتحرج منها الوصي على اليتيم، استعمال الغلظة معه أحيانا كما يستعملها مع أبنائه و بناته بقصد تربيتهم وتكوينهم في صغرهم تكوينا ناجحا ليجعلهم رجالا صالحين ونساء صالحات، فالتربية لا يجوز أن تكون قاصرة على جانبها المادي المتجسم في البدن و تنميته والعناية به والاستجابة لما يتطلبه من دواء وعلاج، بل تعم جوانبها الأخرى المتمثلة في التنشئة الروحية والنفسية و الفكرية والجمالية، و ذلك بالتعاون مع المدرسة في مراحلها المتتالية.

قال ابن العربي (في أحكام القرآن الجزء الأول): "و في الأثر : ما كنت تؤدب منه ولدك فأدب منه يتيمك".

﴿ولا يحض على طعام المسكين ﴾

الحض على الشيء : الحث على فعله.

المسكين: هو الفقير الذي يعدم أحيانا حتى قوت يومه، والمسكين الحقيقي الجدير بالإنفاق عليه قد بينه الرسول ﷺ بقوله: (ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان، و التمرة والتمرتان،و لكنه الذي لا يجد غنى يغنيه، و لا يفطن له فيتصدق عليه و لا يقوم فيسأل الناس) رواه الإمام أحمد، و الذي يحض غيره على طعام المسكين يفترض فيه أن يحض نفسه على ذلك، إلا إذا كان عاجزا.

ومما يدخل ضمن الآية الكريمة تلكم الجمعيات الخيرية التي يؤسسها أصحابها لدعوة الناس إلى التبرع على ذوي الفاقة، والإنفاق على مشاريع الخير.

وإذا كان عدم الحض على طعام المسكين من أمارات التكذيب بالدين، فإن الحض عليه من أمارات التصديق به، وفي الآيتين تحذير للمسلمين من احتقار اليتيم وأكل ماله، والبخل على المسكين و عدم الإحسان إليه، وفيهما إيماء إلى أن الإيمان الحق بالبعث والجزاء لا بد أن تظهر آثاره في الخارج ممثلة في الإقدام على الأعمال الصالحة، والكف عن الأعمال السيئة وإلا كان كالعدم!.

﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾

الويل: إيعاد بالهلاك، وتهديد به، **والذين**: اسم موصول، وهو مع صلته صفة مخصصة للمصلين، لأن الويل لا ينال جميع المصلين، و إنما ينال مصلين خاصين وهم الساهون عن صلاتهم أي الغافلون عنها.

وينطبق ذلك على المنافقين الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر؛ فهم يتركونها رأسا في خلوتهم، ويؤدونها في علانيتهم، ولكنهم لاهون عنها بقلوبهم، لأنهم لا يؤمنون بها، ومن ثَمَّ فهم لا يرجون لها ثوابا، ولا يخافون عليها عقابا، وإذا تظاهروا بها فعلى سبيل التقية، أي الحفاظ على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وليس من هؤلاء الذين ينسون أداء الصلاة في وقتها المحدد حتى إذا تذكروها صلوها قضاء وهم آسفون مستغفرون نادمون، ولا الذين يزيدون في صلاتهم بعض أفعالها أو ينقصونها سهوا ثم يرقعونها حسب الكيفية المعروفة في الفقه، لأن هذا السهو لا يكاد ينجو منه أحد، وهو معفو عنه ، والحمد لله. و هاهو الرسول

ﷺ نفسه يسهو في صلاته، ولكن سهوه كان من قبل التأمل العميق فيما يقرأ، والتفكر في عظمة الله ﷻ وقد يُنَسَى أحيانا من أجل التشريع لقوله ﷺ : (إني لأنسى أو أُنَسَى لأسُن). رواه مالك في الموطأ.

ومن أجل التفريق بين السهو ين: السهو المؤاخذ عليه، والسهو المعفو عنه عُدِّي لفظ (ساهون) إلى معموله بواسطة حرف الجر (عن) دون الحرف (في) لأن (عن) تفيد بعدهم عن الصلاة الصحيحة المقبولة عند الله و لو كانوا متلبسين بشكلها، و هذا هو المقصود في الآية الكريمة، بخلاف الحرف (في) الذي يفيد معنى الظرفية وكفى.

ومع هذا يجب تحذير أولئك الذين تشبه صلاتهم صلاة المنافقين من حيث فراغ قلوبهم من الخشوع لله تعالى فيها، وعدم استحضاره في نفوسهم، ومن حيث أداؤها بسرعة منكرة؛ فهم ينقرونها نقر الديك للحب؛ لا يتمون ركوعها ولا سجودها، ولا يعتدلون ولا يطمئنون بعد ركوعهم و سجودهم، همهم استعجال الانصراف منها بالسلام، فهؤلاء صلاتهم باطلة مردودة على وجوههم كما ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد وينسحب عليهم التهديد الوارد في الآية الكريمة.

والفاء في (فويل) سببية، إذ أفادت أن ما بعدها -وهو الويل الذي يصيب الساهين عن صلاتهم المرائين بأعمالهم المانعين لفضول أموالهم متسبب- عن تكذيبهم بالدين، وما نجم عنه من معاملة عنيفة لليتيم وشح بالإحسان إليه.

وقد يتساءل القارئ المتمعن فيقول (الذي) في الآيتين الأولى والثانية دال على المفرد فكيف عُدل عن هذا الإفراد إلى صيغة الجمع في قوله -تعالى- (للمصلين) وما بعده من نعوت؟ وكان حق التركيب الكلامي أن يكون هكذا (... فويل للمصلي الذي هو ساه عن صلاته ..الخ و الجواب: أن لفظ الذي قد يدل على الجنس، والجنس يعم أفرادا متعددين فكأنه قال أرءيت الذين يكذبون بالدين ؟ فهم أولئك الذين يدعون اليتيم، و لا يحضون على طعام المسكين، فويل للمصلين ...وإذن فاختلاف الصيغتين: صيغة الإفراد، وصيغة الجمع ليس مخلا بانسجام الكلام.

وقد يقال أيضا لم وضع الاسم الظاهر (المصلين) موضع الضمير، وكان حق الكلام أن يكون هكذا "(فويل لهم؟) و الجواب: أن العدول إلى الاسم الظاهر يوحي بأن من حكم الصلاة أنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر (ومن قبيل المنكر دع اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين)، ولكن هؤلاء لم تنههم عن المنكر، ومن ثم لم تتحقق في نفوسهم الحكمة من شرعها وعليه فلا قيمة لها في ميزان الله.

﴿الذين هم يراءون﴾

يراءون : يظهرون أعمالا صالحة، و هيآت حسنة، وأقوالا طيبة، ليراهم الناس فيثنوا عليهم، فإذا كانوا بحيث لا يراهم الناس كفوا عن ذلك كله، ثم

استمسكوا بطبعهم اللئيم وهذا هو الرياء قال -تعالى- في حقهم: ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا**﴾. النساء 142.

وليس من الرياء الممقوت، الاجتهاد في القيام بما فرضه الله على العباد أمام الناس، لأن الفرائض هي شعائر الإسلام، والشعائر يجب إظهارها، لتصطبغ المجتمعات الإسلامية بصبغة الإسلام، و إلى ذلك يشير الأثر:(لا غمة في فرائض الله)، أي لا ستر و لا إخفاء لها.

وليس من الرياء المذموم أيضا الأعمال التطوعية التي يقصد المتطوع بها أن يقتدي الناس به في فعل الخير، و ليس منه أن يعمل المسلم عملا يبتغي به وجه الله، فإذا اطلع عليه بعض الناس أعجبه ذلك لما رواه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال : قال رجل : يا رسول الله، الرجل يعمل العمل يُسِره، فإذا اطُّلِع عليه أعجبه قال: قال رسول الله ﷺ : (له أجران أجر السر وأجر العلانية)، إنما الرياء الممقوت أن ينطلق الإنسان في عمله وهو يقصد رؤية الناس له ، أو يشرك مع الله غيره في نيته قال -تعالى-: ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**﴾ الكهف 110.

و لصعوبة اجتناب الرياء يحذرنا ﷺ من تسربه إلى القلوب بقوله: (الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على المسح[1] الأسود).

﴿ويمنعون الماعون﴾

الماعون: الشيء اليسير الهين[2]، و قد فسر بالزكاة لأن القدر المدفوع من المال لمستحقيه يسير هين على رب المال و فسر أيضا بما يتعاوره الناس عادة من أدوات كالصحن و القدر والدلو و المقدحة و المسجاة الخ و بما لا يجوز منعه و هو الماء والنار و الملح.

و من صفات المنافقين أنهم كانوا ينفقون الكثير على أعين الناس، ويبخلون بالقليل في غيبتهم، قال الله -تعالى- في وصفهم: ﴿**ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون**﴾ التوبة54.

وفي مضمون السورة تحذير المؤمنين الصادقين من صفات أولئك المكذبين بالدين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وفيها حث للمسلمين على التكافل فيما بينهم، وتأكيد لشمول الإسلام لجميع مناحي الحياة، وربط بين العقيدة والعمل بمقتضاها، فمن كان مؤمنا -حقا- باليوم الآخر، فليستعد له بالعمل الصالح مع الإيمان الصحيح الراسخ.

---

1 - المِسحُ: كساء أسود من الشعر

2 - و منه المثل: " ما له سعنة و معنة "

سورة الكوثر

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

هي مكية في بعض الروايات، ومدنية في روايات أخر، والأول أرجح. وآياتها ثلاث. وهي أقصر السور من حيث عدد كلماتها وحروفها، أما من حيث الآيات فإن سورتي العصر والنصر مثلها، إذ يشتمل كل منهما على ثلاث آيات، وهي إحدى السور الثلاث الخاصة بنبينا محمد ﷺ والسورتان الأخريان هما الضحى والشرح.

ومناسبتها لما قبلها أنه ذكر في الأولى بعض أوصاف المكذب بالدين، وهي احتقار اليتيم والبخل على المسكين، و الإعراض بالقلب عن الصلاة والمراءاة بها و بغيرها مع الشح بالأشياء التافهة، ومنها النسب المالية التي تؤخذ من المال المزكي وهي ضئيلة لا تجحف بالمزكي.

وفي هذه ذكر أشد الناس إيمانا بالجزاء على الأعمال في يوم الدين، وقد أمر بالاستمرار في إخلاص العبادة لله وحده وبالإحسان إلى عباد الله مع تبشيره بما سيغدقه عليه من النعم في الدنيا والآخرة زيادة على ما حصل له قبل نزول السورة، مؤكدا له الفوز على أعدائه، وإعلاء قدره وسوء مآل شانئيه و مبغضيه.

وهذا في مقابل الويل الذي توعد به المنافقين المرائين في السورة السابقة.

كان العرب -في جاهليتهم- يعتزون بالذكور من أولادهم لشعورهم بأنهم عدتهم في حياتهم، واستمرار لهم بعد مماتهم، يذكرون مناقبهم وينشرون مفاخرهم.

وقد رزق نبينا ﷺ في مكة من خديجة رضي الله عنها ابنين هما القاسم وعبد الله وأربع بنات هن زينب وأم كلثوم و رقية و فاطمة، و قدر الله ﷻ أن يموت ابناه في مكة وهما صبيان الواحد بعد الآخر، فجعل بعض سفهاء قريش وطواغيتها من أمثال العاص بن وائل و عقبة ابن أبي معيط و أبي لهب و أبي جهل كلما مات واحد منهما قالوا بتر محمد، وتباشروا بذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن الأب إذا مات ولم يترك أبناء بعده يذكرونه مات ذكره في الناس و انتهى أمره، و لقب بالأبتر، ولهذا قال العاص بن وائل لقومه: (يهون عليهم أمر محمد ﷺ) دعوه فإنه أبتر يموت بلا عقب، ومن ثم ينتهي أمره وتنقطع دعوته و يموت ذكره.

﴿ إنا أعطيناك الكوثر﴾

إن: حرف يؤكد معنى الجملة، والغرض من التأكيد الاهتمام بهذا المعنى، وضمير(نا) عائد إلى الله سبحانه، و استعمال ضمير الجمع بدلا عن ضمير المفرد للتعظيم، وإلا فإن الله واحد فرد، وكاف الخطاب للنبي ﷺ.

الكوثر: كلمة على وزن فَوْعَل، تدل على الشيء الكثير من العدد أو القدر أو الخطر، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك ؟ قالت : بكوثر؛ ويطلق (الكوثر) أيضا على السيد الكثير الخير، الذي ينفع الناس، قال الكميت يمدح أحد الكرماء:

و أنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

والكوثر بمعنييه السابقين ينطبق على النبي ﷺ فهو سيد كثير النفع لعباد الله وقد وهبه الله الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن الخير الكثير في هذه الدنيا: النبوة، والرسالة، والقرآن الكريم، والحكمة، وكثرة الأتباع (الذين استولى حبه على قلوبهم، وجرى ذكره على ألسنتهم فهم يصلون ويسلمون عليه بمناسبة وبغير مناسبة)، واشتراط ذكر اسمه ﷺ مع ذكر اسم الله سبحانه في شهادة الدخول إلى الإسلام، وفي شهادة الأذان، والإقامة، وشهادة الخطب الدينية، ومن كوثر الآخرة النهر الذي وعده الله إياه (متعنا الله بوروده)، والمقام المحمود وهو مقام الشفاعة العظمى، جعلنا الله من أهلها.

جاء في صحيح البخاري عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: إن ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه.

و التعبير بصيغة الماضي في(**أعطيناك**) مع أن معظم الكوثر لم يكن قد حصل له حين نزول السورة يجاب عنه من وجهين:

1.أن الله -سبحانه- أخبر بما قدره في علمه الأزلي لخاتم أنبيائه من الخير الكثير الذي سيحظى به.

2.أن الله -سبحانه- وعد نبيه بهذا الكوثر ووعد الله لابد من وقوعه وإن طال الزمن، فكأنه حصل بالفعل. وهذا على حد قوله -تعالى- في مبتدأ سورة النحل: ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه...**﴾

ومعنى الآية: أن الله -تعالى- أكد لنبيه مبشرا إياه بأنه قدر له الكثير من خيري الدنيا والآخرة.

﴿ **فصل لربك و انحر**﴾

الفاء: تفريعيه، فرعت ما بعدها على ما قبلها، أي رتبت الصلاة والنحر على إعطائه الكوثر، بمعنى أن مطالبته بالصلاة والنحر سببها إنعام الله عليه بالكوثر، والصلاة المأمور بها قد تكون صلاة خاصة وهي صلاة العيد وقد تكون عامة في كل صلاة سواء أكانت فريضة أم نافلة.

النحر: طعن الحيوان في لبته، والمراد ما يشمل الذبح وهو قطع ودجي الحيوان وحلقومه ومريئه، ومن المعلوم أن النحر للإبل، والذبح للغنم، وأن البقر

يجوز فيه الأمران، والنحر قد يكون المراد به نحر عيد الأضحى، ويحتمل أن يكون عاماً في كل نحر.

واللام في (لربك): يفيد الاختصاص، أي اختصاص الصلاة والنحر بربك دون سواه، والأصل في تركيب الآية أن يكرر الجار والمجرور (لربك) بعد قوله- تعالى: ﴿ **وانحر** ﴾، فيكون على هذا النحو (فصل لربك وانحر لربك)، ولكنهما لم يكررا اكتفاء بذكرهما أولا لتجنب الثقل.

ومثل ذلك قوله -تعالى- في سورة مريم: ﴿ **أسمع بهم و أبصر...**﴾ الآية 38، أي و أبصر بهم، والأصل -أيضا- في تركيب الكلام أن يؤتي بضمير الجلالة (نا) بدل الاسم الظاهر (رب)، فيقال (**فصل لنا و انحر...**)، ولكن وُضِع الاسم الظاهر موضع الضمير للإيحاء بأن ربوبيته للعبد و تربيته بشتى النعم هي التي تستوجب تخصيصه بالعبادة شكرا له على ما أفاض من النعم، وأعظمها -بالنسبة للنبي ﷺ- الكوثر.

وإضافة كاف المخاطب إلى (رب) لتشريف النبي ﷺ.

ومعنى الآية: في مقابل الكوثر الذي أعطاك الله إياه، يجب أن تتوجه إليه وحده بالشكر، وذلك بإخلاص العبادة له فلا تصل إلا ابتغاء وجهه، ولا تقدم قرابينك من الحيوانات -وغيرها- إلا طلبا لمرضاته وحده دون سواه، مخالفا

بذلك عادات المشركين من توجههم إلى آلهة مزعومة لا تنفع ولا تضر، ولا تقدم ولا تؤخر، ولا قدرة لها على الخلق والرزق والإحياء والإماتة.

وقد يخطر بالبال هذا السؤال: هل كان النبي ﷺ لا يصلي لله، ولا ينحر له، قبل نزول هذه الآية ؟ والجواب عليه أن أمره -تعالى- لنبيه ﷺ بالصلاة له والنحر معناه الدوام والاستمرار أي دم على ما أنت عليه من الإخلاص لربك ولا تلتفت إلى ما عليه قومك من الشرك و الكفر بأنعم الله عليهم.

ومثل هذه الآية في إخلاص التوجه إلي الله -تعالى- قوله تعالى في سورة الأنعام:﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي و مماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين**﴾ الآية 163.

وفي الآية تحذير للمسلمين من المراءاة بالعبادة، وطلب السمعة والتقرب بالذبائح والنحائر لأي مخلوق مهما جل قدره وعظمت منزلته، ولا يحل ذكر اسم هذا المخلوق مع ذكر اسم الله على جَزُور[1] أوذِبْحٍ[2].

1- الجزور: الحيوان الذي أعد للنحر

2 - الذبح-بكسر الذال- الحيوان الذي أعد للذبح-بفتح الذال.

﴿ إن شانئك هو الأبتر﴾

الشانئ: هو المبغض أي الذي يبغض غيره، ويكرهه يقال شنأه - يشنؤه- شنأ وشنآنا، فهو شانئ، وذاك مشنوء، و منه قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا**...﴾ الآية 08.

وحقيقة (**الأبتر**) أنه الحيوان الذي قطع ذنبه، يقال بتره- يبتره- بترا فهو أبتر، وأُجرى مجراه الإنسان الذي مات ولم يترك عقبا، أي ابنا أو أبناء يذكرونه بعد موته، فهو يشبه الحيوان الأبتر من حيث انقطاع ذكره، وذلك يعدونه نقصا، ثم أطلق هذا اللفظ على الإنسان الذي لا خير فيه كأن خيره انقطع عن الناس فهو ابتر بهذا المعنى.

واستنادا إلى قوله ﷺ : (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر) . قالوا في الخطبة التي ألقاها زياد بن أبيه، ولم يفتتحها بحمد الله (البتراء) أي الناقصة.

والمعنى أن الذي يبغضك يا أيها الرسول ويكرهك هو المقطوع ذكره، المحروم من كل خير، ولست أنت فقد رفع الله ذكرك في الأولين والآخرين، وآتاك ما لم يؤت أحدا من العالمين.

وقد تحقق وعيد الله في هؤلاء الشانئين لمحمد ﷺ فقد ماتوا شر ميتة، ولم يذكرهم أحد بكلمة خير، وإذا ذكروا فذكرهم مقرون باللعنة، وحتى أبناؤهم كانوا يكفون عن ذكرهم لأنهم أسلموا وتبرءوا من أعمالهم وعقائدهم الفاسدة.

وبما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن كل شانئ للنبي ﷺ يدخل في هذا الحكم، ومما يجدر ذكره أن شانئي محمد ﷺ، لم يشنئوه لذاته، فإنه كان محبوبا عندهم، وإنما شنئوه من أجل الحق الذي جاءهم به من عند الله، وصدق الله في قوله: ﴿ ... **أم يقولون به جِنة؟ بل جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون**﴾ المؤمنون80.

وليتعظ بهذا أولئك الذين يزعمون أنهم من أتباع محمد ﷺ ومحبيه، ولكنهم يتجاهلون بعض سننه الثابتة بالأدلة القطعية وهي حق! ويتمسكون بضدها وهي بدع باطلة، ويستندون في هذا الباطل إلى إلف الناس إياها واستحسان فلان لها، ولا يشعرون بأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، و أن الحق أحق أن يتّبع.

أحكام فقهية وتصحيح مفاهيم:

إن عطف (النحر) على الصلاة في قوله -تعالى -: ﴿ **فصل لربك وانحر**﴾ يفيد وجوب الإخلاص لله تعالى في النحر كوجوبه في الصلاة ولا وجه للتفريق بينهما، غير أن إلف بعض الناس للنحر لغير الله وتعودهم ذلك جعلهم يتغاضون

عن هذه المخالفة، وقد يستندون في استمرارهم على هذه الفعلة إلى فتاوي تبررها لهم تأويلات يرفضها العلم الصحيح و التوحيد الخالص...

وعلى هذا، لو قدر أن رأى الناس شخصا يصلي لغير الله، لاتهموه بالشرك أو النفاق دون استفتاء -وحق لهم ذلك- و لكنهم يرون الذبائح والنحائر يتقرب بها لغير الله في كثير من بلاد الإسلام فيتغاضون عن هذا المنكر، وكان ينبغي أن يكون التشنيع على الفعلين واحدا!

وفضلا عما في هذه السورة من التسوية بين الصلاة و النحر في محضهما لله وحده فهناك نصوص شرعية أخرى تؤكد هذا المعنى.

ومن ذلك قوله -تعالى- في سورة المائدة عاطفا على المحرمات: ﴿...**و ما أهل لغير الله به**...﴾ الآية 03، وقوله ﷺ في حديث صحيح رواه الإمام مسلم: **(لعن الله من لعن والده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثا، ولعن الله من غير منار[1] الأرض)**.

وربما تعلل البعض بأن ما يقدم للأضرحة و الأموات من ذبائح يذكر اسم الله عليها وذابحها مسلم وأنها من الصدقات، وهذا التعليل باطل لا يرفع الحرمة لأن المعول عليه النية ولا يكفي اللفظ إن خالف النية، جاء في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر**

1 - منار الأرض : علامات توضع بين الأرضين.

إلى قلوبكم و أعمالكم). واعتمادا على التوجيه النبوي الذي نجده في هذا الحديث الشريف وأمثاله، نرى علماءنا يرجحون النية على اللفظ في الأحكام الفقهية، وعلى سبيل المثال أذكر قول الشيخ خليل في مختصره - في اختلاف نية المصلي مع لفظه-: (وإن تخالفا فالعقد).

وربما قال بعضهم : نحن علينا أن نحكم على الظواهر و الله متولي السرائر، نعم هذا القول صحيح في حد ذاته ومسلَّم به فالله وحده العليم بذات الصدور، ولكن هناك ظواهر تعبر عما استكن في الضمائر، وأعمال ظاهرة ممنوعة في حد ذاتها بغض النظر عن نية أصحابها.

منها أن هذه الحيوانات المتقرب بها تنسب إلى المخلوق لا إلى الخالق، فيقال: هذا بعير فلان و هذا بعير فلتان الخ...

ومنها أن الإطعام إنما يكون عند الضريح أو بجواره حتى إذا كان بعيدا سيق إليه الحيوان ليذبح أو ينحر هناك، و هذا هو الهدي الذي يقول عنه علماؤنا (الهدي لغير مكة ضلال)، ونبينا ﷺ يقول: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى). رواه الشيخان.

و منها أن مقدار المبلغ المالي الذي يشارك به كل فرد من أفراد القبيلة يجبر على دفعه ولو كان كارها أو غير مستطيع، وإذا دفع أقل مما حدد له رد على وجهه، وأسمع من اللوم الشيء الكثير مما يجعله يقصد المخلوق لا الخالق.

ومنها أن الباعث على هذا الإطعام ربما كان التباهي، والتفاخر، وطلب المحمدة، والشكر من الناس، ومن ثم يذهب هذا العمل هباء منثورا لا قيمة له عند الله.

ومنها أن الرجل قد يرفض الإسهام في هذه البدعة ثم يصاب بمرض مّا بسبب من الأسباب، فيعتقد الجهلة أن ما أصابه كان نتيجة لغضب الولي عليه وهذا من الشرك بالله.ومنها أن لحم الحيوانات المتقرب به قد يبعث به إلى البعيد الذي لا حاجة له فيه، ويحرم منه القريب القرم[1] إلى اللحم، وقد يوزع باعتبار الوجوه، أو باعتبار المبلغ المدفوع إلى أخر ما هنالك من ترهات.

و إذا كان شانئ النبي ﷺ ومبغضه هو الأبتر المقطوع عن كل خير فإن محبه والمقتدي به هو الأكمل الموصول بكل خير.

و للبغض والحب دلائل خارجية تصدر من الإنسان نفسه:

فمن دلائل بغض النبي ﷺ الإعراض عن الشريعة التي جاء بها من عند الله تعالى أو استنكافه عن العمل بمقتضاها، والاستهزاء بها و بمتبعيها

ومن دلائل حبه ﷺ التمسك بسنته سواء أكانت قوليه أم فعلية أم تقريرية وإحياؤها والدفاع عنها، ونبذ كل ما يخالفها مما أحدث في الدين.

1- القرم إلى اللحم: المتشوق إليه.

ومن الحب المزيف أن يزعم بعض المنتمين إلى الإسلام أنهم يحبون رسول الله ﷺ وهم - مع ذلك- بعيدون كل البعد عن منهجه وطريقته، وهم المبتدعة في هذه الأمة، الذين أضافوا إلى الدين ما ليس منه وكأنهم يستدركون على النبيﷺ أو يتهمونه بالتقصير في التشريع أو التبليغ، وهؤلاء هم الذين يتبرأ منهم رسول اللهﷺ في يوم القيامة، ويقول لهم (سحقاً سحقاً[1]) كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد رحمه الله.

قال الله -تعالى- في سورة آل عمران: ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله، فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم، قل أطيعوا الله والرسول، فإن تولوا، فإن الله لا يحب الكافرين**﴾ الآية 32، وقال في سورة الحشر: ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله، إن الله شديد العقاب**﴾ الآية 07. وبمقتضى هذه النصوص القرآنية و النبوية يحكم على دعوى حب النبي ﷺ من حيث صدقها أو زيفها.

1 - سحقاً: بعداً.

سورة الكافرون

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

اشتهرت -هكذا - بواو الرفع في لفظ (الكافرون) على الحكاية.

و تسمى هي وسورة **قل هو الله أحد** المقشقشتين لأنهما تقشقشان من الشرك أي تبرئان منه. يقال: قشقش الهِناء[1] الجرب، إذا أبرأه وأزاله، وتقشقش الجرح، إذا تهيأ للبرء، فمن قرأهما واعتقد ما اشتملتا عليه خلص منه ظاهراً وباطناً، روى عن النبي ﷺ أنه قرأ بهذه السورة وبـ **قل هو الله أحد** في ركعتي الطواف، وفي ركعتي الفجر، وفي ركعتي المغرب،-رواه الإمام احمد- وروي أن رجلا قال للنبي ﷺ أوصني فقال: (اقرأ عند منامك **قل يا أيها الكافرون** فإنها براءة من الشرك) رواه الإمام أحمد بروايات مختلفة.

وهي مكية على أرجح الأقوال وآياتها ست.

1- الهناء: القطران

وسبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان يطوف بالكعبة، فاعترضه بعض كبراء المشركين وهم العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، فقالوا يا محمد: هَلُمَّ[1] فلتعبد ما نعبد سنة، ونعبد ما تعبد سنة فنشترك نحن وأنت في الأمر؛ فإن كان ما تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا حظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فقال:(معاذ الله أن أشرك به غيره) وقالوا: فاستلم[2] بعض آلهتنا نصدقك ونتبعك، فنزلت هذه السورة ليقرأها على ملأ منهم، فيئسوا منه، واشتد أذاهم عليه وعلى أصحابه حتى أنقذهم الله بالهجرة إلى المدينة. (ذكر الرواية ابن كثير في سيرته و تفسيره).

وقبل هذا العرض عرضوا عليه من المال ما يكون به أغنى رجل فيهم، وأن يزوجوه أية امرأة من قريش يرغب فيها، وأن يرئسوه عليهم حتى لا يقطعوا أمراً دونه،كل ذلك على أن يترك هذا الدين الذي جاءهم به وصبأ[3] به عن دين آبائه وأجداده فما كان منه ﷺ إلا الرفض المطلق.

---

1 - هلم: إيت- أقبل.

2 - استلم: المس بيديك الوثن للتبرك به.

3 - صبأ: مال عن دينه إلى دين آخر.

﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾

هناك خمس سور افتتحت بـ(قل) هذه إحداها والأخريات: سورة الجن، وسورة الإخلاص، والمعوذتان، و إذا كان الغرض من السور الثلاث الأولى هو خبر يبلغه النبي ﷺ للناس من عند الله تعالى فإن الغرض من الاثنتين الأخيرتين هو قولٌ يقوله ليعوذ به نفسه من شر الجن والإنس.

والنداء موجه إلى كافرين خاصين-والله أعلم- وهم الذين ساوموه في عقيدته ولا يراد به عموم الكافرين لأن منهم من أسلم ومات على الإسلام، فهو من باب العموم الذي أريد به الخصوص.

ونداؤهم بوصف الكفر الذي كانوا يكرهونه تحقير لهم وبيان لوجه التبرؤ منهم وهو الكفر الذي هو جحود لنعم الله عليهم، و يتمثل هذا الجحود في عبادة غيره من المخلوقات مع أ نهم يعتقدون و يصرحون أن الله ﷻ هو الخالق والرازق لهم ولغيرهم من المخلوقات، قال الله تعالى في سورة الزخرف مسجلا عليهم هذا الاعتراف: ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم؟ ليقولن الله فأنى يؤفكون**[1] ﴾ الآية 87، وفي سورة العنكبوت : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يوفكون**} الآية 61، وفيها أيضاً: ﴿**ولئن سألتهم**

1 – فأنى يؤفكون: كيف يصرفون عن عبادة الخالق إلى عبادة المخلوق.

من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها، ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ الآية63.

وقال -تعالى- في سورة الروم يخاطب عقولهم ليكشف لهم عن باهر قدرته وعظيم إحسانه إليهم مع عجز آلهتهم التام عن أي شيء من ذلك : ﴿ **الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** الآية 39.

﴿ **لا أعبد ما تعبدون و لا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾

هذا هو المقصود بالنداء و"ما" قد تكون موصولة، وهي في الآية الثانية واقعة على أصنامهم، وفي الآية الثالثة دالة على الله ﷻ، والغالب فيها أنها تستعمل لغير العاقل بخلاف (من)، ولعل إيثارها هنا للمشاكلة[1] أو للتفخيم.

ومعنى الآيتين أن الرسول ﷺ يقول لهؤلاء الكافرين: (أنا لا أعبد آلهتكم المزيفة التي تعبدونها، والحال أنكم لستم عابدين إلهي الواحد الأحد الذي أعبده على عكس ما قلتم). ونفي عبادة الله عن الكافرين دليل على عدم جديتهم في عرضهم، فهم كاذبون، وعلامة على أنهم ممن حق عليهم القول.

1- المشاكلة: المماثلة.

﴿ و لا أنا عابد ما عبدتم و لا أنتم عابدون ما أعبد ﴾

ما: هنا قد تكون مصدرية، يسبك ما بعدها بمصدر وتقدير الكلام: ولا أنا عابد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتي، أي ليست عبادتي كعبادتكم، وليست عبادتكم كعبادتي، لأن عبادتي مبنية على توحيد الله وإخلاص التعبد له، وعبادتكم مبنية على إشراك غير الله معه في التعبد، فشتان ما بين العبادتين!

واعتبار (ما) في الآيتين الثانية والثالثة موصولة وفي الآيتين الرابعة والخامسة مصدرية، هو أحد التفسيرين المقبولين، ويصح العكس كما يصح اعتبار نفي العبادة في الآيتين الثانية والثالثة في المستقبل، ونفي العبادة في الآيتين الرابعة والخامسة في الحال مع احتمال العكس، ويصح أن تكون الآية الرابعة تكراراً للآية الثانية والآية الخامسة تكرارا للآية الثالثة وفائدة التكرار التأكيد ومزيد الإفهام، وتكرار الآية أو الآيات للغرض المذكور وارد بكثرة في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى في سورة الرحمن:﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ التي تكررت إحدى وثلاثين مرة، وقوله في سورة المرسلات:﴿ **ويل يومئذ للمكذبين**﴾ التي تكررت عشر مرات وقوله في سورة التكاثر: ﴿**ثم كلا سوف تعلمون**﴾، وقوله في سورة الشرح:﴿**إن مع العسر يسرا**﴾ وقوله تعالى المكرر في القصص القرآني إلى آخره.

﴿ لكم دينكم ولي دين﴾

هذه الآية فذلكة للآيات السابقة، وقد جرت بين الناس مجرى المثل في المفاصلة و المتاركة. والدِّين هنا بمعنى الملة أو بمعنى التدين والتعبد.

وقدم المسند (لكم- لي) في الجملتين على المسند إليه (دين) من أجل إفادة القصر، أي دينكم قاصر عليكم لا يتجاوزكم إلي، وديني قاصر علي لا يتجاوزني إليكم، ونظير هذه الآيــة في المفاصلة بين الموحدين و المشركين قوله -تعالـى- في سورة يونس: ﴿ **وإن كذبوك فقل لي عملي و لكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون** ﴾ الآية 41.

وكلمة (دين) هكذا عند القراء السبعة بحذف ياء المتكلم وصلا ووقفا، ومن القراء العشرة من نطق بها على الأصل أي بإثبات ياء المتكلم (ديني) وصلا ووقفا.

من إيحاءات هذه السورة:

من إيحاءات هذه السورة الكريمة أن المسلم الصادق في تدينه لا يقبل المساومة في عقيدته، ولا يرضى بالدنية في دينه، وهذا هو الثبات الذي يميز المؤمنين المخلصين ويُعِدُّهم لأن يكونوا أئمة متبوعين لا تابعين، شاهدين على

الناس لا مشهودا عليهم، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**﴾. الآية 143.

وديننا الحنيف بقدر ما يحث أتباعَه على التمسك بالحق، والدفاع عنه، ويجعل ذلك من العناصر المكونة للشخصية الإسلامية، ينفر من التلون والمداهنة ﴿**ودوا لو تدهن فيدهنون ...**﴾ القلم الآية 9، ويبغض النفاق والمنافقين: ﴿ **بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة؟ فإن العزة لله جميعا**﴾... النساء الآيتان 138-139.

وليس من باب التمسك بالحق المقبول أن يجمد قادة المسلمين وأئمتهم على مظاهر الأشياء وأشكالها دون النفوذ إلى جواهرها ومضامينها، ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة حيث وافق في- صلح الحديبية- على أمور هي في النظر القريب لصالح المشركين، ولكنها في الواقع البعيد لصالح المؤمنين وكذلك كان.

ومن الأمثلة الرائعة للمرونة التي كان الرسول ﷺ يستعملها مع غير المسلمين بله[1] المسلمين فيما لا يمس العقيدة ومقتضياتها، و الشريعة و أحكامها، أن الرسول ﷺ لما أمر كاتبه أن يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) أصر مفاوض المشركين على محوها واستبدالها بـ(باسمك اللهم) بدعوى أنهم لا يعرفون هذه البسملة التي ينطق بها المسلمون عند بداية أعمالهم، فأمر الرسول ﷺ كاتبه

1- اسم فعل بمعنى دع واترك.

بمحوها واستبدالها (باسمك اللهم) التي يعرفها المشركون، وذلك لا يتناقض مع العقيدة الإسلامية فالرسول ﷺ نفسه كان يستعملها قبل أن ينزل الله في القرآن الكريم (**بسم الله الرحمن الرحيم**).

سورة النصر

سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

سميت بذلك لذكر نصر الله فيها.

وهي مدنية -إجماعا - و لكن اختلفت الروايات في تحديد زمن نزولها، هل هو عند انصراف النبي ﷺ من فتح خيبر؟ أو عند منصرفه من حنين؟ أو وسط أيام التشريق في منى عام حجة الوداع؟ ولعل الرواية الأولى أرجح. والله أعلم.

و قد روي عن سيدنا عبد الله بن العباس ﷺ أنها آخر سورة نزلت من القرآن.

و الجدير بالذكر أن آخر آية نزلت هي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت و هم لا يظلمون**﴾ الآية 281.

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾

إذا : اسم زمان، متى جاء بعده الفعل الماضي أفاد التحقيق، و احتمل معنـــاه الوقوع في الزمن المقبل، و ضمن معنى الشرط، كمـــا يحتمل الوقوع في الزمن الماضي، و يكون - حينئذ- لمجرد الإخبار، ومن الأول قوله تعالى في سورة النساء : ﴿**وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة...**﴾ الآية 101. و من الثاني قوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ...**﴾ الآية 11.

واستعمال (إذا) -هنا- من حيث الزمن يكون باعتبار زمن نزول السورة، فإذا صح نزولها منصرف النبي ﷺ من غزوة خيبر كانت مستعملة للدلالة على وقوع ما بعدها في المستقبل، لأن النصر المعـني وفتح مكـة ودخـول الناس أفواجاً في الإسلام هو في المستقبل بالنسبة لفتح خيبر، وهي هنا مفيدة للشرط، وإذا صح أنها نزلت منصرفه من غزوة حنين أوفي أيام التشريق عام حجة الوداع، كانت للدلالة على التوقيت فحسب، لأن فتح مكـة مضـى قبل حنين.

ونصر الله لنبيه والمؤمنين إعانته إياهم على هزيمة أعدائهم الكافرين.

والفتح : من معانيه الفصل بين المتنازعين بتغليب بعضهم على البعض الآخر، ومنه قوله تعالى (حكاية لدعاء شعيب عليه السلام) : ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا**

بالحق وأنت خير الفاتحين...﴾ سورة الأعراف الآية 88، و من معانيه: دخـــول بلـد العدو و السيطرة على أهله .

وقد حقق الله تعالى لنبيه ﷺ الفتح بمعنييه: فقد غَلّبه على قومه المشركين، وفتح لـه بلـده الأمين، فأعلـى فيها كلمة التوحيد، - و هـي الكلمة الطيبة- ومحق كلمة الشـرك، وهي الكلمة الخبيثة.

وها نحن نرى إشعاع الإسلام ينبعث من بيت الله الحرام من مكـة المكرمـة إلى العالم بأسره منذ فتحت فـي اليوم العشريـن من شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة، فالحمد لله على ذلك.

وبهذا النصر العظيم وهذا الفتح المبين تحقق للرسول ﷺ وللمؤمنين ما كان الله يعدهم به من قبل، قال تعالى في سورة الروم: ﴿ **وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾** الآية 47، وقال في سـورة المجادلة: ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز** ﴾ الآية 21، وفي سورة القصص: ﴿ **إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾** الآية 85، وقال في سورة الصافات: ﴿**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون﴾**. الآيات 171-173.

﴿**ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا** ﴾

رأيت : أبصرت، **الناس**: الظاهر أنهم العرب الوثنيون.

دين الله: الإسلام إذ هو الدين المعتد به عند الله، قال- تعالى- في سورة آل عمران: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ الآية 19، وقال فيها أيضا: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ الآية 85.

أفواجا: جمع تكسير، مفرده فوجٌ وهو الجماعة من الناس.

والخطاب في (رأيت) للنبي ﷺ الذي كان يرى مصداق هذه الآية في أفواج الناس وهم يبايعونه على الإسلام رجالا ونساء في مكة، حيث تجاوز المبايعون الألفين، ثم في المدينة حيث كانت الوفود تقبل عليه من وسط الجزيرة وأقاصيها ليسلموا على يديه ويتفقهوا في دين الله، ثم ليعودوا إلى قومهم ليعلموهم أمور دينهم الجديد المنقذ لهم من الشرك وآثاره السيئة.

ومما يدل على ضخامة عدد المسلمين آنذاك، أن الذين رافقوه إلى مكة لأداء فريضة الحج في السنة العاشرة الهجرية-وهي المسماة- بحجة الوداع كانوا مائة ألف حاج أو يزيدون.

وما الذي كان يحول بين العرب والإسلام قبل فتح مكة بحيث لم يكونوا يدخلون فيه إلا وهم آحاد؟

الجواب: فيما روي عن الحسن ﷺ قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة قالت الأعراب: أما إذ ظفر بأهل مكة -وقد أجارهم الله تعالى من أصحاب الفيل- فليس لكم به يدان - أي طاقة- وفيما رواه البخاري في صحيحه عن عمرو بن

سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء (القبائل) تتلوم (تنتظر) بإسلامها فتح مكة، يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي.

وقال ابن كثير-رحمه الله- في تفسيره: (فلما فتح الله عليه مكة، دخلوا في دين الله أفواجا فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانا (أي انتظم أهلها في الإسلام وانقادوا له) ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة).

وإذا كان الشرط تَضمَّنَ البشرى للنبي ﷺ بالنصر والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجاً، فإن جواب الشرط بين له ﷺ ما يفعله حين يتحقق له ما بشره الله به، وهو أن يكثر من التسبيح والحمد والاستغفار.

والتسبيح أن يقول: سبحان الله. ومعناه تنزيه الله سبحانه وتعالى بالقلب واللسان عما لا يليق به من الصفات التي تتنافى مع كماله، كالعجز والجهل والندم عما يفعله وإخلاف الوعد وإهمال الحق ونسبة الشريك له والولد...إلخ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وحمد الله شكره بالقلب واللسان على ما أولاه من النعم (وهي-هنا- الفتح والنصر ودخول الناس في الإسلام)، والباء في (بحمده) للمصاحبة أي سبح الله وليكن تسبيحك مصحوبا بحمده.

والاستغفار: طلب الغفر أو الغفران وهو ستر الذنوب بعدم المؤاخذة عليها.

- وهل كان للنبي ﷺ ذنوب، حتى يطالبه ربه بالاستغفار منها؟

النبي ﷺ طاهر مطهر، معصوم من الوقوع في السيئات بالمعنى المتعارف عليه، ولكن هناك أشياء بسيطة، تعد على الكُمَّل من الرجال والنساء دون غيرهم، من باب (حسنات الأبرار سيئات المقربين)، ولا شك أن الرسول ﷺ أقرب المقربين عند الله ولذلك يعد عليه ما كان خلاف الأولى مما تقتضيه طبيعته البشرية، ولو أن غيره - من الناس العاديين- فعله ما عوتب عليه.

من أمثلة ذلك ما كان يساور قلبه من الضيق بالشدة والضجر من إعراض قومه عن دعوته، واستبطاؤه لوعد الله له وللمؤمنين بالنصر، ومن ذلك عجز الإنسان -من حيث هو إنسان-عن إيفاء نعم الله المتواترة عليه ما تستوجبه من حمد للمتفضل بها مهما بالغ في الاجتهاد، إذ السهو والغفلة من خصائص الإنسان ولذلك يقول الرسول ﷺ: (إنه ليُغَانُ[1] على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة). رواه مسلم.

وإذا كان الرسول ﷺ وهو المعصوم يؤمر بكثرة الاستغفار والتوبة من أشياء لا تعد سيئات-بالنسبة لعموم الناس، فما بالنا - نحن - و قد طغت سيئاتنا

1- يغان: يغطى.

علـــى حسناتنـــا، و الزاد للآخرة ضئيل والرصيد قليل، فاللهم عفوك أوسع، وفضلك أعم، و كرمك أرجى لنا من أعمالنا، انك سميع مجيب.

و بديهي أن الرسول ﷺ كان يسبح الله و يحمده و يستغفره قبل نزول هذه السورة، و لكن أمره بذلك في هذه السورة يراد به تسبيح خاص، وحمد خاص، واستغفار خاص يهيئه للقاء ربه، ويعده لرفع درجاته عنده في الدار الآخرة، كما قال الله ﷻ مخاطبا له في سورة الضحى: ﴿**وللآخرة خير لك من الاولى**﴾ الآية 4.

وقد فهم النبي ﷺ من ذلك أن نفسه قد نعيت إليه و أن أجله قد اقترب، وأدرك ذلك بعض الصحابة كأبي بكر و عمر والعباس و ابنه عبد الله ﷺ، فعن مقاتل رضي الله عنه لما نزلت سورة النصر قرأها النبي ﷺ على أصحابه ففرحوا واستبشروا، و بكى العباس، فقال له النبي ﷺ: (ما يبكيك يا عم؟ قال: نعيت إليك نفسك، فقال: إنه لكما تقول)؛ ويقال: إن عمر رضي الله عنه لما سمعها بكى وقال: الكمال دليل الزوال. و عن ابن عباس ﷺ فيما يرويه الإمام البخاري رحمه الله: (كان عمر يأذن لأشياخ بدر و يأذن لي معهم، فوجد[1] بعضهم من ذلك وقال: أتأذن لهذا الفتى معنا وفي أبنائنا من هو مثله، فقال لهم عمر : إنه ممن قد علمتم ! قال: فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم، فما رأيت أنه قد دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله ﷻ: ﴿ **إذا جاء نصر الله و الفتح...**﴾. فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله و نستغفره إذا جاء نصرنا و فتح علينا، وسكت

1- وجَدَ: غضب.

بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: كذلك تقول يا ابن العباس؟ قلت:لا. قال: فما تقول ؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك و استغفره إنه كان توابا، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول)؛ و لهذا المعنى كان ابن مسعود ﷺ يسميها سورة التوديع، أي توديع الرسول ﷺ للدنيا لأنها آذنت بقرب وفاته.

﴿إنه كان توابا﴾

توابا: صيغة مبالغة على وزن فعال، من (تاب الله عليه):إذا قبل توبته، وأحسن استقباله في الدار الأخرى، و لما كان الله ﷻ كثير القبول لتوبة عباده أخبر عن ذلك بصيغة من صيغ المبالغة التي تفيد التكثير، و بما أن (توابا) مشتق من(تاب) المتعدي إلى مفعوله بحرف(على) فإن تقدير الكلام (توابا على التائبين من عباده)، (هذا تفسير التوبة من الله على عباده)، وأما قولنا تاب فلان إلى الله بتعدية الفعل إلى مفعوله بحرف (إلى) فمعناه :رجع إليه وأناب من وقوعه في محارمه، وذلك بالاستغفار، و الإقلاع عن المعاصي، و الندم على ما فات، والعزم على عدم العود، ورد المظالم إلى أهلها إن كان منه ذلك.

و الجملة تعليلية لأنها أفادت أن العلة في أمره بالاستغفار كون الله -تعالى- كثير التوبة على عباده رحيماً بهم في أية لحظة يتوبون فيها إليه.

و تأكيد الجملة بـ (إن) للاهتمام بالخبر، وهو كونه تعالى توابا على كل من تاب إليه، واستعمال فعل (كان) هنا يدل على أن هذا الوصف الذي وصف الله به نفسه هو وصف ذاتي له منذ الأزل و إلى الأبد لا يتخلف مدلوله قط، قال تعالى في سورة البقرة في حق آدم: ﴿**فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم**﴾ الآية23.

وبعد نزول هذه السورة كان النبي ﷺ يكثر من التسبيح و التحميد والاستغفار تطبيقاً لما جاء فيها من الأوامر، ففي الصحيحين عن مسروق عن عائشة-رضي الله عنها - قالت:(كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي) يتأول القرآن، وفي صحيح مسلم عنها قالت:كان رسول الله ﷺ يكثر في أخر أمره من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله و أتوب إليه، وقال: إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، و أمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده و أستغفره إنه كان توابا فقد رأيتها: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح...**﴾ السورة كلهـــا.

و مما يدل على فضيلة الاستغفار أنه شرع بعد الصلاة المكتوبة، فعن ثوبان مولى رسول اللهﷺ أنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاث مرات ثم قال: اللهم أنت السلام و منك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام). رواه مسلم.

و أنه شرع للمتهجدين الذين مدحهم الله في سورة آل عمران بقوله ﴿..**والمستغفرين بالأسحار**﴾ الآية 17. و في سورة الذاريات بقوله ﴿..**وبالأسحار هم يستغفرون**﴾ الآية18.

وأنه شرع أثناء الإفاضة من عرفة قال تعالى في سورة البقرة: ﴿...**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس و استغفروا الله إن الله غفور رحيم**﴾ الآية 199.

و أنه جعل – مع التسبيح و الحمد – كفارة لما يقع في المجالس من لغط، واللفظ الوارد في ذلك (سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك و أتوب إليه). رواه مسلم. وروي استحباب هذا اللفظ إثر الوضوء .

و من فضائله أنه يجلو القلوب، يروى عن النبي ﷺ أنه قال: (إن للقلوب صدأ كصدإ النحاس وجلاؤها الاستغفار). و قد رغب فيه النبي ﷺ عند إرادة النوم بقوله: (من قال حين يأوي إلى فراشه أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم و أتوب إليه غفر له ذنوبه و إن كانت مثل رمل عالج[1] و إن كانت بعدد ورق الشجر). رواه الترمذي و ابن ماجه .

و مما جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أن سيد الاستغفار هو: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني و أنا عبدك و أنا على عهدك و وعدك ما

1- عالج: مكان في جزيرة العرب.

استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت).

استنتاجات من السورة الكريمة:

أ)- إن إضافة النصر والفتح إلى الله يفيد أن النصر بيد الله يعز من يشاء و يذل من يشاء، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿... **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، و تنزع الملك ممن تشاء، و تعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير**﴾ الآية 26.

و لا يعني هذا التقاعس عن الجهاد، و التكاسل عن إعداد العدة له ، ثم التوكل على الله في نصرنا - معشر المسلمين- فالتوكل الحقيقي معناه الأخذ بالأسباب، ثم الاعتماد على الله ﷻ في تحقيق المراد و إلا سمي تواكُلا "و ليس توكُّلا"، و الذي يملك الإعزاز و الإذلال قال لنا في كتابه العزيز ﴿ **و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة، و من رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم ...**﴾ الآية 60 من سورة الأنفال.

ولنا في رسول الله ﷺ و صحابته ﷺ الإسوة الحسنة، فقد كانوا يعدون العدة و العدد قبل أن يخوضوا المعارك مع أعدائهم متوكلين على الله حق التوكل، وقد نصرهم الله في كل المعارك، وإن حصل لهم اهتزاز في بعض جولاتها كأحد - مثلا- فلحكمة تنفعهم في مستقبل أيامهم مع خصومهم، ثم كان النصر النهائي

للمسلمين في جزيرة العرب وغيرها، ثم لم يتخل الله عنهم إلا يوم أن تخلوا عنه بالإقبال على الشهوات والعزوف عن الواجبات، فسلط الله عليهم شرارهم يذلونهم و يعنتونهم ويخضعونهم لرغباتهم وسفاهاتهم وحماقاتهم التي يندى لها الجبين، و لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ب)- كل نعمة من الخالق يجب أن يقابلها شكر عملي يناسبها من المخلوق، و الشكر العملي الذي يناسب نصر الله، هو إظهار العبودية المطلقة له، و ذلك بالتواضع لله، و التسبيح له، وتنزيهه عما لا يليق بكبريائه، والالتجاء إليه بطلب العفو وستر الذنوب و التجاوز عن السقطات.

جاء في السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ لما أنعم الله عليه بدخول مكة فاتحا وضع رأسه حتى إن عثنونه[1] كاد يمس واسطة رحله، تواضعا لله ﷻ وكان الهتاف الذي يملأ الأفق في ذلك اليوم المشهود، (لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله، و لا شيء بعده).

ج- في تقديم الأمر بالتسبيح على الأمر بالاستغفار في الآية، إشارة إلى أن حق الله على عباده مقدم على حق العباد عليه، و من أدب الدعاء أن يعظم الله ﷻ ويثنى عليه بما هو أهله أولا، ثم يشرع في الدعاء و طلب الحاجة ثانيا.

---

1 - العثنون: اللحية.

سورة المسد

سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

سميت سورة المسد، لذكر هذا اللفظ فيها، و سورة تبت تسمية لها بأول كلمة فيها، وكذلك تسمى سورة اللهب و سورة أبي لهب.

و هي مكية إجماعا، و آياتها خمس.

و موضوعها: أبو لهب و امرأته، وإيعادهما بالعذاب الشديد، فمن هو أبو لهب؟ ومن هي امرأته؟

أما أبو لهب: فكنيته التي كني بها لتلهب وجهه، ووضاءته، و إشراقه. و أما اسمه فعبد العزى؛ نسبت عبوديته إلى (العزى) التي هي إحدى أصنام قريش المقدسة عندهم، و هو عم النبي ﷺ أخو أبيه عبد الله،و كان من أشد الناس إيذاء لرسول الله ﷺ وللدعوة التي جاء بها.

و من أمثلة إيذائه ما أخرجه الإمام البخاري -رحمه الله- عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل (الصفا) فنادى -بعد أن أُمِرَ بالجهر بالدعوة و إنذار عشيرته الأقربين-: يا صباحاه ، فاجتمعت إليه قريش فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مُصَبحُكم أو ممسيكم ؟ أكنتم مصدقي؟ قالوا:نعم، قال (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)، فقال أبو لهب:ألهذا جمعتنا؟ تباً لك، فأنزل الله: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾. إلخ.

و في رواية :فقام ينفض يديه و هو يقول :تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله هذه السورة، و يروى أنه أخذ حجراً بيده ليضربه به.

ومن أمثلة إيذائه للرسولﷺ ما نقله ابن اسحاق قال: حدثني حسين بن عبد الله بن عبدالله بن عباس قال: سمعت ربيعة الديلي يقول:إني لمع أبي، رجل شاب أنظر إلى رسول اللهﷺ يتبع القبائل و وراءه رجل أحول وضيء الوجه، ذو جُمَّةٍ يقف رسول ﷺ على قبيلة فيقول: يا بني فلان إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً، و أن تصدقوني وتمنعوني حتى أُنفِذ على الله مابعثني به)، و إذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات و العزى وحلفاءكم من الجن، من بني مالك بن أقمس إلى ما جاء به من البدعة و الضلالة فلا تسمعوا له و لا تتبعوه، فقلت لأبي: من هذا ؟ قال:عمه أبو لهب.

ومن أمثلة عداوته للرسول ﷺ أن بني هاشم لما أجمعوا كلهم كافرهم ومؤمنهم بدافع العصبية على حماية محمد ﷺ من قريش التي كانت تريد قتله خرج هو عن هذا الإجماع إلى تأييد قريش في مقاطعتها لبني هاشم اقتصاديا و اجتماعياً وسياسياً حتى يسلموا لهم محمداً لقتله، وكان اسمه مكتوباً مع أسماء زعماء قريش في الصحيفة التي وثقوا فيها تلك المقاطعة.

و من مكره أيضاً، أنه كان خطب بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم لولديه عتبة و عتيبة، وذلك قبل بعثته ﷺ، فلما بعث وانطلق يدعو إلى الله أمرهما بتطليقهما، ليثقل عليه بمؤونتهما في زعمه، ففعلا، ومما سُجّلَ هنا على عتيبة أنه لم يكتف برد زوجته أم كلثوم إلى أبيها فقد أساء إلى النبي ﷺ بكلام بذيء وبزق تجاه وجهه، مما أغضب النبي ﷺ غضباً شديداً وجعله يدعو عليه بقوله: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك.

و تأتي رحلة قريش إلى الشام، ويصحب عتيبة أباه فيها، ولم يكن أبو لهب يخفي على أصحابه خوفه من دعوة محمد ﷺ على ابنه، و لذلك لما اضطروا إلى المبيت ذات ليلة في رحلتهم تلك أناخوا الجمال حولهم لتكون درعاً واقيا لهم مما عسى أن يقع من بعض الحيوانات المفترسة، خصوصا حينما علموا أن الأرض مسبعة، و مما يروى: أن أسداً جاء يتشمم فمر بين الجمال دون أن يؤذيها و قد ألقى الله عليها السكينة فلم تتحرك، ثم بدأ يتشمم الرجال حتى وصل إلى عتيبة فضربه ضربة عنيفة قضى بها عليه.

و إذا صح ماقيل فهو مصداق دعوة النبي ﷺ على عتيبة، ولا يغيبن عن ذهنك أن معنى الكلب في أصل اللغة هو كل سبع يعض، و إنما خصص الحيوان المعروف بهذا الاسم فيما بعد.

و إذا كان عتيبة قد مات على الكفر فإن أخويه :عتبة و معتباً قد أسلما يوم فتح مكة وانضما إلى المسلمين في غزوة حنين و الطائف.

وأما أبو لهب نفسه فقد مات كافراً بعد غزوة بدر الكبرى بسبع ليال وقد أفقده صوابه انتصار المسلمين فيها، و كان سبب موته داء خطير مُعْدٍ قَلَّ من يسلم من أصيب به، يقال له داء العدسة، و هو بثور منتنة تظهر في الجلد، وتتكاثر حتى يموت من ابتلى بها، و هكذا أبو لهب فيما يروى فقد استقذره أهله، وتحاشوا القرب منه، حتى إذا لفظ أنفاسه حفروا له حفرة و دفعوه إليها بالأعمدة ثم ردموه فيها.

وأما امرأة أبي لهب فكانت تكنى "أم جميل" وكانت عوراء واسمها: أَرْوَى بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب، و عمة معاوية بن أبي سفيان، و كانت متعاونة مع زوجها أبي لهب على إيذاء الرسول والمكر به ومحاربة الإسلام الذي جاء به من عند الله، و خصوصاً بعد نزول هذه السورة التي أزرت بها أيما إزراء، وأظهرتها في صورة قبيحة تثير السخرية منها و التندر بحالها، وقد جرت قراءتها على كل لسان، و سارت بها الركبان، مما أشعل نار الغيظ في قلبها على رسول ﷺ

الذي هجاها في -زعمها- بهذا الأسلوب القرآني الذي عَدَّتْهُ شعراً يتسابق الناس إلى حفظه و السير به في طول البلاد و عرضها، و لك أن تتصور مدى تأثير الشعر في قلوب العرب، فهو يرفع الأسافل إلى القمة السامقة حين يكون مدحاً، ويضع الأعالي في الهوة السحيقة حين يكون ذماً أوهجواً.

والواقع أن القرآن العظيم أجمل و أعلى، و أشد تأثيراً في النفوس من الشعر العربي، حتى إن بعض الشعراء هجروا قول الشعر[1]، و أم جميل (و أجدر بها: أم قبيح) كانت معجبة بنفسها مُدِلَّة بحسبها و نسبها، فإذا محمد ﷺ يهبط بها، ويصورها في صورة امرأة تحمل الحطب على ظهرها، و يلف الحبل المربوط به على عنقها؛ من أجل ذلك ما إن سمعت قرآناً يتلى في حقها، و في حق زوجها، حتى أسرعت إلى بيت الله الحرام تبحث هناك عن عدوها المبغَّض إليها لتصب عليه جام غضبها.

وكان من ذلك ما رواه لنا ابن إسحاق قال: (...فذكر لي أن أم جميل -حمالة الحطب- حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة و معه أبوبكر الصديق وفي يدها فِهْرٌ (حجر بمقدار ملء الكف) فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهْرِ فَاهُ، أما والله و إني لشاعرة ثم قالت:

---

1 - بعد أن تذوقوا حلاوة القرآن واستهوتهم بلاغته، وأخذوا بروعة أسلوبه وقوة بيانه.

مذمماً عصينا و أمره أبينا ودينه قلينا

ثم انصرفت فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال:(ما رأتني لقد أخذ الله ببصرها عني).

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال: لما نزلت (تبت يدا أبي لهب) جاءت امرأة أبي لهب ورسول الله ﷺ جالس ومعه أبو بكر ﷺ فقال له أبو بكر :لو تنحيت لا تؤذيك بشيء، فقال رسول الله ﷺ : إنه سيحال بيني وبينها، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ﷺ فقالت:يا أبا بكر هجانا صاحبك! فقال أبو بكر لا ورب هذه البَنِية [1] ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به فقالت:إنك لمصدق، فلما ولت قال أبو بكر: ما رأتك؟) قال: (لا. مازال ملك يسترني حتى ولت).

وبنت حرب هذه حين عدلت عن الاسم الحقيقي لنبي الله و هو محمد إلى اسم مذمّم إنما تساند قريشاً في إطلاق مذمّم على محمد ﷺ لتعييره بذلك وتحقيره كتعييره بـ"ابن أبي كبشة " تنسبه إلى أبي كبشة زوج مرضعته حليمة -رضي الله عنها- عوضاً عن نسبته إلى أبيه عبد الله، وكان ﷺ يقول:(ألا تعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش؟ يسبون و يهجون مذمماً و أنا محمد) رواه البخاري.

1- الكعبة.

﴿ تبت يدا أبي لهب و تب ﴾

تبت:هلكت وخابت:يقال تب،يَتِبُّ، تباً وتباباً، و يقال في الدعاء على العدو تباً له، وتبت يداه تعبيراً عن الذات كلها باليدين من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، لأن أكثر الأعمال تزاول باليدين، و هاهو أبو لهب يتناول حجراً بيده ليقذف به النبي ﷺ بعد انتهائه من الخطاب الذي أنذر به عشيرته في مكة، و هاهو يسير خلف النبي ﷺ في سوق ذي المجاز و يرميه بالحجارة حتى أدمى عراقيبه.

ومن مشتقات الفعل "تب" التي استعملها القرآن الكريم "التباب والتتبيت"، قال الله -تعالى- في سورة غافر : ﴿ **و ما كيد فرعون إلا في تباب** ﴾ الآية 37، فكيده و تدبيره لموسى ومن معه ذهب أدراج الرياح، و عاد عليه بالهلاك؛ فقد غرق وأزهقت روحه، وزالت سطوته، و ما ينتظره في الآخرة أشد وأقسى، قال-تعالى- في سورة هود: ﴿ **و ما زادوهم غير تـتبيب**﴾ الآية 101، فالمعبودات الباطلة لم تزد عابديها إلا هلاكا" في الدنيا و الآخرة، و لعل العدول عن اسم عبد العزى إلى كنيته:أبي لهب يراد به التناسب بين لهب وجهه الذي يقصد به وضاءته، و لهب جهنم الذي يقصد به ألسنتها الملتهبة.

هذا إلى أن اسمه (عبد العزى) فيه إسناد العبودية لغير الله وهو مالا يتناسب مع عقيدة التوحيد التي جاء بها القرآن.

و **تب**: الأولى دعاء عليه بالتب، و" تب" الثانية إخبار بحصول هذا التب له.

و ما سبق في علم الله لا بد أن يحصل، و قد حصل لأبي لهب في الدنيا ما أخبر الله عنه، وسوف يحصل له في الآخرة دون ريب، و في الآية رد على أبي لهب في قوله للنبي ﷺ تباً لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟

﴿ ما أغنى عنه ماله و ما كسب﴾

ما: (الأولى) يصح أن تكون نافية، فقد نفت أن يغني عنه ماله أيّ إغناء، أي: لا ينفعه بشيء مما كان يطمع فيه و هو أن يفتدي به من عذاب الآخرة، ويصح أن تكون استفهامية أي: ماذا أغنى عنه ماله؟ و هو استفهام إنكاري، و ما (الثانية) يصح أن تكون موصولة صلتها فعل "كسب" المحذوف مفعوله وهو ضمير الغائب أي: و الذي كسبه.

و يصح أن تكون مصدرية، أي يُسْبك الفعل بعدها بمصدر أي (وكسبه).

و الكسب قد يراد به المعنى المصدري، أي عملية الكسب و التحصيل، وقد يراد به معنى اسم المفعول أي و مكسوبه، وهو حصيلة عمله، ثروة كانت أم وجاهة أم ولداً، و يدخل الولد في الكسب بمقتضى الحديث الشريف؛ فعن عائشة

أم المؤمنين -رضي الله عنها- فيما يرويه أبوداود-رحمه الله - أن رسول الله ﷺ قال: (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه و إن ولده من كسبه).

وفي الآية رد على أبي لهب فيما كان يقوله - بعد أن أنذره النبي ﷺ بعذاب الله-: إن كان ما يقوله ابن أخي حقاً فإني أفتدى منه بمالي و ولدي.

و التعبير في الآية بصيغة الماضي (أغنى) لإفادة التحقيق؛ فكأن القيامة قامت فعلاً وحاول أبو لهب الفداء و لم يقبل منه.

﴿ **سيصلى ناراً ذات لهب** ﴾

هذه الآية بيان للآيتين قبلها فقد بينت نوع التباب الذي سيصيبه.

سيصلى ناراً: يحترق بها و يقاسي حرها، و هو مضارع "صَلِيَ" و مصدره صُلِيٌّ - بضم الصاد وكسرها- واسم الفاعل منه صَالٍ، والأمر اِصْلَ، وقد استعملت هذه الصيغ كلها في مواضع أخرى من القرآن الكريم، من ذلك قوله - تعالى- في سورة الغاشية: ﴿**تصلى ناراً حامية** ﴾، وفي سورة الليل: ﴿**لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى**﴾ وفي سورة مريم: ﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا**﴾ الآية 70، و في سورة الصافات:﴿ **ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم**﴾ الآيتان 162-163. و في سورة يس:﴿ **اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون**﴾ الآية64، ومن مشتقات مزيد (صلي) المستعملة أيضاً في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة النساء:﴿..**فسوف نصليه ناراً**﴾ الآية30 و في سورة

الانشقاق:﴿ويصلى سعيراً ﴾ الآية13 وفي سورة الواقعة: ﴿و تصلية جحيم﴾ الآية94.

والسين الداخلة على المضارع تفيد التنفيس أي توسيع الوقت من الحال إلى المستقبل القريب، وبما أن هذه النار التي تُوُعِّد بها أبولهب تقع في المستقبل البعيد في عرفنا كان الموضع يقتضي(سوف) التي تمحض المضارع للدلالة على المستقبل البعيد ولكن عدل عنها إلى (السين) من باب(كل ما هو آت قريب)،

وعلى حد قوله تعالى في سورة المعارج :﴿ **إنهم يرونه بعيداً ونراه قريبا**﴾الآيتان6-7

ذات لهب: صاحبة لهب أي لها تلهب و اشتعال.

وهناك جناس تام بين لفظ "لهب" الوارد في كنية أبي لهب، و بين لفظ "لهب" الذي وصفت به النار الوارد في قوله تعالى﴿ **ناراً ذات لهب**﴾ وذلك للتناسب بين كنيته ومآله.

﴿**و امرأته حمالة الحطب**﴾

امرأته:زوجته، والكلمة معطوفة على الضمير المستتر في"يصلى" أي يصلى هو وامرأته.

حمالة الحطب: مبالغة في حمل الحطب، وقراءة نافع بالرفع على أنها نعت لـ"امرأته" وقراءة عاصم بالنصب على أنها حال أو منصوبة على الذم.

و يصح في إعراب " امرأته" أن تكون مبتدأ، خبره:حمالة الحطب، ولك أن تعرب (حمالة الحطب) نعتاً لـ امرأته، و الخبر هو الجملة الاسمية (في جيدها حبل).

وماذا يراد بحملها الحطب؟ الحمل المادي أم المعنوي أم هما معاً؟

فقد روي أنها كانت في بعض الليالي تحمل حزمة من حطب الشوك لتزرعه في طريق النبي ﷺ إلى المسجد ليتأذى بذلك.

كما روى أنها كانت تسعى بالنميمة بين الناس لتؤجج نار العداوة بين المسلمين و أعدائهم، و تنغص على المسلمين حياتهم فيما بينهم.

والتكنية بحمل الحطب عن إيقاد نار الفتنة والعداوة بين الناس معروفة عند العرب يقال: هو يحمل الحطب بينهم أو هي...

و لا مانع من قيامها بالجريمتين و إدانتها بهما معاً.

﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾

الجيد: العنق، و **المسد**: الليف، و المعنى:في عنقها طوق مصنوع من حبل مفتول من ليف، و هذا وصف تحقيري لها في الدنيا و إخبار بما تكون عليه في نار جهنم، والجزاء من جنس العمل-و الله أعلم-.

و لعل هذا الطوق الجهنمي الذي تُطَوقُه في الآخرة في مقابل القلادة الثمينة التي كانت تلبسها و تفخر بها و تقول: لأُنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله منها حبلاً من نار، كما قال سعيد بن المسيب ﷺ : وهو جزاء وفاق لما كانت عليه في الدنيا.

- و العبرة التي يجب استخلاصها من السورة هي مآل من يقف في طريق الحق أو يؤذي الناس و يشعل نار العداوة بينهم.

تأملات حـــول السورة الكريمة:

أ) أبو لهب هو العدو الوحيد لرسول الله ﷺ الذي جاء اسمه مصرحاً به في كتاب الله -تعالى- في معرض التشنيع و التهديد، ليكون ذمه قرآناً يتلوه الناس آناء الليل وأطراف النهار إلى نهاية الأعمار،ولعل السبب في ذلك أنه كان أول المحاربين لدين الحق الذي ابتعث الله به سيدنا محمداً ﷺ .

و معارضة الأقارب أشد خطراً على الدعوة الجديدة من معارضة الأباعد، ذلك أن الناس حين يرون العم يرد رداً عنيفاً على ابن أخيه، و يقبح ما أخبرهم به، و يشهر بكذبه المزعوم في كل مجمع و بأساليب المكر و الدهاء يشكون في الدعوة وفي صاحبها و يقولون: لو كان هذا الداعي صادقاً فيما يدعو إليه لسارع إلى

تصديقه و اتباعه أقاربه وذووه، أما أن يكون أول المعارضين له عمه، و هو أحد أقطاب بني هاشم، فليس من المستساغ أن نستمع إليه وننخدع بكلامه الحلو.

وهذا شأن الجهلة في الحكم على الشيء: أحق هو أم باطل؟ وهو منهج فاسد شرعاً وعقلاً.

و من الشُبه التي كان الكفار يثبطون بها العزائم عن متابعة النبي ﷺ وفي مقدمتهم أبو لهب هذا، ما حكاه الله لنا في القرآن الكريم، حيث يقول في سورة الأحقاف: ﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه و إذ لم يهتدوا فسيقولون هذا إفك قديم**﴾ الآية 11.

ب) إن العلاقة الدينية بين الناس يجب أن تكون -شرعاً- فوق العلاقة النسبية وغيرها من العلاقات المادية؛ فهذا عم النبي ﷺ لم تغن عنه هاشميته، ولم يمنع قربه النسبي منه ﷺ أن ينزل الله في حقه آيات قرآنية توعده بالهلاك و العذاب الشديد، و قد أصابه في الدنيا ما أصابه من ذلك الداء الخبيث الذي عاقبه الله به، وما سوف يصيبه في الآخرة أشد و أبقى.

فأخوك في العقيدة أيها المسلم يجب أن يكون أحب إليك و أقرب من أخيك الشقيق إذا كفر بالله أو تخطى حدوده التي رسمها لعباده، هذا و أكثر ما عاناه المسلمون- ومازالوا- من تدهور أحوالهم هو تغليبهم سائر العلاقات المادية والاجتماعية على العلاقات الروحية .

ج) قد يتساءل المطلع على سيرة النبي ﷺ متعجباً: كيف سوغت قريش لنفسها أن تكذب وتهين وتتهم من كانت تصفه بالصدق و الأمانة طيلة شبابه حتى إذا جاوز الأربعين ألصقت به من الأوصاف ما لا يتفق مع أخلاقه العظيمة وسلوكه القيم؟ و المثل العربي القديم يقول: "من شب على شيء شاب عليه".

والجواب: أن الأباطيل والتفاهات الفكرية إذا تبوأت الأذهان و مكنت لرسوخها القرون المتوالية يصعب التخلص منها، و هذا ما وقع لقريش، فقد ورثت من الآباء و الأجداد تصورات مشوهة عن الدين و ما يتعلق به، وتلقفت منهم مُثُلا يحسبونها شيئاً كبيرا، وما هي به، و من ذلك اتخاذهم أصناما آلهة يعبدونها مع الله، أو من دونه، و يقربون لها القرابين لترضى عنهم، فإذا رجل منهم يفاجئهم بأنه رسول الله إليهم، و يأتيهم بما يسفه أحلامهم و أحلام آبائهم و يفرق جمعهم ويجعل الآلهة إلهاً واحداً، يجب أن يخصوه بالعبادة دون سواه، ويتلقوا منه وحده الأمر و النهي.

ولو كان هذا الداعي متقدما في العمر، أو كان من كبراء القوم -حسب عرفهم- أو كان غنياً، أو له أبناء أبطال لهان الأمر! أما أن يكون شاباً، فقيراً، ومع ذلك يأتيهم بما لم يعرفوه هم و لا آباؤهم و يدعوهم إلى الإيمان بما أخبرهم به فهذا لن يكون.

و لا يفوتنا أن ننبه إلى عدم إمكان الحكم على كفار قريش كلهم بالغباء و الجمود والعجز عن إدراك الحق و الصواب؛ فقد كان فيهم شيوخ أذكياء يستيقنون صحة ما جاء به رسول الله ﷺ ولا يخفى عليهم ما هم فيه من باطل، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوة الحق خوفاً على امتيازاتهم الفردية و القبلية والاجتماعية، لأن الإسلام يسوي -إزاء الحقوق و الواجبات- بين الأغنياء والفقراء و السادة و العبيد والأقوياء والضعفاء و يتيح الفرص للناس أجمعين، شعاره المرفوع دائما: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ الآية: 13، و هم لا يريدون الانضواء تحت هذا الشعار الذي يقضي على مصالحهم بانصراف الأمة عنهم، لذلك كانوا يُحْكِمون قبضتهم على الجمهور، و ينفرونه من الإسلام متهمين إياه بالنعوت المزرية و يهددون من يدخل فيه بالعقاب الشديد، و قد فعلوا، مما اضطر النبي ﷺ إلى أن أمر الصحابة بالهجرة إلى الحبشة مرتين، ثم كانت هجرته -هو نفسه- و المؤمنون إلى المدينة المنورة فراراً بدينهم من العنف الذي بلغ بالمشركين إلى حد التآمر على قتل الرسول ﷺ ليستريحوا منه ومن دعوته التي كانت خطراً على نفوذهم ،هذا النفوذ الذي مازالت المجتمعات البشرية تقاسي ظلمه وطغيانه، ولكن التاريخ أخبرنا بأن ما كانت تستبعده قريش قد حصل فعلا، ودخل الناس في دين الله أفواجا يقودهم من بعثه الله رحمة للعالمين إلى عزهم وسعادتهم ورقيهم و صلاح دنياهم وآخرتهم، وهكذا يكون النصر دائما للحق إذا وجد من يعلنه ويصبر ويصابر من أجله و لو بعد سنين.

وليتعظ بذلك دعاة الإصلاح في مجتمعات المسلمين، الذين يحاربون المفاهيم الفاسدة، وينفون عن الدين ما ليس منه، ويبصرون الأمة بحقائق الشريعة الناصعة، فقلما يسلم أحدهم من إيذاء الأميين و المتعالمين الذين يجاملون المبطلين، ويداهنونهم على حساب دينهم، ويزينون البدعة ويزهدون في السنة، ولكن الدعاة إذا كانوا أكفاء حكماء مخلصين مثابرين لابد أن ينصرهم الله في آخر الأمر، وحينئذ تنعكس أحوال الناس؛ فمن كان فيهم معظماً احتقروه لأنهم اكتشفوا زيفه وخداعه و امتطاءه للدين لقضاء مآرب في نفسه، و من كان فيهم مهاناً احترموه وأحبوه لأنهم اهتدوا إلى صدقه معهم و إخلاصه لهم.

سورة الإخلاص

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

أسماؤها: لها أكثر من عشرين اسماً، منها سورة التوحيد، لأنها تشتمل على وحدانية الله، وسورة الجمال، لأنها تشتمل على بعض صفات الله الأساسية، وهي أجمل الصفات، وسورة الصمد، وهو من أسماء الله الحسنى، والمُقَشْقِشَة، لأنها تبرئ من الشرك (من قَشْقَشَ الدواء الجرب: إذا أبرأ منه المصاب به). والمانعة، لأنها تمنع الإنسان المؤمن من عذاب القبر وغيره، والمنفرة، لأن الشيطان ينفر عند قراءتها، والبراءة، لأنها براءة لتاليها من الشرك والنفاق، بالإضافة إلى اسمها المشهور في المصحف وهو: سورة الإخلاص، وقد كان رسول الله ﷺ يسميها: "قل هو الله أحد"، و"الله الواحد الصمد".

فضلها: عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- فيما يرويه الإمام البخاري- أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وعنها -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ: قل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال:(سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟) فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ (أخبروه أن الله-تعالى- يحبه) رواه الشيخان.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ فيما يرويه -الإمام البخاري- أنه قال: قال رسول الله ﷺ : (أيعجز أحدكم ان يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: الله الواحد الصمد ثلث القرآن.)

بأي اعتبار تعدل هذه السورة ثلث القرآن؟

يرى بعض العلماء أنها تعدله باعتبار ثواب القراءة؛ فمن قرأها فكأنما قرأ ثلث القرآن، ويرى بعضهم أنها تعدله باعتبار معانيه التي هي: عقائد وأحكام وأخبار، وهذه السورة قد حوت أصول العقائد الإسلامية.

ويرجح هذا القول-والله أعلم- ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله ﷻ جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿**قل هو الله أحد**﴾ من أجزاء القرآن.

وثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلا سمع رجلا يقرأ ﴿**قل هو الله أحد**﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له-وكان

الرجل يَتـَقَالُّها[1]- فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن).

سبب نزولها:

روي أن المشركين في مكة قالوا للنبي ﷺ : يا محمد انسب لنا ربك فنزلت. رواه الترمذي وأحمد. فعلى هذه الرواية هي مكية، والأشبه بمضمونها أنها مكية حيث كان القرآن المكي يركز على العقيدة، وهي قد اشتملت على أصولها.

وروي أن عامر بن طفيل، وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ في المدينة فقال له عامر: إلام تدعونا؟ قال: (إلى الله)، قال: صفه لنا، أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد أم من خشب؟ فنزلت، وكذلك روي أن أحبار اليهود ومنهم حُيي بن أخطب، وكعب ابن الأشرف قالوا للنبي ﷺ: صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك فنزلت.

ويحتمل أن قراءة النبي ﷺ إياها على عامر وأربد وأحبار اليهود ليست لنزولها بسبب طلبهم وإنما استشهد بها فقط لنزولها عليه ﷺ من قبل رداً على طلب قريش الذي يشبه طلبهم.

عدد آياتها أربع في عد المدنيين والبصريين والكوفيين، وخمس في عد المكيين والشاميين باعتبار(لم يلد) آية مستقلة و(لم يولد) كذلك.

---

1 - يتقالها: يظنها قليلة.

﴿قل هو الله أحد﴾

قل: قد تأتي في القرآن الكريم لتلقين النبي ﷺ جواباً عن سؤال طرح عليه كما ههنا، وكما في قوله تعالى: ﴿**ويسألونك عن الروح؟ قل: الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾ الإسراء85. وفي قوله: ﴿**ويسألونك عن ذي القرنين: قل: سأتلوا عليكم منه ذكرا...**﴾ الكهف 83.

وقد تأتي لأغراض أخرى سبق ذكرها في سورة الكافرون.

﴿**هو الله أحد**﴾، **هو**: ضمير الشأن، أي الشأن: الله أحد، أو ضمير يعود على المسؤول عنه أي المسؤول عنه هو الله أحد، و(هو) مبتدأ ولفظ الجلالة (الله) خبره، و(أحد) خبر ثان أو بدل.

ويصح أن يعرب (هو) مبتدأ أولاً ولفظ الجلالة (الله) مبتدأ ثانياً، و(أحد) خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول.

أحد: صفة مشبهة مصوغة من وَحُدَ يوحُدُ، فهو وحدٌ، مثل حسن يحسن فهو حسن، ثم أبدلت الواو همزة فصار (أحد): بمعنى منفرد؛ فهو متفرد في ذاته (أي ليس فيها تركيب كشأن المخلوق) متفرد في ربوبيته، متفرد في ألوهيته.

وهذه الصفة لا يوصف بها إلا الله ﷻ: فلا يقال: رجل أحد، أو دينار أحد بخلاف (واحد).....

ثم إن العرب توسعوا في استعمال(أحد)، فأطلقوه على كل موجود وذلك في خصوص النفي كقوله تعالى في سورة الجن: ﴿**ولا أشرك به أحداً**﴾ الآية 20،وفي سورة الأحزاب: ﴿**يا نساء النبي لستن كأحد من النساء**﴾ الآية 32، وفيها كذلك: ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**﴾ الآية 40، وفي هذه السورة نفسها ﴿ **ولم يكن له كفؤا أحد**﴾، كما أطلقوها على العدد في الحساب فقالوا (أحد عشر) و(أحد وعشرون) إلخ.

وفي هذه الآية إبطال لعدة عقائد:

أ- عقيدة التثليث عند أغلب فرق النصارى: فهم يذهبون إلى أن الله مركب من ثلاثة أقانيم (الله وروح القدس وعيسى) أو (الأب والابن وروح القدس)، وهذه الأقانيم الثلاثة اتحدت فصارت شيئاً واحداً-تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا- قال الله تعالى في سورة العقود: ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله واحد...**﴾ الآية 73.

ب-عقيدة الثنوية عند المجوس: فهم يزعمون أن في العالم إلهين اثنين: إله الخير، وإله الشر، والأول في الوجود هو إله الخير، أساء مرة فترتب على هذه السيئة بروز إله الشر فصار يعاكسه ويخالفه-تعالى الله عما يصفون- قال الله -تعالى-في سورة النحل: ﴿ **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون...**﴾ الآية 51.

ج- عقيدة الوثنية عند العرب وغيرهم: فهم يزعمون أن هذه الأوثان والأصنام آلهة تقربهم من الله، وتنفع وتضر وتشفع لهم يوم القيامة؛ فهم يسترضونها بالتضرع إليها وتقديم القرابين لها، قال الله تعالى-في سورة الزمر: ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار**﴾ الآية 3، وقال تعالى في سورة يونس:﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم و لا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض؟...سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ الآية 18.

د- عقيدة عباد الكائنات الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم والحيوان والأشجار والأنهار إلخ، قال الله -تعالى-في سورة فصلت:﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون**﴾ الآية 37، وكل ذلك شرك مرفوض في الإسلام.

هـ-كما أن في هذه الآية إبطالاً لعقيدة الدهريين الذين يزعمون أن الدهر هو الذي ينشىء الأشياء ويكونها ثم يفنيها، ولا شيء وراء ذلك؛ لا إله ولا بعث ولا حساب ولا جزاء ولا جنة ولا نار، ومن هؤلاء الشيوعيون الذين لا يؤمنون إلا بالمادة ولا يعترفون إلا بالأشياء المحسة؛ فهم لا يؤمنون بالغيب بخلاف المسلمين.

و-كما أن فيها إبطالاً لعقيدة الحلوليين الذين يعتقدون أن الله-تعالى- يحل في بعض الكائنات، إلى آخر ما هنالك من العقائد الفاسدة.

وقد أقام الله-سبحانه- الأدلة القاطعة على وحدانيته في ربوبيته وأسمائه وصفاته ووحدانيته في ألوهيته في غير ما آية من القرآن الكريم.

والفرق بين وحدانيته في ربوبيته ووحدانيته في أسمائه وصفاته ووحدانيته في ألوهيته أن وحدانيته في ربوبيته تعني أنه هو وحده الخالق والمالك والمدبر، ووحدانيته في أسمائه وصفاته أن أسماءه الحسنى وصفاته العلى كاملة لا يشركه فيها أحد، وأن وحدانيته في ألوهيته تعني أنه هو وحده المعبود بحق وما عداه من المعبودات فهي باطلة،

قال الله تعالى في سورة الواقعة: ﴿ **أفرأيتم ما تمنون آنتم تخلقونه أم نحن الخالقون...أفرأيتم ما تحرثون آنتم تزرعونه أم نحن الزارعون...افرأيتم الماء الذي تشربون آنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون...أفرأيتم النار التي تورون؟ آنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون...فسبح باسم ربك العظيم**﴾ الآيات 58-74. وفي سورة المؤمنون: ﴿ **قل من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله قل فأنى تسحرون؟...**﴾ الآيتان 88-89. وفي سورة الرعد: ﴿ **يدبر الأمر، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون...**﴾ الآية 2. وقال في سورة الأنبياء: ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ...**﴾ الآيتان21-22. وفي

سورة الإسراء:﴿ **قل لو كان معه آلهة-كما تقولون-إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً** ﴾ إلخ.. الآيتان 42-43

﴿ **الله الصمد**﴾

جملة محكية بـ(قل) مثل ﴿ **الله أحد** ﴾

الصمد: من أسماء الله الحسنى،ومعناه السيد الذي يصمد إليه الناس ويقصدونه في حوائجهم ومسائلهم ونوازلهم؛ فهم الفقراء إليه،وهو الغني عنهم.كما قال-تعالى-في سورة فاطر:﴿ **يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد.** ﴾الآية 15، ومن كان بهذه الصفة فهو الكامل في مجده، والكامل في سؤدده.

والجملة تفيد الحصر، والحصر يرشدنا إلى توحيد الذات التي نقصدها بمطالبنا، فالتوجه إلى غير الله في مقاصدنا ومطالبنا شرك، والشرك أخبث العقائد في دين الإسلام، وأخطرها على مصير الإنسان، قال الله تعالى في سورة النساء:﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به،ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيدا**﴾. الآية 48،وفي سورة الحج:﴿**ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق**﴾ الآية31

وفي الآية رد على المشركين الذين يتوجهون إلى معبوداتهم الزائفة بالأدعية والقرابين لتحقق لهم حاجاتهم مع ظهور عجزها وجمودها لكل ذي عقل سليم.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تسفه عقول هؤلاء المشركين الذين يقدسون ما لا يستحق التقديس، ويخافون مما لا يملك التخويف. قال تعالى- في سورة الحج:﴿ **يا أيها الناس، ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً، ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب**﴾ الآية 73، وقال في سورة الأحقاف: ﴿ **قل أرايتم ما تدعون من دون الله؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك في السموات؟ إئتوني بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم إن كنتم صادقين ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾ الآيات 4-6

وفي سورة فاطر:﴿ **والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير**﴾ الآيتان 13-14.

والعبرة التي نستخلصها من الآية الكريمة: أن المؤمنين الموحدين لا يتجهون في كل أدعيتهم إلا إلى من هو متصف بالأحدية والصمدية وهو الله ﷻ، و لا يليق بهم أن يتشبهوا بالمشركين فيرغبوا إلى غير الله أو يرهبوا منه.

﴿ لم يلد ولم يولد﴾

لم يتولد منه ابن ولا بنت، ولم يتبن أحداً من مخلوقاته لأن الولد يقصد به استمرار الوجود للوالد في أولاده ، والله باق بذاته وليس لآخريته انتهاء، كما يقصد بالولد الاستعانة به عند العجز، والله لا يناله العجز أبداً حتى يطلب المساعدة من غيره، ولأن الولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله تعالى لا مجانس له.والولد يقتضي الزوجة، والزوجية كذلك تقتضي المجانسة، وحاش لله أن يجانسه أحد من مخلوقاته.

وكما أنه -تعالى- ليس له ولد فكذلك ليس له والد لأن وجود الوالد يقتضي أنه تعالى مسبوق بغيره والله- سبحانه- هو الأول الذي لا ابتداء لأولويته.

وفي الآية إبطال لادعاء اليهود بنوة عزير لله، ولادعاء النصارى بنوة عيسى لله، ولا ادعاء مشركي العرب بنوة الملائكة لله، و كلها عقائد فاسدة، -تعالى الله عنها علواً كبيرا-

ودليل ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿**وقالت اليهود عزير بن الله، وقالت النصارى المسيح بن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ الآية 30، وقوله في سورة الصافات: ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون؟أم خلقنا الملائكة إناثا و هم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله و إنهم لكاذبون...**﴾ الآيات149-

152، وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة و خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ...**﴾ الآية101، وقوله في سورة الحديد: ﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾ الآية 3، وإذا كانت جملة (**الله الصمد**) أثبتت لله الكمال المطلق فإن جملتي:(**لم يلد ولم يولد**) نفتا عنه النقص المطلق.

﴿ **ولم يكن له كفؤاً أحد**﴾

الكفؤ: والكفء. و الكفو: المساوي، (قراءة نافع: كفؤاً وعاصم:كفواً).

أحد: -هنا- معناه كل موجود من غير الله، بخلاف أحد في الآية الأولى فهو من صفات الله، فبين اللفظين جناس تام.

والمعنى:ليس هناك أي موجود مشابه لله في ذاته أو صفاته أو أفعاله قال تعالى في سورة الشورى: ﴿ **ليس كمثله شيء و هو السميع البصير**﴾ الآية 11، فإذا كانت ذواتنا مركبة من أجزاء ، وهي في حاجة شديدة إلى ما يحفظ وجودها، ويضمن نموها فحاش لذات الله أن تكون كذلك، و إذا كانت صفاتنا محدودة فصفات الله لا حدّ لها؛ فالإنسان مثلا يوصف بالعلم، و الله ﷻ يوصف بالعلم، ولكن شتان مابين العلمين، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر و البحر، و ما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض و لا رطب و لا يابس إلا في كتاب مبين، و هو الذي يتوفاكم**

بالليل و يعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى،ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ الآيتان 59-60.

وإذا كانت أفعالنا مقيدة بقدراتنا الإنسانية الضعيفة، فإن أفعال الله -تعالى- من الطلاقة والعظمة وسرعة النفوذ بحيث يكفي أن تتعلق مشيئته بشيء، ليبرز وفق ما يشاء. قال تعالى في سورة يس: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾** الآية 82 .

- لم قدم خبر (يكن) (كفؤا) على اسمها (أحد)؟ قدم لرعاية الفاصلة.

- ولم قدم المجرور (له) على متعلقه (كفؤا)؟ لأنه محط النفي.

- ولم كان النفي في الجمل الثلاث في الزمن الماضي؟ لأن نسبة الولد لله واختراع الأكفاء له كان في الزمن الماضي قبل نزول القرآن.

والخلاصة أن الآية الأولى أبطلت إلها غير الله بالأصالة، و الثانية أبطلته بالاستحقاق﴿ **هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء و الأرض ؟لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾** فاطر 3، والثالثة أبطلته بالولدية و الوالدية. و الرابعة أبطلته بالمماثلة.

جاء في الحديث القدسي:(كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك.وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله:لن يعيدني كما بدأني،و ليس أول الخلق

بأهون علي من إعادته و أما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحـــد الصمد، لم ألد و لم أولد، و لم يكن لي كفؤاً أحد) رواه البخاري.

تـذييـــل:

علمنا أن الصمدية تقتضي التوجه إلى الله ﷻ لنيل المبتغيات، لأنه وحده القادر على تحقيقها، قال الله تعالى في سورة البقرة:﴿**و إذا سألك عبادي عني فإني قريب،أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ الآية 186.

و المؤمن الموحد لا يلتجئ إلى غير الله في جلب نفع، أو دفع ضر. قال الله – تعالى: ﴿ **و لا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك، فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين** ﴾ يونس: 106. وقال في سورة الأحقاف: ﴿**ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، وهم عن دعائهم غافلون**﴾ الآية 05.

والدعاء فيه تذلل و استكانة ،وشعور بقدرة المدعو على الاستجابة، ومن ثم فهو عبادة؛ قال رسول الله ﷺ في الحديث الشريف الحسن الذي رواه الترمذي رحمه الله: (الدعاء هو العبادة) هكذا على سبيل الحصر لعراقته في التعبد لله.

و قد اعتبر علماء التوحيد دعاء غير الله من أبواب الشرك، سواء دعي هذا الغير مباشرة، كقول القائل "يا سيدي فلان، اقض لي كذا" أو أشرك مع الله كقوله "يا رب، ويا سيدي فلان" لأن عطف غير الله على الله يقتضي المشاركة في التصرف، و الله أغنى الأغنياء عن الشرك.

وغني عن البيان أنه لا خلاف بين العلماء في صحة دعاء الإنسان لأخيه الإنسان بطلب منه أو بغير طلب، على أن يكون التوجه إلى الله وحده، قال الله تعالى في سورة الحشر مادحاً الداعين لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان: ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون:ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان،و لا تجعل في قلوبنا غلاً للذين ءامنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم**﴾ الآية 10. وجاء في صحيح مسلم -رحمه الله- عن رسول الله ﷺ :(ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثله).

و مع استحباب دعاء المسلم لأخيه كره العلماء أن ينصب الإنسان نفسه للدعاء حتى لا يغتر بنفسه و يغتر به العوام و يَعتَقِد أنه أفضل من غيره.

ذكر الإمام الشاطبي-رحمه الله- (في الاعتصام) أن الصحابة كانوا يمتنعون من الدعاء لمن سألهم حتى لا يعتقد الناس أنه سنة تلزم، و تجري في الناس مجرى السنن، و نقل الإمام القرافي-رحمه الله- عن الإمام مالك ﷺ و عن جماعة من العلماء كراهة الانتصاب للدعاء من أيمة المساجد وغيرهم وعلل الكراهة بتوقع فساد القلوب، وحصول الكبر و الخيلاء[1].

1 - و من أراد التوسع في هذا الموضوع فليراجع كتاب الاعتصام في جزئه الثاني فقد أجاد فيه الإمام الشاطبي -رحمه الله- و أفاد.

سورة الفلق

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

و تسمى أيضاً (**قل أعوذ برب الفلق**)، و تسمى مع تاليتها (**المعوذتين**). وقد نزلتا على رسول الله ﷺ بمكة على الأرجح. وعدد آياتها خمس.

فضل المعوذتين:

ورد في فضلهما آثار عدة، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط؟ "قل أعوذ برب الفلق" و"قل أعوذ برب الناس")، وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال له: (يا ابن عامر ألا أخبرك بأفضل مما تعوذ به المتعوذون؟ قلت بلى يا رسول الله.قال:قل أعوذ برب الفلق، و قل أعوذ برب الناس) أخرجه مالك و مسلم و الترمذي وأبوداود والنسائي. وعن جابر رضي الله عنه قال:قال رسول ﷺ : (اقرأ يا جابر، قلت ماذا؟بأبي أنت وأمي قال: اقرأ:قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، فقرأتهما،فقال:اقرأ بهما، فلن تقرأ بمثلهما). أخرجه النسائي.

وكان ﷺ يعوذ بهما نفسه مع سورة الإخلاص كل ليلة حينما يأوي إلى فراشه كما ورد في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها المذكور في تفسير سورة الإخلاص.

ومناسبتهما لما قبلهما أن الله تبارك وتعالى علمنا في سورة الإخلاص أن نصمد إليه في جميع حاجاتنا لأنه الأحق بالصمدية، وفي هاتين السورتين علمنا كيف نصمد إليه لنطلب منه أن يعصمنا من المخاوف الظاهرة و الباطنة.

﴿ قل أعوذ برب الفلق،من شر ما خلق﴾

الخطاب بـ(**قل**) للنبي ﷺ، وبما أنه لا دليل على التخصيص فهو يشمل كل من يصح خطابه من أتباعه ﷺ ، روي عن أُبي بن كعب ﷺ أنه سأل النبي ﷺ عن المعوذتين فقال: قيل لي: قل فقلت لكم، فقولوا يعني تلفظوا بكلمة (قل) ولا تهملوها فهي من وحي الله الذي لا يصح أن يحذف منه شيء.

أعوذ: يقال في العربية: عاذ بالشيء يعوذ عوذاً أو عياذاً فهو عائذ به وذاك معوذ به، كما يقال:استعاذ بالشيء وتعوَّذ به.

ومعنى أعوذ بالشيء: ألتجئ إليه وأحتمي به، وقد وردت هذه المادة بصيغ مختلفة في القرآن الكريم: ﴿**وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين،وأعوذ بك - رب- أن يحضرون**﴾ المؤمنون98، و﴿ **وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون**﴾

الدخان 20. ﴿ **وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا**﴾ الجن06، و في سورة يوسف: ﴿ **معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده**﴾ 79 إلخ...

الفلق: هو ما ينتج عن عملية الفلق(بسكون اللام) أي الشق، يقال في العربية فلق الشيء -يفلقه - فلقاً فهو فالق، وذاك مفلوق:فالنبات-مثلاً- منفلق عن الحب فهو فلق (بفتح الفاء و اللام أو فلق بكسر الفاء و سكون اللام)، والنخل منفلق عن النوى فهو فلق، والحيوان منفلق من رحم أمه فهو فلق. ونور الصباح منفلق في ظلام الليل فهو فلق.إلخ...

والفالق لهذه الأشياء هو الله وحده.قال تعالى-في سورة الأنعام: ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت و مخرج الميت من الحي،ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح،وجاعل الليل سكناً،و الشمس و القمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ الآيتان 95-96، و الفلق -بهذا التحليل-يعني كل كائن منفلق بقدرة الله ﷻ عن شيء ما.

فمعنى(**قل أعوذ برب الفلق**) قل أيها المسلم أنا ألتجئ و احتمى بفالق كل ما في هذا الوجود من كائنات، وبما أن هذه الكائنات فيها الخير و فيها الشر فالمسلم يتعوذ بالله ويحتمي من شرها، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ **من شر ما خلق**﴾ . وسواء اعتبرنا (ما) موصولة، بمعنى الذي أي من شر الشيء الذي

خلقه، أم اعتبرناها مصدرية بمعنى أنه يسبك ما بعدها بمصدر أي: من شر خلقه، فالمراد واحد.

﴿ ومن شر غاسق إذا وقب﴾

الغاسق: وصف لليل إذا اشتد ظلامه، وذلك بعد مغيب الشفق وهو مشتق من:غسق.يقال:غسق الليل-يغسق- غسقاً.ومن مشتقاته المستعملة في القرآن الكريم: الغسق﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل**﴾ الإسراء 18، والغساق ﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً**﴾ النبأ 25، والغساق: ما يسيل من جلود أهل النار، من قيح وصديد(عافانا الله وإياكم منه).

وقب: دخل وتغلغل في كل مكان:وشر الليل الغاسق يدخل في شر ما خلق الله، ولكن خص بالذكر لكثرة ما يختفي فيه من الشرور التي تعرض الإنسان للخطر:كالحيوانات المفترسة و الهوام المؤذية و اللصوص الذين يساعدهم الظلام على الاعتداء، حتى قيل في المثل العربي:(الليل أخفى للويل) على أن الليل نفسه مخيف بظلامه، وبما أن هذه الشرور يصعب على الإنسان أن يقاومها بمفرده نصحه مولاه بأن يستعين به على دفعها و السلامة منها.

﴿و من شر النفاثات في العقد﴾

النفث: النفخ بالفم، بدون ريق أو به، يقال في تصريف مادته:نفث الراقي في الشيء ينفث -نفثاً- فهو نافث، فإذا أكثر منه فهو نفاث، فإذا جاوز المعتاد زدنا على الصيغة تاء لتدل على المبالغة في النفث فقلنا نفاثة، (ويوصف بها الرجال حينئذ، فيقال رجل نفاثة كما يقال عالم علامة أو فهامة أو دراكة، كما يوصف النساء بهذه الصفة و تكون التاء حينئذ للتأنيث فيقال امرأة نفاثة).

والتاء في النفاثات قد تكون تاء جمع المؤنث السالم، وحينئذ يراد بها جماعة النساء السواحر وقد تكون للمبالغة وبناء عليه يراد بها جماعة الرجال السحرة ومعهم النساء على سبيل التغليب.

والعُقَدُ: جمع عقدة و هي ما يعقد في خيط أو نحوه، و النفث في العقد يراد به ما يفعله السحرة، وهو أن يأتي أحدهم بخيط يعقد فيه عقداً معينة ثم يقرأ عليها بعض العزائم مع النفث على العقد التي عقدها ليسحر بذلك من شاء فيلحق به الضرر.

خبث السحر و السحرة:

والسحر في الشريعة الإسلامية حرام؛ سواء أكان بالنفث في العقد أم بغيره وسواء في ذلك الساحر نفسه أو الذي يستعين به على إضرار غيره، وقد نص القرآن الكريم على كفر الساحر حيث يقول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿..**واتبعوا**

ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، و ما كفر سليمان، ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر و ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، و ما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ الآية 101، وقد عده نبينا محمد ﷺ من السبع الموبقات حيث قال:اجتنبوا السبع الموبقات) وحين سئل عنهن قال: الشرك بالله،والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق،وأكل الربا،وأكل مال اليتيم و التولي يوم الزحف،وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)رواه مسلم، وقد أفتى فقهاؤنا بقتل الساحر إذا تسبب سحره في القتل، وقد أدخل الإمام مالك رضي الله عنه السحر في باب الغيلة[1].

والسحر صفقة شيطانية، واتفاقية فظيعة بين شياطين الجن وشياطين الإنس لإلحاق الضرر بالأبرياء من بني آدم، وشياطين الجن لا يقدمون لشياطين الإنس أية خدمة، إلا إذا شرطوا عليهم شروطاً: منها المنكرات التي تخرج فاعلها من دين الإسلام: كالاغتسال ببول الحمار ليلة الجمعة، والإكثار من الفجور في شهر رمضان، وانتعال المصحف الشريف و الدخول به إلى المرحاض، وكتابة آية

1 - الغيلة: القتل خديعة.

الكرسي بالنجاسة،و الصلاة مدة أربعين يوماً بالجنابة، و التقرب إليهم-أي الشياطين- بذبح حيوان كل عام، و الزنا بالمحارم، و الطلاسم التي فيها سب الله، و تمجيد الشيطان و الكتابة على الأعضاء التناسلية من أجل الفجور بالنساء اللائي يلجأن إليهم، وكثيراً ما يتظاهر هؤلاء السحرة بقراءة آيات من القرآن الكريم وبعض الأذكار خداعاً للعوام، وقد سمعت من بعض السحارين شيئاً من هذه المنكرات، كما قرأت وسمعت عنها من بعض الضحايا والمعالجين بالرقية الشرعية.

وشياطين الجن حين يغوون ويضلون شياطين الإنس فإنما ينفذون ما تعهد به كبيرهم إبليس إزاء بني آدم، بعد أن وسوس لآدم وحواء بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عن القرب منها، فحكم الله بهبوط الجميع من الجنة إلى الأرض بعضهم لبعض عدو.

ولكن هذه العداوة القديمة المستمرة ينساها المنحرفون من الإنس، فينغمسون في كبائر الذنوب التي يزينها لهم الشيطان، وطالما حذرنا القرآن الكريم من عداوة الشيطان لآدم وذريته ولكننا لا نحذره، ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾ فاطر 06،

و في سورة الأعراف: ﴿...**قال: فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد**

أكثرهم شاكرين قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ الآية18.

وشر النفاثات في العقد يدخل في شر ما خلقه الله ﷻ ولكنه-تعالى- خصهم بالذكر لكثرة أذاهم، فكم من علاقة زوجية أو أبوية أو أخوية أو مهنية قطعت أو فسدت بسبب السحر! وكم من بريء أصيب في عقله أو بدنه أو عواطفه من تأثير السحر! لذلك عد من كبائر الذنوب، و أمر الله المؤمن بالتعوذ به من هذا الشر الذي يلحقه الساحرون بالمسحورين.

و ليس من السحر الذي سبق ذكره تلكم الحركات التي تعتمد على السرعة الفائقة حتى يتخيل الإنسان الأشياء على غير حقيقتها. (إذا لم يكن فيها ما يخالف الشرع) وليس منه ما عبر عنه ﷺ بقوله: (إن من البيان لسحراً) و المقصود من البيان الكلام المؤثر في السامع بما فيه من فصاحة و بلاغة، وشروط حليته أن لا يكون فيه خداع للسامع!

و على المؤمن أن يلجأ إلى الله دائما ليعصمه من شر السحرة، فإذا أصيب به فعليه أن يستعين على إبطاله بالرقاة الشرعيين الذين يعتمدون في رقيتهم على الكتاب والسنة،و ليحذر أن يصاب بالأوهام التي تنغص عليه حياته، وتشل نشاطه.

وهل سحر النبي ﷺ ؟

روى الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سحر النبيﷺ حتى إنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء و ما فعله، وفي رواية الشيخين:كان يرى أنه يأتي النساء و لا يأتيهن، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه ثم قال: أشعرت يا عائشة أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: (جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي، وآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه:ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال:ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق، قال: في ماذا؟ قال في مشط[1] ومشاطه وجف[2] طلعة ذكر.قال:وأين هو؟ قال في بئر ذي أروان (ومن الرواة من قال: ذروان) قال: وذروان: بئر في بني زريق فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها،وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال:و الله لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين،.قلت:يارسول الله: أفأخرجته؟ قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني،وخشيت أن أثور على الناس منه شراً،و أمر بها فدفنت.

هذا الحديث الشريف يدل على أن النبي ﷺ أصابه سحر اليهود، ولكن هل أثر في عقله أو سلوكه؟ كلا، إنما التأثير كان على حالة من حالاته الشخصية وهو عقده عن زوجاته.

1- المشط: معروف والمشاطة ما يتساقط من الشعر حين مشطه

2 - جف: غلاف، طلعة الذكر: ما يطلع من جمار المذكر من النخيل(الذكار)

ومن ثم فلا مجال لإثارة الشكوك حول الوحي المنزل المحفوظ بإرادة الله.

و الأنبياء معرضون للابتلاء كسائر البشر فيما لا علاقة له بالتشريع وقد ذكر لنا القرآن الكريم في سورة الأنعام أن الله تعالى جعل لكل نبيء عدوا شياطين الإنس و الجن يتعاونون على إيذائه.قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبيء عدوا شياطين الإنس و الجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ولو شاء ربك ما فعلوه.فذرهم وما يفترون**﴾ الآية112. وقد قال ﷺ : (أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) رواه البخاري.

وقد حكم بعض المحققين من العلماء بضعف ما جاء في الروايات مخالفاً لما جاء في رواية الصحيحين:من كونه ﷺ أمر بعض أصحابه باستخراج هذا السحر من بئر ذروان، و أنهم نزحوها فوجدوه تحت راعوفة[1] في قرارها، وأنهم أتوا به إلى النبي ﷺ فوجدوا في جف طلعة ذكر مشطاً ومشاطة، و وتراً عقد فيه إحدى عشرة عقدة، وتمثالاً من الشمع مغروزاً فيه إحدى عشرة إبرة، فنزل عليه ﷺ سورتا المعوذتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، وكلما نزع إبرة من التمثال وجد راحة. والله أعلم.

1 - حجرة كبيرة.

﴿ ومن شر حاسد إذا حسد﴾

الحسد: انفعال نفساني يحصل للإنسان عندما يرى نعمة الله على بعض عباده، فيكرههم ويتمنى زوال هذه النعمة عنهم، أو انتقالها إليه هو؛ فإذا أصيب بهذا الانفعال السيئ فهو حاسد.

ومعنى قوله تعالى﴿ إذا حسد ﴾ إذا عمل بمقتضى حسده أي سعى في إلحاق الضرر بالمحسود، فما دام الحسد انفعالاً في صدر الحاسد فإنه لا يضر إلا صاحبه لأنه إذا استمر به يكاد يقتله كمداً، ولذلك قيل في المثل(قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله) إنما الخطر الكبير حينما يتحول الانفعال إلى دافع قوي لإلحاق الضرر بالمحسود، فهناك الشر المستطير الذي لا يعلمه حق العلم إلا الله-تعالى- ولا يقدر على صرفه إلا رب الفلق، ولذلك نصحنا ربنا ﷻ بالالتجاء إليه ليحفظنا من شره.

و يكفي الحاسد مقتاً وحقارة أنه من الذين لا يستجيب الله دعاءهم كما أخبرنا رسول الله ﷺ في قوله: (ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومكثر الغيبة، ومن كان في قلبه غل أو حسد للمسلمين). وقد جاء في الحديث الشريف أن الحسد من أخلاق المنافقين قال ﷺ : (المؤمن يغبط، والمنافق يحسد) والغبطة تخالف الحسد من حيث إن صاحبها يتمنى مثل ما عند غيره ولا يتمنى زواله عنه.

لماذا يكره الله الحاسد؟

لأنه يعترض على حكمه، ويعتدي على خلقه، فالذي يحسد غيره على نعمة أنعم الله بها عليه كأنه يعترض على مشيئة الله ،ويرى أنه أحق بهذه النعمة من غيره، و من اعترض على حكم الله فقد نصب نفسه شريكاً له، و سبحان من تنزه عن الشرك ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة و مأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾ العقود 72.

و الحاسد أناني، و كثيراً ما تزين له هذه الأنانية أن يعتدي على محسوده في دمه أو ماله أو عرضه، أو عليها كلها مجتمعة و-العياذ بالله-.

ومما يجدر ذكره هنا أن أول قتل في بني آدم على وجه الأرض كان الباعث عليه الحسد،وهو ما ذكره الله-تعالى- في القرآن الكريم في سورة العقود: ﴿ **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك.قال: إنما يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾ الآيات 27-30.

وإن أكبر المصائب التي أصابت المسلمين من أهل الكتاب كان المتسبب في حصولها الحسد، وهذا ما سجله الله ﷻ في القرآن الكريم حيث يقول في سورة

البقرة:﴿ **ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم-من بعد إيمانكم-كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق**﴾ الآية109، ويقول في سورة النساء: ﴿**أم يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله...**﴾ الآية 54؛ بل إن أول معصية عصي بها الله في السماء هي الحسد؛ حيث حسد إبليس -عليه اللعنة- أبانا آدم عليه السلام: "حسده على تكريم الله إياه بأن علمه ما لم يعلمه الملائكة، وأمر الملائكة بالسجود له(سجود تحية)، فسجدوا كلهم إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين،وما منعه من السجود إلا الحسد والكبر."

وقد بلغ من عناية الله بالمؤمنين أن نهاهم عن مجرد أن يتمنوا ما فضل الله به بعضهم على بعض، لأن هذا التمني قد يؤدي إلى الحسد وما ينجم عنه من آثار سيئة، قال تعالى في سورة النساء:﴿**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن، واسألوا الله من فضله**﴾ الآية 32.

وقد عَلِمنا أن شر الحاسد يدخل في شر ما خلق الله، ولكنه-تعالى- أفرده بالذكر لضرره البالغ في المجتمعات الإنسانية.

ولم كررت كلمة (شر) في الآيات الثلاث؟

لتوحي بأن كل نوع من المذكور فيها شر مستقل عن الشر الآخر، والله أعلم.

علامات يعرف بها الساحر:

ذكر العلماء للساحر علامات يعرف بها، منها:

- أن يسأل المريض عن اسمه واسم أمه (وأصل هذه الفكرة من اليهود)

- أن يأخذ أثراً من آثار المريض(ثوب، منديل، خرقة إلخ...)

- أن يطلب -أحيانا- حيوانا بصفة معينة ليذبح، وربما لَطَّخَ بدمه موضع الألم، أو رماه في مكان خرب.

- أن يتلو العزائم غير المفهومة.

- أن يكتب الطلاسم .

- أن يعطي المريض(حجاباً) يحتوي على مربعات بداخلها حروف وأرقام.

- أن يخبر الشخص الذي يلجأ إليه بما يقع له في المستقبل اعتماداً على بروج السماء.

- أن يعطي المريض أشياء يدفنها في الأرض.

- أن يعطي المريض أوراقاً يحرقها ويتبخر بها.

وكم ساحر يتعاطى السحر وهو لا يدري أنه سحر وهذا لفرط جهله وجهل من يتردد عليه.

فإذا علمت أن الرجل ساحر أو المرأة فإياك والذهاب إليهما، وإلا وقعت في إحدى الموبقات ، عصمنا الله وإياك منها.

وعلى هذا الساحر أو الساحرة إن كانا - مسلمين- أن يتوبا إلى الله ﷻ بالإقلاع عن هذا الإثم وإزالة الضرر الذي تسببا فيه قبل أن يدركهما الموت، وحينئذ يندمان ولا ينفعهما الندم.

سورة الناس

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

وتسمى سورة المعوذة الثانية (والمعوذة الأولى هي سورة الفلق).

وهي ست آيات.

وقد نزلت المعوذتان متعاقبتين في مكة على الراجح من الأقوال، وقيل أنهما مدنيتان، -والله أعلم- وهي تشتمل على مستعاذ به؛ هو رب الناس، ومستعاذ منه؛ هو شر الوسواس.

﴿ قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس﴾

قد ابتدأ الله ﷻ السورة بـ (قل) كأختها، إيحاء إلى نبيه ﷺ أنه إذا عاذ به من شر الوسواس أعاذه، ومثله في ذلك الأتقياء من أتباعه ﷺ.

الرب: الخالق المربي بالنعم التي تصلح الناس، وتصلح أمورهم.

الملك: الحاكم المتصرف في شئون خلقه حسب مشيئته.

الإلـه: المعبود .

الناس:البشر

ولم أضيف(رب- ملك- إله) إلى الناس خاصة مع أنه رب كل شيء؟

لأن الشر المستعاذ منه إنما هو الشر الذي يقع على الناس، فكان المناسب أن يستحضر الرب في الذهن بأنه رب الناس وملكهم وإلههم ليطمئنوا إلى حمايته لهم من شرور الخلق، وهم في استغاثتهم بربهم كاستغاثة المُرَبَّى بمربيه، والمملوك بمالكه والرعية براعيها.

وإثبات همزة (أعوذ) هي رواية قالون عن نافع ﷺ، ويجوز حذف همزة (أعوذ)، ونقل حركتها إلى لام (قل)، وهي رواية ورش عن نافع.

﴿ من شر الوسواس الخناس﴾

الوسواس: يراد بـه ما يخطر بنفس الإنسان من خواطر و أوهام،كما يراد به المتكلم بالوسوسة، وهي الكلام الخفي الضار الذي يلقى إلى النفس.

ومن يلقي هذه الوسوسة ؟ إنه شيطان الجن وشيطان الإنس.

الخنّاس: الذي يكثر منه الخنوس ويتكرر حتى يصير له عادة،ومعنى **الخنوس**: الاختفاء والتقهقر بعد التقدم و الظهور. ويوصف شيطان الجن بأنه خنّاس لأنه يتصل بعقل الإنسان خفية فيزين له الباطل حين يغفل عن ذكر الله، فإذا

ذكر الله خنس وتقهقر، وهذا ما يشير إليه قوله ﷺ فيما يرويه البخاري-رحمه الله- عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس)، وفيما يرويه البخاري ومسلم : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)، وفيما يرويه البخاري أيضاً:ما منكم من أحد إلا وقد وُكل به قرينه قالوا: وأنت يا رسول الله قال:نعم، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم).وقال ﷺ : إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان: فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك، فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فليتعوذ بالله من الشيطان) رواه الترمذي.

كما يوصف شيطان الإنس بأنه خناس، لأنه يتستر وراء الحيل ليمكر بالناس، ويلتمس غفلاتهم ليكيد بهم، فإذا شعروا به، وتفطنوا لمكيدته، خنس واختفى.

واسم الموصول مع صلته في قوله تعالى: ﴿**الذي يوسوس في صدور الناس**﴾ يصور لنا الوسوسة وهي صادرة من الشيطان لتقع في صدور الناس وبواطنهم.

وصيغة الفعل(يوسوس) تدل على أن هذه الوسوسة تتجدد ولا تنقطع، ويفهم من وصف الوسواس بالخناس أنه حقير بحيث كلما ذكر الله خنس ولا يعود إلى إلقاء الوسوسة إلا حين يغفل العبد عن ذكر الله.

وهكذا قدر الله- تعالى- المعركة الدائمة في هذه الدنيا بين بني آدم والشياطين إلى أن يأذن الله بالفناء الشامل، كما قدر الغلبة للمعتصمين به، والهزيمة للبعيدين عنه، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في سورة الإسراء خطاباً لإبليس لعنه الله:﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلا**﴾ الآية65، و في سورة الحجر: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين...**﴾ الآية42.

﴿ **من الجنة و الناس**﴾

الجِنة بكسر الجيم - اسم جمع واحده: جني، وهو المنسوب إلى الجن كالإنسي و هو الواحد المنسوب إلى الإنس، و لا يغيب عن ذهنك أن الجنة-بضم الجيم- هي كل ما يحفظ الإنسان في بدنه أو نفسه، فالتُرس جنة، و الصيام جنه إلخ...، أما الجَنة بفتح الجيم فهي معروفة.

من: بيانية، لأنها بينت أن الذي يوسوس في صدور الناس صنفان من الخلق، صنف من الجن، وصنف من الإنس، والجمع بينهما يبعد الوهم بأن الوسوسة إنما تكون من الجن وحدهم ليثبت أن الإنس كذلك يوسوسون، بل إن وسوسة شياطين الإنس أشد من وسوسة شياطين الجن، لأن شيطان الجن يخنس عند ذكر الله ، وشيطان الإنس ليس كذلك. وكم من نفوس أزهقت وتزهق، وكم

من أعراض انتهكت وتنتهك، وكم من أموال اغتصبت وتغتصب، بسبب الوسوسة التي تقع من شياطين الإنس.

لفظ (الناس) كرر أربع مرات في السورة، فلم هذا التكرار؟ ولم هذا الإظهار عوضاً عن الإضمار؟ ولو أضمر- كما هو الأصل- لقال: ملكهم-إلههم- صدورهم.

أما في الآية الثانية والثالثة، فلإظهار شرف الناس وفضلهم على سائر المخلوقات في الأرض لأنهم مكلفون، والمكلف خير من غير المكلف، ولتأكيد ملكه وإلهيته عليهم.

وأما في الآية الخامسة، فلبعد المعاد -أي بعد كلمة الناس التي يعود إليها الضمير-، وأما في الآية السادسة، فلبيان الصنفين الموسوسين في صدور الناس، ولا يتأتي ذلك إلا بإظهار المقابل.

ولا يخفى على ذي بصيرة، أن أعظم الشرور التي تصيب بني آدم في معاشهم ومعادهم، آتية من قبل هذا التعاون الحاصل بين شياطين الجن والإنس، من أجل إغواء البشر وإضلالهم في عقائدهم وأخلاقهم وعباداتهم ومعاملاتهم، وبما أن الناس وحدهم لا يستطيعون النجاة من شر هؤلاء المردة نصحهم ربهم ومليكهم ومعبودهم أن يلتجئوا إليه ليحميهم من كيدهم العظيم، ومكرهم الخطير، وصدق الله العظيم في قوله :﴿ **إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً**﴾ الطارق:

الآيتان15-16 و في قوله -تعالى-: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾. الأنفال الآية30.

مقارنة بين سورتي الفلق والناس:

الأولى علمتنا الاستعاذة بالله الذي هو رب الفلق من جميع الشرور الظاهرة الواقعة ليلا ونهاراً في الأبدان والأموال والأعراض، والثانية علمتنا الاستعاذة بالله من شر واحد خفي، ولخفائه تنتج عنه شرور كثيرة لا تحصى.

خطـوات الشيطان في الإغـواء:

كل شر في العالم سببه إبليس، لكن ينحصر شره في ستة أجناس، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحدا منها أو أكثر.

الشر الأول:شر الشرك والكفر،ومعاداة الله ورسوله، وإلا انتقل معه إلى:

الشر الثاني:شر البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق و المعاصي. وإلا نقله إلى:

الشر الثالث:وهو الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها، فإن عجز نقله إلى:

الشر الرابع:و هو الصغائر التي إذا اجتمعت فربما هلكت صاحبها، لأنه لا يزال يسهل عليه أمرها وإلا نقله إلى:

الخطوة الخامسة:وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، فإن أعجزه ذلك نقله إلى:

الخطوة السادسة:وهي أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة، وقل من ينتبه إلى هذا، فإن الشيطان قد يأمره بسبعين باباً من أبواب الخير ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، أو ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً.

فإذا أعجزه العبد عن هذه الخطوات الست سلط عليه حزبه من الجن والإنس بأنواع الأذى والتضليل والتبديع وتحذير الناس منه، إخمالاً له ومنعاً من أن ينتفع الناس به.

ومما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره

- الاستعاذة بالله من الشيطان
- قراءة سورة الإخلاص و المعوذتين، خصوصاً عند النوم.
- قراءة آية الكرسي.
- قراءة فواتح سورة البقرة وخواتيمها.
- قراءة أول سورة (حم المؤمن(غافر) إلى قوله إليه المصير) مع آية الكرسي.

- قول(لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير) مائة مرة .

- كثرة ذكر الله تعالى بالذكر المشروع.

- الوضوء والصلاة.

- الإمساك عن فضول النظر و الكلام والطعام ومخالطة سفهاء الناس(مختصر من بدائع الفوائد لابن القيم ج2)

التناسب البديع بين بدء القرآن وختمه

أول سورة في ترتيب المصحف الشريف هي سورة الفاتحة، وآخر سورة هي سورة الناس، وبديهي أن هذا الترتيب بوحي من الله تعالى إلى نبيه محمد بن عبد الله ﷺ، وحين نقارن بين هاتين السورتين (الفاتحة و الناس)، نلاحظ في كلتيهما إرشاد العباد إلى الالتجاء إلى خالقهم: في **الأولى** يلتجئون إليه ليعينهم ويهديهم إلى الصراط السوي، وفي **الثانية** يلتجئون إليه ليحميهم من شر شياطين الجن و الإنس وبذلك نعلم أن مرجعنا إلى الله في بدء أمرنا وختمه، في حياتنا الأولى وحياتنا الثانية.

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يختم حياتنا بالسعادة الأبدية، وأن يحفظنا من الوقوع في أسباب الشقاوة الدنيوية والأخروية، وألا يكلنا إلى نفوسنا طرفة عين، إنه سميع مجيب.

وفي الختام أضع القلم وأنا أحمد الله على توفيقه إياي فيما أصبت فيه، واستغفره لما أكون قد أخطأت فيه إنه هو الغفور الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أهم المراجع

- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي
- تفسير الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي
- أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي
- تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور
- تفسير أحمد مصطفى المراغي
- روح المعاني لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي
- التفسير الكبير للفخر الرازي
- الجواهر في تفسير القرآن لطنطاوي جوهري
- الكشاف لمحمود الزمخشري
- تفسير الجلالين بحاشية الصاوي عليهما
- في ظلال القرآن لسيد قطب
- أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي
- تيسير التفسير للشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لوهبة الزحيلي
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري
- مجالس التذكير للشيخ عبد الحميد بن باديس
- كتب الحديث الستة والموطأ ومسند الإمام أحمد
- المعجم الوسيط ولسان العرب والصحاح والقاموس المحيط
- معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني

التعريف بالمؤلف

من هو الشيخ الأخضر الدهمة ؟

إنه من أبرز علماء المالكية بولاية غرداية، وأشهر أعيانهم.

وهذه نبذة عن حياته جمعها بعض تلاميذه.

الاسم والمولد:

هو الأخضر بن قويدر الدهمة ، من مواليد عام 1925م في متليلي ، إحدى مدن الجنوب الجزائري.

مرحلة الدراسة الأولى:

نشأ الشيخ في مدينة متليلي ، وختم القرآن على يد أحد معلِّميها، وهو السيد محمد كديد –رحمه الله– وتعلَّم شيئا من الفقه.

ثم انتقل عام 1942م ، مع بعض زملائه من متليلي، إلى مدينة غارداية لتلقي علوم اللغة العربية والفقه الإسلامي على المذهب المالكي على يد الشيخ محمد الأخضر فيلالي أحد تلاميذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، رحمهما الله.

وقصة مجيء الشيخ محمد الأخضر فيلالي[1] إلى غارداية أنه كان في زيارة لصديقه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في منفاه بمدينة آفلو أثناء الحرب العالمية الثانية[2]. وصادف ذلك أن زاره أحد أعيان قبيلة المذابيح في غارداية وهو السيد:

---

1 – وقد سميت أول ثانوية بغرداية باسمه، وهي ثانوية محمد الأخضر فيلالي.

2 – وقد أجبره على الإقامة في ذلك المنفى الحاكم الفرنسي.

زرباني أبو بكر[1] . وبتلك المناسبة طلب منه باسم الجماعة أن يعيِّن لهم شيخاً من مشايخ جمعية العلماء المسلمين لينفع الله الأمة بعلمه. فوجد الشيخ البشير الفرصة سانحة ليقترح على الشيخ محمد الأخضر المذكور أن يلبي طلب الجماعة، ورغبه في ذلك فكان منه القبول.

واصطحبه السيد أبو بكر معه إلى غارداية ليجد الشيخ الترحيب التام من المواطنين، وذلك في خلال 1940م، ولم يلبث أن كوَّن ثلاث حلقات علمية على حسب مستويات الطلبة في اللغة العربية وقواعدها، والفقه الإسلامي على مذهب الإمام مالك ﷺ مع تحفيظ القرآن الكريم، ومراجعته يومياً بالنسبة لحافظيه...

وكانت له حلقة عامة بعد صلاة العشاء في جامع خالد بن الوليد في كل ليلة تؤمّها الجماهير من أحياء غارداية. وموضوعها: الأحاديث الشريفة وشرحها، وما يستنبط منها من أحكام وحِكم.

أما في فصل الصيف وجزء من فصل الخريف فينتقل بطلبته إلى الجامع العتيق بضاية بن ضحوة[2].

---

1 – كانت مبادرة هذا الرجل الفاضل ومن معه سببا في تعلم بعض أبناء المنطقة ، ومنهم شيخنا الأخضر الدهمة، على يدي الشيخ محمد الأخضر فيلالي الذي هو أحد علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. فجزى الله خيرا من بادر إلى الدعوة ، ومن أجابها، وكل من يسر السبل وهيأ الأسباب المادية والمعنوية لتعلم الشريعة واللغة العربية.

2 – هي إحدى بلديات ولاية غارداية. بالجزائر

وكان في درسه العام أحيانا ينهى أولياء البنات عن إرسال بناتهم إلى مدرسة من يسمونهم "الأخوات البيض" تجنباً لتنصير فلذات أكبادهم، وقد وقع المحذور ولكن في عدد قليل.

كما كان في الحلقات الخاصة يكوِّن طلبته تكويناً سياسياً وفي كل مناسبة يزرع في قلوبهم كراهية الاستعمار الفرنسي الطاغي الذي لا يجوز استمراره في البلاد، ولا يستساغ تحكمه في العباد، ويخزِّن في ضمائرهم الاستعداد للمساهمة في تحرير الوطن عندما يأذن الله بذلك. وكان يعلن لطلبته أن العدو الحقيقي للمسلمين ليس بعضهم لبعض مهما اختلفت طوائفهم ومذاهبهم وإنما هو الاحتلال الفرنسي الذي يغذِّي فيهم العداوات والنزاعات انطلاقا من القاعدة التي اتفق عليها محتلو البلاد العربية وهي "فَرِّق تَسُدْ" الأمر الذي لفت نظر الحاكم الفرنسي إلى خطورته فكلَّف جواسيسه بمراقبته في دروسه الخاصة والعامة. وقد بلغ السيل الزبا حينما اُتُّهِمَ بتأييد حاملي السلاح من القطر الليبي إلى القطر الجزائري فنفي من غارداية. وبذلك فترت النهضة العلمية التي زرع بذورها في الفترة الممتدة بين 1940- 1946 ولو أنّ روحها ظل يحرك المتمتعين بها، والمستفيدين منها ليعكسوه في أرواح غيرهم من إخوانهم وأبنائهم.

عاد الشيخ المنفي من الجزائر العاصمة إلى غارداية بعد تدخلات لدى السلطات الحاكمة من بعض المقربين عندها، ولكن لا ليستأنف النشاط فيها، ولكن ليحقق حلما راوده في منفاه وهو إرسال وفد من طلبته إلى تونس لينهلوا

من معين جامع الزيتونة ثم يعودوا إلى بلدهم ليواصلوا النهوض بالحركة الإصلاحية التي أنشأها.

مرحلة الدراسة بجامع الزيتونة:

تحقيقا لرغبة الشيخ محمد الأخضر فيلالي في التحاق بعض الطلاب بجامع الزيتونة اختير منهم ثلاثة، أحدهم الأخضر الدهمة، فذهب بهم إلى تونس في أوائل شهر أكتوبر من سنة 1946م. وبعد أن سلكهم في التعليم الزيتوني عاد إلى غارداية ليجد رغبة جامحة في نفوس بعض الطلبة ليلتحقوا بالتعليم الزيتوني أيضا فأجابهم إلى ذلك وكوَّن منهم وفدا قوامه خمسة أو ستة. وبعد أن اطمأن عليهم في تونس رجع إلى الوطن.

ابتلاء وتضحية في سبيل الدراسة:

في أثناء العطلة الصيفية من السنة الدراسية 1946-1947 وجه الحاكم الفرنسي بغارداية بواسطة أحد عملائه المخلصين في متليلي إنذاراً شديداً إلى أولياء الطلاب الذين يرسلون أبناءهم إلى تونس ليتعلموا في جامع الزيتونة بأمر من الحاكم الفرنسي في غارداية يحذرهم من إعادة إرسالهم إلى تونس وينصحهم بأن يحتفظوا بتلك المنح المالية لأنفسهم لأنهم فقراء ولأن أبناءهم لا ينفقونها إلا في لهوهم وعبثهم، وحتى إذا تعلموا فإنهم لا يتعلمون إلا الأفكار الشينة (طبعا الأفكار المضادة للاستعمار). فرفض أبوه أمر ذلك الممثل، وجابهه بأنه مستعد لإفناء كل ما يملك من مال في سبيل تعليم ابنه مادام يرغب في ذلك...

دخلت السنة الدراسية 1947-1948 فتوجه للدراسة كالمعتاد وفي ليلة من ليالي شهر أفريل 48 نفذت المؤامرة التي حيكت لوالده قويدر الدهمة بأمر من الحاكم الفرنسي، وذلك بإفراغ محله التجاري من جميع محتوياته، والاستيلاء عليها، ثم إشعال النار فيه لتأتي على خزائنه ورفوفه الخشبية، عقوبة له على عصيان السلطة الحاكمة في إرسال ابنه إلى تونس. ونتيجة لهذه الفاجعة المؤلمة أصبح فقيراً معدما عاجزاً حتى عن تحصيل قوت عياله. عندها أرسل إلى ابنه الأكبر الذي كان يشتغل في الجزائر ليتولى تزويد أخيه الأخضر بالمساعدة المالية الشهرية، ولو لا تلك المساعدة التي تفضل بها أخوه أحمد عليه لا نقطع عن الدراسة في أثناء السنة.

ويجيء الحاكم الفرنسي إلى متليلي ليستمتع بتحقيق المؤامرة التي بُشِّر بها. وما كادت عيناه ترى نتيجتها المُرضية له حتى ارتسمت على فمه ابتسامة عريضة، ولسانه حاله يقول: المال الذي تريد إفناءه في تعليم ابنك نفنيه نحن قبلك. وهنا استغرب الوالد من هذه الابتسامة الواقعة في غير محلها فسأله عنها بواسطة المترجم ليجيبه بأنه كان يتعجب من الحيلة التي استطاع المعتدون أن يدخلوا بها كالفئران إلى هذا المحل المحصن ويقول له: حين تكتشف المعتدين عليك أن تقدم شكوى إلى محكمة البليدة، ويجيب الوالد بأنه يقدم الشكوى إلى محكمة أخرى؟؟

وهنا ينفعل الحاكم ليسأله – بواسطة المترجم – : أي محكمة؟ ليجيبه: إنها محكمة ربِّي...

وسرعان ما اكتشفت خلية الحزب الذي كان ينتمي إليه الابن (الأخضر) - وهو حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية- المعتدِيَيْن بالحجة الدامغة وأخبرت عنها الوالد ليخبر عنها هو بدوره ممثل السلطة ولكن هذا الممثل كان ينفي عنهما التهمة بشدة ويستدل بأمور لا يصدقها حتى البلهاء! مما يدل على المؤامرة المحبوكة...

في آخر السنة الدراسية 49/ 50 قرر الانقطاع عن الدراسة لقلة ذات اليد، ولكثرة الاحتجاجات الطلابية التي قلّصت من مدة الدراسة بعد أن نال مستوى شهادة التحصيل في الزيتونة.

ومن مشايخه في تونس الذين استطاع أن يتذكر أسماءهم: الحبيب بلخوجة ، الطاهر الغمراسني ، صالح النيفر ، صالح بسيس.

العودة إلى الجزائر واستكمال الرسالة العلمية:

بعد عزمه على العودة إلى الجزائر ذهب إلى أحد مشائخه الثائرين على السلطة الاستعمارية لتوديعه، ألا وهو الشيخ الطاهر الغمراسني -رحمه الله-، فسأله: ماذا تعمل بعد رجوعك إلى بلدك؟ فأجابه: التجارة (تبعا لوالده) فأجابه: لا؟ إن بلدكم يستعمره الفرنسيون استعمارا ظالما، ولابد من مقاومته بنشر الوعي الوطني الإسلامي، وتحصين الشعب من قابلية الاستعمار الأجنبي حتى ينادي منادي الجهاد المسلح. فأجابه إلى ذلك. وعاهده عليه.

وكانت قاعدة الانطلاق لذلك هي التربية والتعليم. ولكن أين؟ أما في متليلي فذلك مستحيل!! لأن الحكم العسكري الضارب أطنابه في جنوب الجزائر لا يسمح بذلك، وقد كانت له معه تجارب أثناء العطل الصيفية في متليلي حيث كان يمنع – مع زملائه – منعاً تاماً من أي نشاط يخرج عن الطريقة البدائية الجامدة وإلا فالسجن ينتظرهم.

إذن فليكن النشاط في شمال الجزائر حيث المدارس الحرة التابعة لحركة الانتصار للحريات الديمقراطية وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وجمعيات أخرى.

التدريس بمدينة عين بسّام بولاية البويرة:

رتَّب له الشيخ الفاضل الثائر السيد مصباح الحويذق -رحمه الله- في أوائل جويلية 1950م لقاء في منزله بالحراش مع جماعة من عين بسام ولاية (البويرة) ليتولى فيها التربية والتعليم بمدرسة أنشأها لهذا الغرض بعض الإصلاحيين هناك بعد أن عِيل صبر الشيخ الفاضل المصلح الذي كان يعلم بها ألا وهو السيد: محمد أمزيان من جراء المضايقات التي كانت تحاصره من أنصار الجمود المعززين بتأييد السلطة الاستعمارية فغادرها إلى جهة أخرى...

وبعد تغيير أسلوب العمل في المحيط استطاعت المدرسة أن تؤدي رسالتها المنوطة بها أحسن أداء بشهادة الخاص والعام بل حتى الخصوم. رغم الاستنطاقات الأمنية التي كان يتعرض لها معلمها والتي تستهدف الاطلاع على

كل صغيرة وكبيرة في برامجها، والتعرف على الأعضاء السِّرِّيين الذين كانوا يرعونها، وخصوصا بعد اندلاع الثورة المباركة العارمة في غرة نوفمبر 1954م. وكانوا فعلا منخرطين في جبهة التحرير الوطني.

وبمناسبة الإضراب الشامل الذي أمرت به جبهة التحرير الوطني واستمر سبعة أيام، من أواخر يناير1957م وأوائل فبراير الموالي، وجدت السلطة الفرصة سانحة لإغلاق المدرسة بصفة نهائية، وإلقاء القبض على مسيرها. ولولا أن هناك شخصيات مرموقة في المنطقة كانت تثبط اتخاذ أي قرار ضدها، ولولا فشل المخابرات في العثور على حجة يعتمد عليها لأغلقت قبل ذلك لأنها ظلت مشبوهة منذ افتتاحها إلى إغلاقها ...

وما إن أطْلعت الجمعية السرية معلمها على أن اسمه مدرج في قائمة المقبوض عليهم بعد يومين حتى رحل عن البلد سراً ملتجئا إلى مدينة غارداية.

جنَّ جنون "الدرك" الفرنسي حين لم يعثروا عليه فكسروا باب المدرسة، وأفرغوها من محتوياتها، واحتلها فريق من الجيش الاستعماري إلى فترة الاستقلال الوطني.

العودة إلى مدينة غرداية:

ما إن وطئت قدماه غارداية حتى سارعت بعض الجمعيات إليه يريدون التعاقد معه في حقل التثقيف الإسلامي بأبعاده المتنوعة.

وأخيرا قرر التعاون مع الجمعية التابعة لمسجد حمزة بن عبد المطلب برئاسة السيد: الساسي بوشليقة -رحمه الله- صحبة زميله في الدراسة السيد: محمد قباني رحمه الله الذي كان ينشط قبله في المسجد والمدرسة التابعة له.

وقد تزامن ذلك التعاقد مع انضمام زميله الثاني في أيام الدراسة أيضا ألا وهو السيد: عيسى عمير إلى جيش التحرير بالمنطقة تاركا العمل في المسجد والمدرسة التابعة له. وقد استشهد -رحمه الله- في إحدى المعارك مع جيش العدو الفرنسي.

قام السيدان الدهمة وقباني بالمسجد والمدرسة أحسن قيام مما نجم عنه نهضة علمية إصلاحية لم يكن للمنطقة عهد بها رغم تشديد الرقابة الفرنسية على المؤسسة ليلا ونهارا! أما في الليل فتحسبا لما عساه يحدث من اتصال بين المجاهد عيسى عمير وإخوانه المجاهدين بالمعلِّمَينِ المذكورين ومعهما أعضاء الجمعية الذين كانوا كلهم ثوريين مجاهدين. وقد كان الاتصال يقع فعلا ولكن المتصلين لم يكونوا من البلادة بحيث يوقعونه في المسجد المراقب وأما في النهار فبالتجسس على نشاط المؤسسة من حيث اتجاهها، ومن حيث نوعية المتصلين بها من الناس.

ومن الحقائق التي يتذكرها الشيخ الأخضر في هذا المقام هي تعاون رجال الكنيسة مع العسكر في مراقبة أية حركة أو توجيهات سياسية تؤيد المجاهدين. ومن الأمثلة القليلة الظاهرة على ذلك أنهم كانوا في مرات عديدة يتعرضون للتلاميذ في الطريق أثناء انصرافهم من المدرسة ليشكروهم وليستهووهم إلى فتح

محافظهم للإطلاع على ما دوَّنوا في كراساتهم، ويسألونهم عما يلقنه لهم معلموهم وغاب عنهم أن المربين كانوا من الحذر والاحتياط بحيث لا يأذنون لتلاميذهم بتسجيل ما من شأنه أن يدينهم لدى الحاكم الفرنسي في كراساتهم وإنما في أدمغتهم؟

نشاطات متنوعة بعد الاستقلال:

أنعم الله تعالى على الشعب الجزائري بالنصر المبين على جحافل الاستعمار الفرنسي بواسطة الثورة المباركة الشاملة التي فجَّرها الرعيل الأول من المجاهدين في أول نوفمبر من سنة 1954م. وتأسست الحكومة الجزائرية التي استنجد فيها أول وزير للتربية والتعليم بالمعلمين الأحرار ليلتحقوا بالتعليم الرسمي فكان مترجمنا من السابقين إلى ذلك.

وقد زاوج بين عمله في المؤسسات التعليمية يعلم فيها اللغة العربية والتربية الإسلامية والتاريخ وبين المؤسسات الدينية يلقي فيها دروس الوعظ والإرشاد، والفقه الإسلامي وتفسير القران الكريم وشرح الحديث الشريف وذلك على سبيل التطوع يضاف إلى ذلك مشاركته في الندوات العلمية والتجمعات الشعبية الهادفة إلى بناء الوطن بناء متكاملا على الأسس التي ضحى من أجلها الملايين من المجاهدين والشهداء بأموالهم وأنفسهم وذريتهم.

ومما يذكر في جانب التعليم غير الرسمي هو قيامه بدروس دعم وتقوية في اللغة العربية لبعض الأساتذة والمعلمين، من خلال سلسلة "النحو الواضح" .

وفي مجال النضال السياسي والإداري والقضائي يمكن الذكر أنه في أواخر سنة 1962 انطلقت بعثات حزبية إلى الأقاليم لتكوين مؤسسات جبهة التحرير الوطني فكان ضمن المناضلين الذين تألفت منهم دائرة غارداية وأوكل إليه فيها الجانب الثقافي.

ثم جاء دور تكوين البلديات فألحَّ عليه المسؤولون المعنيون أن يقبل التعيين في الهيئة التنفيذية لبلدية غارداية ليتولى فيها الشؤون الثقافية.

ثم اقترح عليه النظام الثوري، بواسطة أحد ضباطه في جيش التحرير الوطني، وهو رشيد الصائم، أن يكون عضوا في المجلس القضائي، ولم يقبل اعتذاره عن ذلك بكثرة أعماله المضنية. وكان أعضاء المجلس هم : مدقن عبد القادر، محمد مطهري، عبد القادر الزغيدي، بالإضافة إلى الشيخ الأخضر الدهمة.

ونظرا لواقعه النضالي مع إخوانه المجاهدين في المنطقة اعترف له فيما بعد بصفة العضوية في المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني.

العودة إلى متليلي:

في أوائل السبعينيات من القرن الماضي بدأت العروض تتوالى عليه من بعض أعيان متليلي ليقوم فيها بالتربية والتعليم لطلاب العلم وبإفادة الجماهير بما هم في حاجة إليه من توجيه ديني سليم، وإصلاح اجتماعي قويم.

ولم يأذن الله باستجابته لتلك العروض الأخوية إلا في أوائل السنة الدراسية 1976-1977م. فقد انتقل في منتصف شهر أكتوبر 1976م إلى متليلي حيث ولي وظيفة الاستشارة التربوية تارة والتفتيش تارة أخرى مع إشرافه على إدارة مدرسة عبد الحميد بن باديس.

ومن حيث التطوع أسند إليه أولا درس الجمعة في الجامع العتيق، ثم صار يقوم بالتدريس بين المغرب والعشاء في بعض المساجد، ثم خص المسجد المجاور لمنزله بدرس يومي في تفسير القرآن الكريم وهو مسجد ذي النورين بمتليلي بعد صلاة الصبح.

تقاعد رسمي ونشاط مستمر:

في أول يناير من سنة 1984م أجيب إلى مرامه في التقاعد من التعليم الرسمي، فتفرغ للتوجيه والإرشاد في مساجد متليلي وغارداية ونواديهما وفي التجمعات الخاصة والعامة.

فقد كانت له دروس في التفسير بمسجد عمر بن الخطاب بحي الثنية بغارداية، قام فيها بتفسير سورة الفاتحة وسورة البقرة في سنين عديدة، كما كانت له دروس غير منتظمة بمساجد أخرى كثيرة بغرداية، وكذلك بضاية بن ضحوة، وبالعطف، وغيرهما، إضافة إلى مساجد أخرى بالولاية في مناسبات خاصة.

والواقع أنَّ صِلَته بالتدريس في مساجد غرداية كانت منذ الاستقلال، ولم تنقطع، لكنها تكثَّفت بعد التقاعد.

إلى جانب التدريس كان له نشاط معتاد في جمعية الإرشاد الديني والإصلاح الاجتماعي التي تأسست بغرداية خلال 1963م، وقد كان يرأسها السيد مسعود بلي، رحمه الله، ثم خلفه في رئاستها السيد عبد الباقي عبد الباقي، وكان الشيخ الدهمة النائب الأول فيها.

ومن إنجازاتها المعتبرة في غارداية بناء نادي بدر والمسجد الذي أسس فوقه. وهي الآن (2010م) بصدد إنجاز مسجد أنس بن مالك في متليلي الجديدة...

وكان متعاوناً ومازال أيضاً مع الجمعية الخيرية التي يرأسها السيد عمر بن خليفة.

ولم يلبث إلا قليلا بعد التقاعد، إذ كلفه السيد وزير الشؤون الدينية آنذاك وهو الشيخ المحترم عبد الرحمان شيبان حفظه الله بمديرية الشؤون الدينية لولاية غرداية بعد انفصالها عن ولاية الأغواط .

ومما اشتهر به الشيخ الأخضر اجتهاده في تصحيح المفاهيم الدينية، وترشيد التوجهات الفكرية والسياسية لدى الشباب، ومحاربة الخرافات الهابطة بالعقول البسيطة، دون التفاتة إلى بعض الردود من أنصارها، إذ كان في ذلك قوي العزيمة.

مؤلفاته:

حينما شرع في تفسير القرآن الكريم في بعض مساجد متليلي دعاه جمع من الأساتذة والأئمة إلى اختصار تفسيره المنطوق به في تفسير مكتوب ليعمَّ به النفع

شتى البلاد ويكون ثوابه عند الله أعظم. ورجوه أن يراعي فيه مستوى طلاب العلم والطالبات في الجامعات والثانويات الذين يرغبون في التحليل اللغوي والإعراب لبعض التراكيب في الآيات التي تقتضي ذلك فأجابهم إلى ذلك بتأليف كتب فيما يلي:

- تفسير سورة الفاتحة.
- تفسير سورة يس.
- تفسير سورة الحجرات.
- تفسير سورة الحشر.
- تفسير جميع قصار المفصل من الضحى إلى الناس.

أما تفسير سورة البقرة الذي قام به في جامع "عمر بن الخطاب" في غرداية فهو مسجل في بعض الأشرطة.

وقد ألف كتابا في فقه المعاملات ولكنه لم يطبع بعد.

وله خطب كان يشارك بها في المحافل التي تلتئم في بعض المناسبات أو الذكريات يعالج فيها بعض القضايا الاجتماعية وينتقد بعض المناظر السلبية في المجتمع الواسع.

مكتبته:

في خلال 1992م اقتطع من فناء منزله في متليلي قطعة أرض مساحتها 70م² ليبني عليها مشروع مكتبة من ماله الخاص ليحبس محتوياتها من كتب وأجهزة في سبيل الله على كل من هم أهل للاستفادة منهم..

وفي خلال 1994 افتتحها للناس بعد أن حوّل إليها كتبه الخاصة ثم أثراها بما يستجيب لطلاب المعرفة من أمهات الكتب وأفيدها (تفاسير القرآن الكريم، شروح الحديث الشريف، فقه إسلامي، فتاوى شرعية، أدب، أخلاق، معاجم لغوية، قواعد اللغة العربية، بعض العلوم التي يدرسها الطلاب، تاريخ، جغرافية، مجلات، أشرطة مسجلة)...الخ.

وهيكل المكتبة قسمان:

قسم أرضي للمطالعين والمطالعات، وعقد الندوات العلمية، وتلقي الاستفتاءات للإجابة عنها واستقبال الزائرين الوافدين ...

وقسم علوي خصص للإناث يتعلّمن فيه القرآن الكريم، ويتخلّصن من الأمّية، ويدرُسن قواعد التلاوة على يد معلمة كفأة من تلميذاته اللائي خصَّص لهن درساً أسبوعياً في المكتبة منذ سنوات.

وكانت مواضيع الدروس أولاً: تصحيح أداء القرآن الكريم للائي حفظنه من قبل وتفسير بعضه. وثانياً: الفقه الإسلامي. وثالثاً: السيرة النبوية التي مازال يدرِّسها إلى الآن (مطلع عام 1431هـ-2010م).

منهج متميز في التدريس:

المتتبع لدروس الشيخ الأخضر الدهمة يدرك خبرته الكبيرة في التدريس، سواء في تدريس التفسير، أو الفقه، أو اللغة، أو المواعظ...

فتمكُّنه العلمي في المواد التي يدرِّسها جعله يعرضها بمقدرة وكفاءة، ومع ترتيب لأفكارها ترتيبا منهجيا، وكأنه يأخذ فيها بيد السامع فيطوف به في جوانب الموضوع برفق ، مصحوب بالوضوح والبساطة، يخرج بعدها السامع وقد تمكن من استيعاب ما رآه عسير الفهم في البداية. والسبب هو أن الشيخ يكثر من التمثيل، لكن بالأمثلة القريبة من الواقع المعيش، إضافة إلى اختيار الألفاظ المفهومة المتداولة، وأسلوب البيان والتمهّل في الإلقاء. بل كثيرا ما يورد ألفاظا تتضمنها بعض النصوص المستشهد بها مما يعدُّ غريبا لدى معظم السامعين فيذلِّل فهمها حتى تصير معانيها معلومة لدى عامة المستمعين.

وقد عُرِف الشيخ وتميَّز في الإرشاد العام ، أثناء مناسبات مختلفة، بأن له المقدرة على الانطلاق في درس من نص قرآني أو نبوي أو حكمة يتصور السامع له في البداية أنه لن يتجاوز دقيقتين أو ثلاثة، فإذا به لا يتوقف عن تحليله إلا خشية الإطالة على الحاضرين.

منزلة علمية واجتماعية ورسمية:

لقد كان أسلوب الشيخ الأخضر في التدريس لتلاميذه، وإخلاصه لهم، وإسداء النصح لهم كلما دعت الحاجة إليه، وزرع روح التسامح بينهم، والتعالي

عن التأثر بالانتماءات المختلفة، وكان تدريسه للجمهور في المساجد، وخطبه في الجموع المتأثرة بصدقه فيما يقول، وتعامله الطيب مع زملائه في الأعمال المشتركة، كل ذلك أكسبه رصيداً واسعاً من المحبة والتقدير لدى أبنائه الروحيين، وجمهور المستفيدين من علمه وتجاربه.

فبحكم تكوينه العلمي، وجهوده التعليمية مما أشير إليه سابقا، وكذا بحكم خبرته الطويلة، ومواقفه المعتدلة في مختلف القضايا، كتب الله له منزلة متكاملة:

- منزلة علمية صار بها المرجع في الفتوى لدى الناس، إضافة إلى علاقاته الطيبة وتواصله مع كثير من العلماء والأساتذة من داخل الولاية وخارجها.

- ومنزلة اجتماعية صار بها مفتاحا لكثير من المشكلات الاجتماعية في المنطقة.

- ومنزلة رسمية جعلته ممثل المالكية بالولاية وأبرز أعيانهم لدى الجهات الرسمية، في مختلف المناسبات والأحداث...

ولعل من أبرز من أكسبه تلك المنزلة هو تواضعه مع الناس عامة، ومع طلابه خاصة، وهذا الذي نشهد به، ويشهد به كل من خالطه.

جزى الله شيخنا الأخضر الدهمة خير الجزاء على ما بذله في تعليم أبناء الأمة من تفسير وفقه ولغة ، و في توجيه أبنائها وإرشادهم، و في مجالس الصلح المختلفة، وجعل ذلك في ميزان حسناته. آمين.

بعض تلاميذه

المحتويات

محتويات الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة
سورة الضحى	01
ما المراد بالآخرة والأولى؟	06
إيواء الله لنبيه ﷺ في يتمه	08
تأديبه منذ صغره	11
ما المراد بالضلال الذي كان عليه النبي ﷺ ؟	12
إغناء الله تعالى لنبيه ﷺ	13
هل لوصي اليتيم تأديبه؟	14
هل ثبت أن الرسول قهر يتيما أو نهر سائل علم أو مال أو لم يحدث بنعم الله؟	17
سورة الشرح	23
معنى شرح الله تعالى لصدر نبيه ﷺ	24
المراد بالوزر الذي وضعه الله عن نبيه ﷺ	26
رفع الله تعالى لذكر نبيه ﷺ	28
مبحث اليسر والعسر	29
قيمة الوقت	34
سورة التين	43
مدلولات التين والزيتون	44
ظواهر سفالة الإنسان	49
طرفة تتعلق بحسن تقويم الإنسان	57

سورة العلق	61
قصة الوحي	62
وجه الحكمة في اختيار رسول أمّيّ	67
إذلال أبي جهل	78
أهمية الكتابة والقراءة	83
سورة القدر	91
خيرية ليلة القدر	96
تنبيهات حول ليلة القدر	101
سورة البينة	109
حاصل معنى الآية الأولى	116
أسباب إنكار الحق	127
سورة الزلزلة	135
إنكار البعث	146
عدل الله المطلق	148
سورة العاديات	151
حقائق في الإنسان	160
سورة القارعة	165
ثقل الموازين وخفتها في الآخرة	169
سورة التكاثر	175
حكم زيارة القبور	179
المحاسبة على النعيم	186

سورة العصر	191
الخسر والربح في القرآن الكريم	195
مفهوم الصلاح والفساد في الإسلام	197
شروط النصيحة	199
عاقبة إهمال التواصي بالحق	201
ما يستفاد من سورة العصر	203
سورة الهمزة	207
العبرة منها	215
سورة الفيل	219
قصة أصحاب الفيل	219
تأملات من وحي السورة	227
سورة قريش	235
ما يستنبط من السورة	242
سورة الماعون	245
ماذا في مضمونها ؟	252
سورة الكوثر	255
أحكام فقهية وتصحيح مفاهيم	262
سورة الكافرون	269
من إيحاءاتها	274
سورة النصر	279
فضيلة الاستغفار	287
استنتاجات من السورة الكريمة	289

سورة المسد	293
من هو أبو لهب؟ من هي امرأته؟	293
تأملات حول السورة	304
سورة الإخلاص	311
فضلها	311
خلاصة	322
تذييل	323
سورة الفلق	327
فضل المعوذتين	327
هل سحر النبي ﷺ ؟	335
علامات يعرف بها الساحر	340
سورة الناس	345
مقارنة بين سورتي الفلق والناس	350
خطوات الشيطان في الإغواء	350
ما يعتصم به العبد من الشيطان	351
التناسب البديع بين بدء القرآن وختمه	352
المراجع	355
التعريف بالمؤلف	359
محتويات الكتاب	379